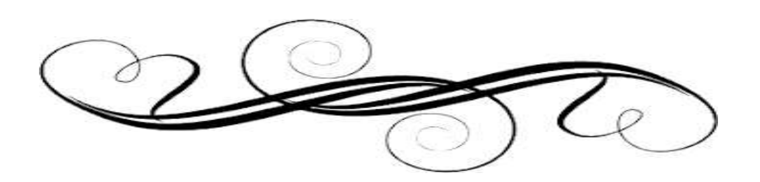
تاريخ حائر بين بان وآن

تاريخ لم يروَ وسيرٌ لم تدون



د. محمد فتحي عبد العال

الطبعة الأولى ٢٠٢٢



عنوان الكتاب: تاريخ حائر بين بان وآن

اسـم المـؤلف: د. محمد فتحي عبد العال

التصنيف الأدبي: دراسة تاريخية

رقـم الإيــــداع: 2197 / 2022

الترقيــم الدولي: 7 - 578 - 998 - 977 – 978



التدقيــق اللغوي: د. هبة ماردين

تـصميم الغلاف: شـيمـأء منـيـر

التنسيق الداخلي: محمد وجـيـه

رقــم الطـبـعـة: الطبعة الأولـى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر – بورسعيد

تليفون: 00201211132879 – 00201030502390

بريد الدار: mohamedhamdy217217@gmail.com

تاريخ حائر بين بان وآن

تاريخ لم يروَ وسيرٌ لم تدون

د. محمد فتحي عبد العال

ديوان العرب للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحیم

إهداء

إلى روح والدتي الغالية السيدة ناريمان عبد الفتاح أحمد زردق.

وإلى روح أخي العزيز الأستاذ أحمد فتحي عبد العال.

وقد شاء الله أن يكون موعد رحيلهما في نفس اليوم من شعبان لعامين متتاليين.

أهدي هذا الكتاب متمنياً أن يكون صدقة جارية على روحيهما.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله تعالى عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِذَا مَاتَ ابنُ آدم انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

د. محمد فتحي عبد العال

****

مقدمة

هذا هو الكتاب الثالث من مشروعي لإعادة تقديم تاريخ مصر من منظور مختلف ينشد الحقيقة، ويبحث في خفاياها، ويربط ماضي مصر بحاضرها وقضاياها المعاصرة بجذورها من الماضي بحثاً عن مستقبل أفضل لبلاد تستحق أن تكون في صدارة الأمم... لقد حافظت في هذا الكتاب وسابقيه أن يكون سياق الحديث أقرب إلى الدردشة منه إلى التأريخ، متبعاً لغة سهلة وسلسة؛ فالمكتبات أصبحت ممتلئة عن آخرها بالكتب عن تاريخ مصر القديم والحديث تأريخاً وبحثاً ودراسة وتفصيلاً، لكن كيف نستفيد من التاريخ ونحاول أن نفهم مواطن الخطأ ومنابع الضعف بعيداً عن مثالية الأحداث وتأليه الأشخاص... ورغم هذا فقد حرصت على تدعيم كل معلومة في هذا الكتاب بمصادرها التاريخية المعاصرة لأحداثها القديمة دون استخدام لمصادر معاصرة وسيطة كتبت بعد الأحداث بوجهات نظر وأيدلوجيات تخدم وجهات نظر أصحابها ولا تخدم الحدث التاريخي ذاته حتى لا أتحول بغاية الكتاب من القراءة الجماعية بصوتٍ عالٍ إلى الاتهام والرفض، كما حدث ويحدث مع كتب تاريخية كثيرة.

رحلة مضنية ومرهقة بين مئات الكتب والصحف القديمة والحديثة تحملت مشاقها على مدار أعوام أملاً وطمعاً في بلوغ هذه اللحظة التي أجمع

فيها شتات ما قرأت، وأضمّن محتواه في فصول وأجمّل فوائده ومبتغى دروسه في مقالات متنوعة... المؤسف في رحلتي أن أجد بعض الأرشيفات الإلكترونية لمجلات وصحف مصرية قديمة أصبحت مملوكة لمواقع تابعة لجامعات أوروبية وأمريكية، بل وأحياناً لا أجد منها سوى أعداد قليلة على المكتبة الوطنية الإسرائيلية متاحة بمقابل وبدون، للباحثين حول العالم ولا أجد موقعاً مصرياً تابعاً لجامعة أو مؤسسة مصرية يضطلع بحفظ هذا التراث أو ينتشل ما بقي منه على الأرصفة وبين باعة الكتب القديمة، وهو أصدق مرآة للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في مصر على مدار تاريخها...

أتمنى أن ينال كتابي القبول والمكانة اللائقة في المكتبة العربية.

والله من وراء القصد

د. محمد فتحي عبد العال

****

"أيها الإخوان إني نظرت في أحوال الشعب المصري من حيث التاريخ فوجدته مظلوماً مستعبداً لغيره من أمم الأرض، فقد توالت عليه دول ظالمة له كثيرة كالعرب الرعاة (الهكسوس) والأشوريين والفرس، حتى أهل ليبيا والسودان والرومان، وهذا قبل الإسلام وبعده، تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين والعباسيين والفاطميين من العرب والترك والأكراد والشركس، وكثيراً ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها في أوائل هذا القرن في زمن بونابرت. وحيث إني أعتبر نفسي مصرياً؛ فوجب عليّ أن أربي أبناء هذا الشعب، وأهذبه تهذيباً حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة نافعة، ويستغني بنفسه عن الأجانب، وقد وطدت نفسي على إبراز هذا الرأي من الفكر إلى العمل".

الوالي محمد سعيد باشا

"كفانا إذاً حديثاً عن مزايانا ومناقبنا، فهي مؤكدة ومقررة وهي كفيلة بنفسها، ولنركز من الآن على عيوبنا، لننظر إلى عيوبنا في عيونها في مواجهة شجاعة، لا لننسحق بها، ولكن لنسحقها! لا لنسيء إلى أنفسنا، ولكن لنطهر أنفسنا"

جمال حمدان

القسم الأول

المقالات

المقال الأول

بين علماني وشيخ

عادة ما تواجهني في حياتي مشكلة الوقت، والذي عادةً ما أنتزعُه انتزاعاً، لذلك تمثل لي إجازتي السنوية ـويا ليتها سنويةـ فرصة لالتقاط الأنفاس والعودة إلى أيام الصبا ومهد الشباب، حيث راحة البال بين أماكن غادرتها ولم تغادرني وأقران رحلوا ولم يعد للقائهم موعد غير مصادفة قد لا تأتي ونادراً ما تأتي...

منذ عامين صدر لي روايتان إحداهما ساعة عدل (اجتماعية) والأخرى خريف الأندلس (تاريخية)... ومنها بدأت رحلتي في عالم الأدب والأدباء والنقد والنقاد، وقد ظننته عالماً أكثر رحابة من عالمي الوظيفي الضيق القاتم...

نصحتني إحدى الناقدات أن ألتحقَ بإحدى الورش الأدبية بأحد أحياء القاهرة العتيقة للاستفادة من النقاشات الساخنة هناك بين الأدباء، ومن ثم عرض الروايتين بعد ذلك للنقاش...

حضرت على الموعد مرتدياً بذلة وقميصاً، تحته "تي شيرت" ذو لونٍ فاقع غريب الأطوار إذ كنت في عجلة من أمري والطقس شديد البرودة ليلاً..

المهم وصلت الورشة والتي تتبع حزباً يسارياً أكل عليه الدهر وشرب، ولم يبقَ ما يدل على شعاراته سوى صور عبد الناصر التي تتصدر المدخل...

لا بأس وإن بدت البدايات غير مشجعة... جلست وبدأ النقاد في استعراض الكتاب موضع النقاش وصاحب الكتاب يدافع عن نضارة فكرته، وأنه اقتحم عالم الحب والغرام والهيام من أبواب لم يعرفها لا عنتر ولا قيس...

لا أفهم لماذا أقحم مدير الندوة فجأة وعلى غير موعد مسألة الاستشفاء بأبوال وألبان الإبل مستشهداً من ذلك على غيبوبة العالم العربي ووقوعه في غيابات الخرافة والجهل، وقبلها كان يشدو بالرواية الملحمية موضع النقاش والمكتظة بالتلميحات الجنسية المبطنة والصريحة، والوصف الكامل للعلاقات الحميمية، وأنها تذكره بشقاوته مع بائعة الخبز على أول شارع بلدته... وبرر طبعاً الجنس في الرواية بأنه يخدم النص في رؤية الناقد المثقف الجهبذ صاحب الشوارب المفتولة والعينين الغائرتين!!

الحقيقة لم أستطع الصمت، وقد ظهر على وجهي الحنق وسط محاولات من زميلتي الناقدة والتي كانت تجلس بجواري لإثنائي عن مقاطعته ووجهت حديثي إليه:

-يا سيدي إني أستغرب ممن يستهجن كل ما هو دينيّ لمجرد أنه لا يعجبه وتعافه نفسه، فالتداوي بألبان الإبل وأبوالها جهل وغمس الذبابة في الإناء بداوة، وكل هذا الرفض بحجة العلم...

هزّ الرجل صلعته في استعلاء وراح يضحك، لكن ذلك لم يمنعني من أن أكمل:

-ما رأيك يا سيدي في القهوة التي يتغزل فيها الشعراء والمفكرين؟

ـ رد الرجل: أنا أحبها ألا ترى قدحي الممتلئ؟!

ـ قلت: هل تدري يا سيدي أن أغلى أقداح القهوة التي تضعها أمامك وتبهجك من براز الحيوانات؟! فهل يا ترى تتهم العلم كما اتهمت الدين؟!

صمت الرجل وفتح فاه، ثم قال منفعلاً:

-يا عزيزي هذا المكان ليس مناسباً لمناقشة الخرافات والمقارعة حول الخزعبلات واستعراض العضلات في الأوهام.

ـ قلت: يا أخي الفاضل أنا أحدثك بالعلم الذي تفاخر به فكوبي لواك القهوة الأندونيسية المشهورة والكوب منها بثمانين دولاراً من براز قطط الزباد، وقهوة العاج الأسود التايلاندية من براز الفيلة، وسعر الكيلو منها ألف دولار... فهل ستتوقف الآن عن استعمال القهوة مشروبك المفضل لأنّ العلم استخرجها لك من براز الحيوانات؟!

فصمت الرجل واحمر وجهه...

وتمنيت لو كان يتقن الإنجليزية لأطلعته على دراسات منشورة حول الاستشفاء بألبان وأبوال الإبل، ويا ليته يترك رسوم الكاريكاتير المتغزلة في النساء العاريات والإيحاءات البذيئة على صفحته على موقع التواصل الاجتماعي، ويباهي بأنه يعثر عليها لجيل الرسامين القدامى، ويقرأ عن

الإعجاز العلمي في دينه ويشرحه للناس، بالتأكيد سيكون عملاً نافعاً يقابل به الله...

(ملحوظة هامة: تُجرى أبحاث دوائية عديدة فيما يتعلق بأبوال الحيوانات ومنها الجمل، وبحسب الأبحاث فبول الإبل ناجع كواقٍ للمعدة والكبد ومضاد لتكدس الصفائح الدموية، ومضاد للميكروبات كالبكتريا، ويمنع الضرر بالكروموسومات علاوة على دوره ضد السرطانات خلايا هيلا والساركوما العظمية واللوكيميا... ويمكن مراجعة بعض الأبحاث الخاصة بذلك، وبعضها منشور في قاعدة البيانات ساينس دايركت التابعة لدار النشر العريقة إلزيفير.

/https://www.sciencedirect.com

S0278691521001642/science/article/abs/pii

/science/article/pii/https://www.sciencedirect.com

S1319016421001031

journal-details/139/https://universepg.com

أما ألبان الإبل؛ فقد أثبتت الأبحاث فائدتها في علاج اضطرابات المعدة والأمعاء، وخفض الكوليسترول في الدم وتقوية المناعة والحماية ضد السرطان ومرض الصدفية وغيرها.
ويمكن مراجعتها على المقال التالي:

https://www.ejmanager.com/fulltextpdf.php?mno=189799

طبعاً هذه ليست دعوةً للاستخدام العشوائي خارج الإطار الطبي المنضبط، ولكنْ بياناً وشرحاً أن الحديث النبوي الشريف ينطوي على إعجاز كبير وليس جهلاً وتغييباً للعقول كما يدعي بعض المغيبين، وقد كنت منهم يوماً قبل أن ينير الله بصيرتي للحق والصواب هدانا الله جميعاً).
انصرفت متأخراً وعدت إلى منزلي وكان اليوم التالي هو الجمعة فاستيقظت نشيطاً وذهبت إلى المسجد مبكراً، وقد سمعت أنّ شيخاً بارزاً من بلدة مجاورة سيأتي لإلقاء خطبة الجمعة... كانت الخطبة الأولى للشيخ عن التبرج وأنّ الحجاب فريضة شرعية وضرورة تنشئة الفتيات منذ الصغر على التزام الحجاب وهو كلام طيب، ثم بدأ يحلل الواقع الآن وأن التبرج بدأ بمصر يوم خلعت هدى شعراوي حجابها، وراح يصيح بصوت متهدج أن

هدى شعراوي سافرت إلى فرنسا محجبة وعادت سافرة، وأنّ أباها كان في استقبالها في ميناء الإسكندرية، فلما رآها سافرة امتقع وجهه غضباً، ونكّس رأسه خجلاً... طبعاً العوار بالقصة وهي مشهورة ومصدرها كتاب واقعنا المعاصر لمحمد قطب، واضح ذلك أنّ والد هدى شعراوي توفي عام **1884**، وهي لازالت طفلة في الخامسة من عمرها، وهو ما يفكك كل عريّ هذه القصة الواهية (يمكن العودة لكتاب على هامش التاريخ والأدب).

في الخطبة الثانية تطرق الشيخ إلى الإعجاز العلمي في القرآن وقصة فرعون موسى، وأنّ فرعون موسى رمسيس الثاني تسبب في إسلام الجراح الفرنسي موريس بوكاي الذي رافق الجثمان في رحلته لفرنسا، واكتشف أنّ القرآن تحدث عن غرق مومياء فرعون وعن سلامة جثته، فكيف علم محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الحقيقة قبل أكثر من ألف عام؛ سابقاً الغرب ومخالفاً للتوراة والإنجيل؟ وأن بوكاي قضى ليلته يحدق في جسد فرعون وهو يتأمل هذا الإعجاز القرآني الفريد، ثم أعلن إسلامه ومن ثمرات هذا التوحيد كتابه "التوراة والإنجيل والقرآن والعلم"، وبعيداً عن نفي أو إثبات إسلام بوكاي فلو كلف الشيخ نفسه عناء البحث وفتح كتاب بوكاي وهو متوافر باللغة العربية لوجد أن بوكاي اعتمد على التوراة أكثر من أي مصدر آخر في تقرير حقيقة فرعون، فهو يأخذ برأي التوراة حول وجود فرعونين لقصة موسى. الأول فرعون النشأة والاضطهاد وهو رمسيس الثاني،

وفرعون للخروج هو ابنه مرنبتاح بما يخالف القرآن الذي ينص صراحة على أنه فرعون واحد... كما أن إصرار بوكاي على إقحام رمسيس الثاني تحديداً في موضوع البحث عن حقيقة فرعون موسى كان مبعثه التوراة التي تنص على اسم فرعون رمسيس صراحة، فيما لم ينص القرآن على اسم فرعون.. فيما يخص مصاحبة بوكاي للجثمان في فرنسا، فهي قصة ملفقة وصحتها أن بوكاي قاد حملة بالصحف الفرنسية لإنقاذ مومياء رمسيس الثاني زاعماً أنها توشك على التحلل والفناء بفعل البكتريا والفطريات، ولابد من علاجها بفرنسا، واقتنع الرئيس السادات بذلك وسافر الجثمان لتلقي العلاج بمتحف الإنسان في باريس، لكن لم يكن بوكاي من ضمن الوفد المشرف على علاجه...

طبعاً لم يكن بوسعي التصحيح للشيخ في المسجد وإلا حدث ما لا يحمد عقباه؛ فآثرت السلامة وعزمت على تصحيح الأمر بمقال لم يأذن به المولى تعالى حينها...

القاسم المشترك بين القصتين هو أننا لا ندقق رواياتنا ونردد ما يقوله غيرنا دون بحث وتمحيص، فلا العلماني تبصّر بالعلم قبل أن يركب موجة الاستعلاء على الدين، ولا الشيخ تأكد من صحة مصادره ليهذب حضوره بعلم حقيقي رصين، وليرسو بسفينة دينه على شطآن الحقيقة.

المقال الثاني

شيخ العروبة والصهيونية

لقد شاءت الأقدار أن تطول أعمارنا لنشهد مثقفين عرب يسارعون للتطبيع مع الكيان الصهيوني الغاصب لأراضينا ومقدساتنا بفلسطين.

وعلاقة المفكرين خاصة المصريين بالصهيونية لم تكن وليدة اللحظة ولا حتى بعد كامب ديفيد عام **1978** ولكنها أبعد من ذلك.

كان أبرزها مشاركة أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد في حفل وضع الأساس للجامعة العبرية في **1أبريل 1925** كممثل للحكومة المصرية آنذاك، ولعلّ هذه المشاركة والتي جعلت أستاذ الجيل في قفص الاتهام دائماً كممهدٍ للتطبيع، هي ذاتها السبب في تفكير جمال عبد الناصر بأحمد لطفي السيد ليكون رئيساً لمصر، فقد كان على أولويات الثورة المصرية تحت الإلحاح الأمريكي قبول المفاوضات مع إسرائيل وتوقيع معاهدة سلام معها، وذلك بفرض صحة هذه الرواية.

بحسب ما قرأت فإن شيخ العروبة أحمد زكي باشا وهو من الرعيل الأول للنهضة الأدبية في مصر ومن طليعة من اضطلعوا بإحياء التراث العربي الزاخر وأول من وضع علامات الترقيم باللغة وهو من اختصر حروف

الطباعة وأحد مؤسسي الرابطة الشرقية كان من ضمن المدعوين لحفل الجامعة العبرية لكنه أبى ذلك...

مفاجأة من العيار الثقيل اكتشفتها وأنا أقلب بمجلد أرشيف مجلة الكشكول لدي..

فما هي المفاجأة؟!

بحسب ما نشرته مجلة الكشكول في **16** يناير **1931**، فقد تأزمت العلاقة الحميمة بين أحمد زكي باشا والأستاذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة الشورى بفلسطين، ووصولها لساحة المحاكم حيث أقام صاحب الشورى جنحة مباشرة أمام محكمة الجيزة يطلب فيها الحكم على الباشا بالحبس وبتعويض قدره مليماً واحداً!

تكشف المجلة عن بداية العلاقة بين الرجلين إثر اتهامين طالا شيخ العروبة الأول: كتابته لمنشور أصدره المحفل الأكبر القديم ضد أهل فلسطين. والثاني: كتاب أرسله شيخ العروبة إلى الدكتور إيدر رئيس الجمعية الصهيونية العالمية يهنئه بفوز الصهيونية الذي كان في عرف سعادة الباشا أعظم فوز للشرق.. أما المنشور الأول فتنصل الباشا منه حالفاً بكذبه، وأما كتابه إلى رئيس الجمعية؛ فلم يستطع إنكاره لأن الأخير سارع بنشره في جريدة الديلي كرونكل، ونقلته جريدة فلسطين للعربية

وكان دفاعه في القضيتين أمام أهل فلسطين وبوقه المدوي للتخلص من عدائهم هو صاحب جريدة الشورى.

عرفنا الباشا فمابال صاحب الشورى؟!!

بحسب الموسوعة التفاعلية للقضية الفلسطينية التابعة لمؤسسة الدراسات الفلسطينية والمتحف الفلسطيني فمحمد علي الطاهر لم يتلقَّ أي تعليم بالمدارس، وإن جمّ تحصيله كان من الكُتّاب الذي ألحقه به والده في مدينة يافا مكان نشأته. بدأ حياته مراسلاً لجريدة "فتى العرب" البيروتية حيث نبه لخطر الصهيونية مبكراً في مقال له حمل عنوان **"**الصهيونيون في فلسطين**"** عام **1914** ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى انتقل للعمل بمصر حيث قبض عليه.. عاد لفلسطين بعد الحرب، ثم لمصر مرة أخرى وافتتح دكاناً متواضعاً في حي الحسين ليبيع فيه ما يستورده من نابلس من زيت الزيتون وتحول دكانه مع الوقت لملتقى للوطنيين المصريين وغيرهم من أنحاء العالمين العربي والإسلامي. كما توسع نشاطه في مصر فأنشأ **"**مكتب الاستعلامات العربي الفلسطيني" وأسس "اللجنة الفلسطينية**"** فضلاً عن جريدة "الشورى" الأسبوعية، التي صدر العدد الأول منها في **22** تشرين الأول/ أكتوبر **1924**، وكان شعارها في بادئ الأمر "جريدة تبحث في شؤون سوريا (فلسطين، سوريا، لبنان، وشرق الأردن)"، ثم استبدله إلى "جريدة

تبحث في شؤون الشعوب المظلومة والأمم المستعبدة"، ثم غيّره مرة أُخرى ليصبح "جريدة تبحث في شؤون البلاد العربية والأقطار المظلومة."

فما الذي حول المحبة بين الرجلين إلى جفاء؟!

نعود لمجلة الكشكول، والتي أماطت اللثام عن أسباب تحول العلاقة بين الاثنين إلى جفاء، وأولها تكلف الباشا الشديد فيما يخص الأخطاء الإملائية إلى حد إرغام صديقه على إعدام جميع نسخ جريدته وإعادة طبعها لأنه كتب "من عهد قحطان وعرفان" بدلاً من "عهد قحطان وعدنان" (هنا المعرفة تحولت لخسائر مادية فما أكثر الأخطاء الإملائية في صحف زمان) أما السبب الذي كان القشة التي قصمت ظهر البعير، فهي تطاول خادم الباشا على الصديق وسط لا مبالاة من الباشا.. تطور الأمر وساد الجفاء بين شيخ العروبة وصديقه إلى أن جاءت الليلة الموعودة، حيث جمعهما حفل عشاء أقامه وحيد بيك الأيوبي تكريماً للأستاذ الثعالبي، وحانت لحظة المواجهة بين الصديقين ليتطاول شيخ العروبة على صديقه صاحب الشورى وقد كان ما كان...

المقال الثالث

الهيضة وسنينها

يقول المؤرخ القاضي علي بن داود الجوهري الصيرفي في كتابه (إنباء الهصر بأبناء العصر): إنّ وباءً كان موجوداً في الآدميين، ثم انتقل إلى البقر وانتشرت الجيف من البشر والبقر... وضعٌ إنسانيٌّ مأساويٌّ أدى إلى أزمة اقتصادية طاحنة، حيث وصل ثمن القمح في الوجه القبلي إلى ستمائة درهم للأردب، ورغم ذلك صار عزيز الوجود وفي وسط هذه الأزمة والوباء.. أين كان المماليك الأعزاء حكام الديار المصرية؟

كان المماليكُ وقتئذ منشغلين بزيارة الأمير قنصوه الخسيف والذي أصابه ألم بمؤخرته عالجوه بالفولاذ..

مشهد من العصر المملوكي قصير المدة عظيم المغزى، يكشف ويصور كيف تعامل أولى الأمر مع الأزمات قديماً، فالموت يحاصر الفقراء ويحصد أرواحهم والأثرياء وعلية القوم في شغل شاغل عنهم حتى ولو ببواسير قائدهم!

لذلك لا تستعجب يا سيدي من تحقيق بمجلة آخر ساعة عام **1946** سئل فيه رجل الدين ورجل الشارع والتجار والطلبة: هل تستطيع تأجيل شم

النسيم لبدئه مع نهاية وباء الكوليرا!! وجاء في مطلع التحقيق "إن شم النسيم في خطر.. لأول مرة في تاريخ مصر يأتي في رمضان في **26** منه"

طبعاً شم النسيم مناسبة محببة للمصريين ويكفي أن من أوائل الأفلام الكوميدية الصامتة (جحا وأبو نواس) المعروض في أغسطس **1932** المأخوذ عن قصص مجلة الفكاهة التي كان يكتبها الفنان علي رفقي كان عن هذه المناسبة.. لكن في وقت الوباء حيث يطحن الوباء الفقراء. فالاهتمام بمثل هذه الأمور هو ترجمة للمثل الشعبي الدارج "أخويا هايص وأنا لايص."

وحتى نتخيل معاً حجم المآسي التي حلت بمصر جراء الكوليرا، فلنمضِ معاً مع الأستاذ محمد حسنين هيكل في تقريره بمجلة آخر ساعة عن انتشار الكوليرا في قرية القرين (إحدى قرى محافظة الشرقية)، والذي حمل عنوان "الحياة في قرية الموت".. وخلاصة التحقيق أن موقع القرية بالقرب من معسكر التل الكبير جعلها مهبطاً للغرباء من عمال الجيش، فكان فلاحوها يخصصون من بيوتهم حجرة أو حجرتين للإيجار على غرار نظام البنسيونات بالمدن، ومن عمال الجيش الغرباء كان تفشي الوباء في القرية المنكوبة.. خشي أصحاب البيوت من الإبلاغ عن الحالات خشية العزل الصحي لهم (نفس العقلية المصرية واحدة بكل الأزمنة)، مستغلين أن الموتى من

الغرباء ولن يسأل عنهم أحد، فأسرعوا بدفنهم بالجبل وإذا تصادف وسأل عنهم أحد فالإجابة حاضرة: فرّ قبل الوباء.

اللافت أن الوباء انتشر أيضاً بين تجار البلح، فبحسب المحاضرة العاشرة للطبيب سيف النصر أبو ستيت عن الكوليرا عام **1947** فإنّ أول حادث وفاة في سرياقوس في سبتمبر عام **1947**، وكان تاجرَ بلح، وإنّ تجارب معامل وزارة الصحة ربطت بين قشرة البلح التي تخفي جراثيم الميكروب وانتشار الإصابات بين تجاره!

وعن القصص الإنسانية التي رافقت الوباء في القرية يتحدث هيكل عن قصص الغرام بين عذارى القرين الجميلات، والتي تكلل بعضها بالزواج والبعض الآخر عاجلته الأقدار، لذا ظهر من فتيات القرين "حزينات بلا سبب" ومن الشخصيات التي صادفها هيكل في هذه الملحمة الإنسانية بيومي عامل التبخير، وكذلك الفيلسوف المعلم الذي مارس العزل داخل منزله بحثاً عن أصل اسم قريته مهتدياً إلى أن الأصل في زيارة السلطان قايتباي لها وملاحظته لنخلتين متعانقتين ومن هنا جاءت التسمية بالقرين!

وعلى عادة القرويين في الربط بين كرامات الأولياء وسبل النجاة في جميع أحوالهم الحلو والمر منها، فقد اعتقد الأهالي في مقبرة الشيخة (حمدة) وحمايتها لهم من الكوليرا...

إلى هنا رصد وتحقيق من الأستاذ هيكل رائع فاز عنه بجائزة فاروق للصحافة تحت سن الثلاثين، لكن ما ليس برائع هو فوز الأستاذ ولمرتين متتاليتين أخريين بنفس الجائزة، مما حدا بإدجار جلاد باشا صاحب جريدتي الزمان المسائية، والجورنال دي إيجيبت وصاحب فكرة الجائزة أن يطلب من هيكل بلطف عدم التقدم للمرة الرابعة، لإفساح الفرصة لآخرين فصاحبة الجلالة وقتها لم تكن قد عرفت ظاهرة الصحفي الأوحد المقرب حاصد جميع الجوائز ومحتكر الأخبار.

****

المقال الرابع

على حافة الهاوية

سؤال أزلي عادة ما يتردد في ذكرى ثورة عام **1952**... هل مصر كانت غنية في عهد الأسرة العلوية وأفقرتها فترات ما بعد الثورة خاصة سنوات التحدي والكبرياء الناصرية؟

دعنا نبدأ في إجابة هذا السؤال من الأحدث حتى نصل إلى الأقدم والأحدث الذي ننطلق منه في رحلتنا هو عام **1952** وبحسب تصريح لإبراهيم عبد الهادي باشا في صحيفة المصري في **21** يوليو **1952** أي قبل يومين من الثورة، فقد رد في حدة على مراسل الصحيفة بأنّ "الحالة الاقتصادية للبلاد سيئة" وأضاف الوزير في تصريحه أنه أثار الأمر من فوق قبة البرلمان عامي **1950** و**1951** لاحظ هنا أن التصريح صادر من رجل شغل منصب وزير المالية بالإضافة لمنصب رئيس الوزراء (**1948-1949**)، وكذلك منصب وزير المالية في حكومة النقراشي السابقة على رئاسته (**1946-1947**).

بالطبع كما تبادر لك عزيزي القارئ؛ فتصريح واحد لا يمكن أن نحكم منه على حقبة بأكملها، لذلك فنقرأ معاً تقريراً عن الأزمة الاقتصادية

والاجتماعية كتبه ميريت غالي عام **1952**.. لاحظ أيضاً أن ميريت غالي كان يشغل منصب وزير الشؤون البلدية والقروية في حكومة نجيب الهلالي آخر وزارات الحكم الملكي وشغل نفس المنصب في حكومة علي باشا ماهر التي تشكلت بعد ثورة **1952**.

يعتبر مريت غالي في تقريره أن الزيادة السكانية والتي لا يقابلها نمو اقتصادي مماثل هي المسؤول الأول عن تراجع الوضع الاقتصادي المصري على صعيد القطاعين الزراعي والصناعي، حيث " تضاعف عدد السكان في القطر المصري منذ أوائل القرن الحاضر فقفزوا من عشرة ملايين إلى ما يزيد عن عشرين مليوناً في نصف قرن" فيما زادت المساحة المزروعة في نفس المدة بنسبة **10**٪ وزادت مساحة الحاصلات بنسبة **25**٪ تقريباً، ولم يتغير في جملته متوسط محصول الفدان من مختلف الحاصلات فإذا ما قورنت هذه النسب بزيادة السكان التي بلغت **100**٪ ظهر مدى النقص الذي يعانيه الشعب المصري في موارده الزراعية، فقد بلغ هذا النقص الثلث تقريباً بمعنى أن متوسط حصة كل فرد من السكان من الإنتاج الزراعي لم يبلغ الآن إلا ثلثي من كان عليه منذ خمسين عاماً.

كما يتحدث التقرير عن هبوط إيراد أهل الريف وكذلك مستوى معيشتهم بسبب كثرة الأيدي العاملة وقلة الأرض المنزرعة.

وعلى المستوى المعيشي فلا يوجد تحسن في مستوى ملبس أهل الريف وفيما يخص تغذية السكان في مصر فيعتمد على الاستيراد الضخم للمواد الغذائية كالحبوب واللحم والسكر والبذور الزيتية وسط نقص في الإنتاج المحلي وعجز عن سد حاجة السكان.. وكأن الرجل يقرأ المستقبل فيتحدث عن أثر ذلك كخسارة مادية فضلاً عن احتمال قيام حرب تقطع عنا سبل التموين!

وفي القطاع الصناعي يتحدث عن أنّ نسبة المشتغلين بالصناعة مالت إلى النقصان، وأنّ المصانع الحديثة قضت على كثير من الصناعات اليدوية والمنزلية..

ويلخص الرجل أصل الداء في أنّ "الطاقة الإنتاجية في الزراعة والصناعة معاً لم تلحق في أي وقت بنمو السكان، فضاق ميدان العمل المنتج أمام كثرة الناس بدل من أن يتسع".

ويتحدث التقرير عن التطور في إنشاء مساكن صحية للمزارعين والعمال في أولى مراحله، وأنّ هناك خطوات مثل توفير الماء النقي في القرى تأخرت كثيراً عما كان مقدراً لها من وقت (لاحظ أننا في **1952** ولا زلنا في البداية في كل إصلاح وببطء شديد).

كما أشار أيضاً إلى مشكلة البطالة في المدن والتي تشكل ضغطاً على التوظيف الحكومي مما يمثل تحدياً أمام أي حكومة ويخلق طائفة من الحاقدين على النظام القائم الذي لم يفِ بوعوده للنشْء الجديد، ولم يحقق لهم ما علقوا

من آمال على الشهادات التي سعوا إليها بتشجيع منه (لاحظ هنا أن التملص من ربط التعليم بالتوظيف وتخريج طوابير من العاطلين من حملة الشهادات بدأ من العهد الملكي).

وحتى نستكمل الصورة، فماذا عن حالة المواصلات بمصر؟ ونجيب على هذا السؤال من مجلة المصور في **11** سبتمبر **1942**، حيث جاء تصريح معالي عبد الفتاح الطويل باشا وزير المواصلات (يقال إنه كان واسطة عبد الناصر في دخول الكلية الحربية) عن سعي الوزارة الشعبية (يقصد الوفد) لتسهيل المواصلات حيث نقلت المجلة صوراً مخيبة للآمال تشعرك وكأننا في الألفينات وليس في الزمن الجميل كما يصوره البعض، فمركبات الترام مزدحمة عن آخرها، ولم يبقَ على سلمها موضع لقدم حتى الكمساريّ لم يجد لنفسه غير مكان لقدم واحدة على سلم العربة، وكذلك الحال في سيارات الأجرة وتتساءل المجلة "أما لهذا الحال من آخر... متى تنتظم المواصلات في العاصمة فيشعر سكانها أنهم آدميون لا حيوانات تكدس في عربات الترام والأتوبيس؟" تصور يا عزيزي القارئ أن هذا السؤال الحائر عمره الآن **82** سنة دون جواب.

السؤال الملح والذي يعود بنا إلى الماضي، هل حقاً اختلف الوضع عما كان عليه قبل خمسين عاماً من توقيت التقرير (**1952**)؟

أسوق الإجابة على ذلك من كتاب "كمال النجاح للمزارع والفلاح في الأراضي والزراعة المصرية" للفقير إليه تعالى محمود عطية مأمور دائرة البرنس حسين كامل باشا الأفخم -طبع بالمطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم بمصر **1902**.. أي خمسين عاماً بالتمام والكمال..

بحسب الكتاب والذي أخذ شكل أسئلة وأجوبة تبلغ أراضي مصر بجبالها وبحيراتها أي عامرها وغامرها خمسة عشر مليون فدان منها الصالح للزراعة ثمانية ملايين والسبعة الباقية بحيرات وجبال ومجاري النيل وغيرها، والجاري استعماله من الثمانية ملايين فدان بالزراعة ستة ملايين فدان وكسور، والمليونان الباقيان بعضهم مهمل والبعض الآخر تالف وبحسب احصاء **1897** الوارد بالكتاب فتعداد الأنفس هو تسعة ملايين وسبعمائة وخمسين ألفاً ومائة وثمانية عشر.. وعليه فهناك فجوة ليست بالشاسعة بين عدد السكان ومساحة الأرض المنزرعة..

الآن ندخل على أصعب مراحل مصر الاقتصادية حيث عصر إسماعيل باشا ولي مبحث عنه بكتابي تأملات بين العلم والدين والحضارة الجزء الثاني ولكني لا أجد أدق وصفاً وأفضل تفصيلاً مما ورد بكتاب البنك الأهلي المصري **1898-1948** (لاحظ أن الكتاب صدر في عهد فاروق ومن أكبر مؤسسة مصرفية في مصر) يقول الكتاب نصاً: "إذا كانت السنوات من **1860** إلى **1879** فترة إسراف لا ضابط له اعتمد فيها على القروض

الخارجية فإن السنوات التالية من **1880** إلى **1889** كانت فترة كف وإصلاح أي عهد سياسة مالية قاسية وصفت أحياناً بالكفاح ضد الإفلاس أو بعبارة أخرى بالكفاح ضد إفلاس ثانٍ"

وحتى نكون أكثر التصاقاً بحالة الإفلاس الموجودة ونتخيلها معاً، فلنقرأ سوياً لواحد من شهود عيان هذه الفترة وهو أحمد شفيق باشا في كتابه (مذكراتي في نصف قرن) فيقول عن ملامح الأزمة المالية في نهايات عصر إسماعيل: "أصيبت البلاد بالضيق المالي وعصفت بها الفاقة وبلغ البؤس بالفلاحين أنْ كانوا ينزلون عن أطيانهم فراراً من الضرائب المتوالية رسمية وغير رسمية وأنْ يتظاهر بعضهم بالفقر المدقع فيرتدي الثياب الخلقة ويسير على قدميه بدل الركوب خيفة أن يلمح فيه الغنى زبانية الضرائب فيثقلون كاهله بما لا يستطيع، وأفقرت خزائن الحكومة فحرم الموظفون من قبض رواتبهم ثمانية عشر شهراً، واضطر بعضهم إلى أخذ مقابل مرتباتهم أشياء عينية كالمواشي والمحاصيل والكتب"

حتى شفيق باشا صاحب الكتاب وكان يعمل وقتها كاتباً ثانياً تركياً بالدفترخانة، تقاضى راتبه كتب من المطبعة الأميرية!! ووصلت الأزمة إلى بيع أسهم قناة السويس للحكومة الإنجليزية لسداد بعض الديون.

نأتي لسؤال ماذا قدم حكام الأسرة العلوية إلى الفقراء، وقد تحسنت الأمور الاقتصادية بعض الشيء في البلاد؟! فقط مجرد منح وهبات لا تسمن ولا

تغني من جوع وهي أبسط حقوقهم المشروعة ولا تتعدى حد الكفاف بأي حال وتعالوا لنشاهد معاً صوراً رسمية لحال الفقراء، وذلك من كتاب وزارة المعارف العمومية "الأيام الملكية في صعيد مصر عام **1930**" والصادر عن المطبعة الأميرية بالقاهرة عام **1931** والذي تضمن صوراً لزيارة الملك فؤاد لمدن الصعيد لافتتاح عددٍ من المشروعات التنموية مثل وضع حجر الأساس لميناء قنا، وافتتاح قناطر نجع حمادي ومنشآت البلدية ببني سويف وتضمّن الكتاب صورة محزنة لقوس مكلل بتلاميذ ملجأ للأيتام ببوش، وصورة أخرى للفقراء ينتظرون توزيع الهبة الملكية بقنا!! لا أعلم أي مغزى وهدف كانت ترنو له الوزارة واللجنة التي تشكلت لوضع الكتاب من الأستاذ عبد الله عفيفي المحرر العربي لديوان جلالة الملك وعلي الجارم المفتش بوزارة المعارف وزكي المهندس المفتش بوزارة المعارف العمومية سوى أن يتعلم طلبة المستقبل ورجال غده أن الحجر يعلو بناء الإنسان! أو لعلها أرادت أن تتحفنا بقصيدة الجارم في نهاية الكتاب، وهي قصيدة لطيفة أتمنى ألا تكافح مثلي في قراءتها يقول فيها: "ذاك لألاؤه وهذا رواؤه والضياء الذي ترون ضياؤه.. وبهاء الرياض كللها الغيث فتاهت بنورهن بهاؤه... ذاك وجه المليك: وجه أبي الفاروق هذا سناه... هذا سناؤه)..

وماذا عن حجم ثراء الأسرة العلوية والتفاوت الطبقي الشاسع؟! حتى نكون منصفين سأختار لكم نموذجاً لثروة أميرة كانت تشتهر بالعمل الخيري ما شاء الله إلى حد تعليم الأسر الفقيرة والمتوسطة الخياطة ليقتاتوا من عمل أيديهم هي "شيوه كار" أو "شويكار" الزوجة الأولى للملك فؤاد وتحدثنا عنها في حكايات من بحور التاريخ... هذا الإحصاء لثروة الأميرة العقارية وأنصبة الورثة كان عام **1947** أي عام وفاة الأميرة وقبل ثورة **1952** والتي ضخمت من ثروات البعض دون بينة للطعن في الأسرة العلوية..

جاء تقسيم الثروة الهائلة للأميرة على النحو التالي:

1-بيع قصر الأميرة المواجه للبرلمان ومتحف الشمع والعمارة التي بها مقر الدائرة في جاردن سيتي وعمارات الإسكندرية وعددها **38** عمارة...

2-خص سعادة وحيد يسري باشا (ابنها وصاحب إشاعة العلاقة مع الملكة فريدة تحدثنا عنها في نوستالجيا الواقع والأوهام) **3000** فدان وعمارة سيف الدين على النيل و**2900** متر مباني فضاء بالزمالك.

3-خص إلهامي حسين باشا (من أزواجها) **3000** فدان وعمارة بجاردن سيتي.

4- خص وحيد الدين بيك (ابنها) **3000** فدان وعمارة سيف الدين بشارع القصر العيني التي كانت تسكنها القوات البريطانية..

5- خص سمو الأميرة فوقية (ابنتها وصاحبة إشاعة بيرم التونسي بكتاب نوستالجيا الواقع والأوهام) **1500** فدان وعمارات خان الخليلي.

6-خص لطيفة هانم العبد (زوجة أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الأولى والعبد لقب زوجها بعد حسنين) حوالي **2000** فدان أراضي زراعية.

7-قصر بباريس لم يبت فيه ويسعى إلهامي باشا لشرائه نظير حصته في المبيعات..

كل هذا ولازال هناك وقف ب **4000** فدان رهن التقاضي وقد عاجل القدر الأميرة قبل حسمه..

مرة أخرى هذه هي الثروة العقارية، فما بالك بالنقود المالية والمجوهرات الثمينة وقد عرف عن الأميرة حبها الشديد لاقتنائها...

نأتي إلى سؤال يطرح مع موسم يوليو كل عام: هل صحيح أن الملك فاروق أغلق منجم السكري ليدعه للأجيال القادمة ليستفيدوا من خيرات بلادهم؟

منطقياً وتاريخياً إنتاج الذهب في مصر يعود إلى زمن الفراعنة وعدد مناجم الذهب القديمة يبلغ **120** منجماً، ومنها جبل السكري فما هو الجديد في عهد فاروق بشأن الذهب في السكري، هل هو اكتشاف جديد؟! بالطبع لا..
هل كانت مصر واسعة الثراء وقتها؟! بالطبع لا.. إذاً ما هي الحقيقة؟
كان البرلمان قد وافق على أن تقوم الحكومة بتكاليف استخراج الذهب من منجم السكري، لكن في عهد سابا حبشي باشا قررت وزارة التجارة وقف العمل لأن تكاليف البحث عن الذهب في هذا المنجم كانت أعلى من الذهب المحتمل العثور عليه... فيما اتجهت مصلحة المناجم وقتها للبحث عن الذهب في منطقة مرسى علم... هذا كل ما في الأمر.
ومن خلال مطالعتي لكتاب المجمع المصري للثقافة العلمية المشمول بالرعاية الملكية الكتاب السنوي التاسع مجموعة المحاضرات التي ألقيت في مؤتمر المجمع **1938** يوجد عدد من الصور لمنجم الذهب الحكومي بالسكري وللمدخل الرئيس، والمعسكر أعلى الجبل والأعمال به حيث بدأ تشغيله في ذلك العام أي عهد فاروق.
هذا وببساطة محاولة للإجابة عن أسئلة أتمنى أن يتوقف الجدال حولها ولقد اعتمدتُ في إجابتها على مصادر عاصرت الأحداث ومن قلب صناعها، وبعيداً عن لغة الأرقام المتأرجحة، وأتركُ لكم الحكم بعد ما قرأناه معاً، فهل العهد الملكي كان جنة اقتصادية لعموم المصريين والفقراء بالأخص؟!

المقال الخامس

سلم أم حرب

تحدثنا في كتاب مرآة التاريخ عن الصراعات المسلحة بين مصر والحبشة في العهد الفرعوني وعهد الخديوي إسماعيل، لذا كان لزاماً أن نخصص مبحثاً منفصلاً عن تاريخ العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، والتي ظلت بين شد وجذب بحسب تقرير نشرته مجلة آخر ساعة المصورة العدد **65** في **6** أكتوبر **1935**، فإن أشد ما كان يوثق العلاقة بين مصر والحبشة هي الديانة القبطية وتبعية الأحباش للكنيسة المرقسية (القبطية)، ولزعامة بطريرك الأقباط الدينية في مصر وعبر هذا الرابط بين الدولتين دارت أغلب العلاقات الدبلوماسية عبر العهود الإسلامية دون الدخول في مواجهات حربية مباشرة...

كان أول البطاركة الأقباط الذين زاروا بلاد الحبشة هو ميخائيل منتدباً من قبل الخليفة المستنصر بالله لمفاوضة النجاشي في مسألتي النيل والفيضان وقد كللت هذه الزيارة بالنجاح الباهر فأمر النجاشي بفتح سد يجري منه الماء إلى أرض مصر وزاد النيل في ليلة واحدة ثلاثة أذرع... وبحسب المجلة فخلافٌ بين المؤرخين قد دار حول اسم البطريرك...

في عهد الدولة المملوكية تعالت نبرة الاستعلاء بين الطرفين، لكن ظلت العلاقات الدينية هي صمام الأمان بين الطرفين ومسار إدارة الأزمات بينهما ففي عام **726** هجرية مثلاً أرسل ملك الحبشة "جبره مصقل" إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون يتوعده بإغلاق مجرى النيل وقتل المسلمين لديه إن لم يكف عن اضطهاد الأقباط وتخريب كنائسهم، وهو ما قوبل باستخفاف الناصر، فقوة المماليك كانت في أوج عنفوانها ولعجز ملك الحبشة عن تنفيذ وعيده الأول فقد لجأ لاضطهاد مسلمي الحبشة فوسط الناصر البطريرك في مصر لإنهاء المسألة، فكف ملك الحبشة امتثالاً لأمره.

وفي عهد السلطان برقوق هاجم النجاشي (داود بن سيف أرعد) حدود مصر الجنوبية عام **783** هجرية، فأمر برقوق باستدعاء بطريرك الأقباط ليرسل للنجاشي للكف عن ذلك، وبعد مضي خمس سنوات جاء وفد حبشي محمل بالهدايا وخطاب من النجاشي طالباً عودة العلاقات مع مصر وطالباً السماح بمرور حجاج الحبشة إلى بيت المقدس وزيارة كنيسة القيامة وكانت مصر بوابة المرور آنذاك وفي عهد السلطان برسباي تأزمت العلاقات بشكل كبير بين الطرفين، بعد أن أغلق السلطان كنيسة القيامة في بيت المقدس عام **825** هجرية فرد النجاشي على هذه الخطوة بقتلِ المسلمين الرجال لديه وسبي النساء والأطفال، وهدمِ المساجد كما أغار على

مملكة المسلمين المتاخمة في "جبرت" فهزمها، وأوقع بساكنيها فهم برسباي بالتعامل بالمثل وقتل النصارى والبطريرك، لكنه تراجع عن ذلك... وفي عهد السلطان جقمق كان على حكم الحبشة واحد من أخطر حكامها وهو زرء يعقوب بن داود حيث سعى لفصل الكنيسة الحبشية عن الكنيسة المصرية وربطها بكنيسة روما من أجل ضمان تحالف أوروبي حبشي يمكنه من الوقوف على أرض صلبة في مواجهة المماليك بعدها أرسل رسالة لجقمق تذكره بتحكم بلاده في مجرى النيل كنوع من الاستعلاء وورقة ضغط لمزيد من المرونة مع النصارى في مصر، لكن جقمق استقبل الرسالة بشكل من ضبط النفس في البداية ورد عليها بهدية مع سفيره يحي بن أحمد بن شادبك، فاعتقل النجاشي السفير لأربع سنوات كاملة ومع ذلك استمر جقمق في التفاوض مع النجاشي عبر بطريرك الأقباط، فيما عمل على خطب ود المسلمين بالحبشة على صعيد آخر وتم إطلاق سراح السفير، لكن ذلك لم يمنع من قطع العلاقات الدينية بين البلدين في النهاية...

ومع نهاية عهد المماليك وفي عام **1516** قصد وفد من حجاج الحبشة السلطان الغوري وهم في طريقهم لبيت المقدس يتقدمهم رسول كبير في هيئة عظيمة قيل إنّه ابن أمير كبير الحبشة، وقيل إنّ أباه هو الذي حضر في دولة الملك الأشرف قايتباي، وبحسب ابن إياس كان على رأسه خوذة مخمل أحمر فيها صفائح ذهب وفيها بعض فصوصٍ، وعلى رأس الخوذة درة كبيرة

مثمنة، وعليه شايات حرير ملوَّن وعلى رؤوسهم شدود حرير ومحملين بهدايا قُوِّمت بنحو خمسة آلاف دينار أو دون ذلك لم ترق للغوري الذي وبخهم لتواضعها مقارنة بالهدايا التي أرسلت لسابقيه..

وفي عهد الأسرة العلوية وتحديداً عهد الوالي سعيد باشا (لاحظ في عدد المجلة إلحاق لفظ الخديوي به وهو اللقب الذي أطلق على حاكم مصر في عصر خليفته إسماعيل... وهو يوضح مقدار الأغلاط التاريخية بالصحافة قديماً) حيث أرسل سعيد باشا الأنبا كيرلس الرابع إلى الحبشة وقيل بإيعاز من السلطان عبد المجيد لمفاوضة النجاشي دبلوماسياً لإعادة بعض الأملاك المصرية في منطقة الحدود بين الحبشة والسودان، وقد تعرضت لغارات الأحباش (واضح أنها عادة قديمة) وانتهى النزاع بشكلٍ وديّ..

كل هذا يقع في مساحة كانت الدولتان فيه على نحو من التكافؤ في القدرات والإمكانيات، لكن هل تغير الوضع بعدما أصبحت مصر أكثر تمدنا ونهضة في عهد الأسرة العلوية، وأصبحت تمتلك أدوات أكثر من الدين لتمد يد العون لجيرانها في أفريقيا وعلى رأسهم الحبشة وهذا هو مناط القوة الناعمة لمصر وقوة تأثيرها في محيطها؟! الإجابة نعم وبشدة خاصة في المسارين الاقتصادي والتعليمي.

بحسب كتاب البنك الأهلي المصري (**1898-1948**) فقد قام البنك الأهلي المصري بالاشتراك مع فريق من رجال الأعمال الفرنسيين والإيطاليين

بتأسيس بنك الحبشة عام **1905** برأس مال قدره **500000** جنيه استرليني وعين مستر ماك جلفري أول محافظ للبنك، وكان النظام المصرفي في الحبشة بدائياً للغاية ويكفيك أن تعرف عزيزي القارئ أن بمبنى البنك كان هناك سجن لحجز المدينين المتخلفين عن الوفاء بديونهم واستمرت إدارة السجن حتى عام **1928** في صرف قسائم شهرية لطعام المسجونين تخصم من حساب المدين نفسه، وعندما حل ميعاد الإفراج عن آخر مدين سوى حسابه تقدم إلى إدارة البنك ملتمساً الإبقاء عليه في محبسه (عنده حق طبعاً فلن يجد مثل هذا العرض في مكان آخر!!).

في المقابل كانت هناك عوامل كثيرة أدت لتقلص الدور المصري وتراجعه في الحبشة في مقابل تنامي النفوذ الأمريكي هناك، فبحسب مجلة الكشكول في **28** فبراير عام **1930**، فقد نقلت عن النجاشي هيلاسلاسي تقديره للدور الأمريكي في بلاده وخدماته للتربية والتعليم وإنشاء المستوصفات والملاجئ، كما عين النجاشي مستشارين أمريكيين أحدهما للمالية والآخر للمعارف فضلاً عن مهندسين أمريكيين للمشاريع في بلاده، وتلفت المجلة نظر الحكومة المصرية إلى خطورة ذلك على النفوذ المصري وتحديداً الكنيسة القبطية المصرية، حيث يسعى الأمريكان إلى نشر مذهبهم البروتستانتي المخالف تماماً لعقيدة "أقباط الباب الواسع" أصحاب

السيطرة الحالية على الكنيسة الحبشية، إضافة لأن هيلاسلاسي نفسه ليس على وفاق مع كنيسة الدرب الواسع وهدد بالانفصال عنها مراراً...

تتحدث المجلة عن الدور التعليمي المصري في الحبشة والذي تراجع بشدة فمنذ ربع قرن سابق على هذا التاريخ (**1930**) أرسلت الكنيسة القبطية بعثة إلى الحبشة للتربية والتعليم وأصبح رئيسها حنا صليب وزيراً للمعارف الحبشية، لكن سرعان ما تشتت أفراد البعثة وبقي حنا صليب في أديس أبابا وزيراً للمعارف اسماً فقط. ثم أعيدت التجربة مرة أخرى في عام **1927**، تحت رعاية الوزير الشمسي وزير المعارف وانتخب أعضاء البعثة العلمية المصرية للحبشة من الأساتذة الأقباط في مدارس وزارة المعارف فكانت نتيجتها كالأولى سواء بسواء.

ثم جاء الحل بإرسالِ فريقٍ من أولاد الأحباش للتعليم في مصر على نفقة الأنبا بؤنس فلما وصلوا القاهرة لم يجدوا سوى الإهانة وقذارة المساكن فاعترضوا واضربوا عن دخول المدارس المصرية وأبوا إلا أن يعودوا لبلادهم بحسب المجلة...

أكثر ما كان يضيق منه أهل الحبشة هو تسميتهم بالأحباش وهي الكلمة التي ظلت ملازمة لهم في أدبياتنا العربية حتى وقت قريب فبحسب كتاب المسألة الحبشية لعبد الله حسين **1935**، فكلمة حبشة يعتبرونها بمثابة إهانة لهم ويفضلون عنها أثيوبيا... ذلك أن كلمة أحباش كلمة عربية

تذكرهم بالقبائل والشعوب التي نزحت إليهم من جزيرة العرب بينما أثيوبيا فنسبة إلى مجيء إثيوبس أو كوش من نسل حام بن نوح وتأسيسه لبلادهم...

إذا ما قارنا اتباع الوسائل الدبلوماسية التي ناقشناها الآن مع الحلول العسكرية التي ناقشناها في مرآة التاريخ، وكانت الغلبة فيها جميعاً لأثيوبيا لذا فالعقل يقول: إنّ المنهج الناصري في الانفتاح على أفريقيا وقضاياها بالوسائل الدبلوماسية كان أفضل الوسائل والطرق التي اتبعت عبر تاريخ العلاقات بين البلدين...

****

المقال السادس

نحو أدب واقعي

في عام **1947** قررت اللجنة المختصة بجائزة فؤاد الأول للآداب برئاسة أحمد لطفي السيد أستاذ الجيل وقيمتها ألف جنيه مصري إرجاءها إلى فرصة أخرى لأنها بحسب زعمها لم تنتهِ بعد من بحث الكتب التي تلقتها لقصر المدة الخاصة بالكتب وقد بلغت **84** كتاباً.

حدث كهذا لم يكن ليمر مرور الكرام في الأوساط الأدبية بمصر والعالم العربي فقد أثار لغطاً كبيراً وموجة عارمة من التساؤل والحيرة.

لا تأخذك يا سيدي القارئ الحماسة لمعرفة الأسباب الآن فهي مخيبة للآمال على كل حال وقد تركتها لنهاية هذا المبحث مفسحاً المجال الآن للأكثر أهمية ألا وهي التحليلات التي تكهن بها البعض حول سبب الحجب والتي تعكس النظرة الموضوعية لحال الأدب المصري في تلك الآونة.

في العدد **729** من مجلة الرسالة بتاريخ **1947/6/23** وتحت عنوان "رسالة الأدب وجائزة فؤاد الأول" نقلت المجلة عن أحد كتاب مجلة الصباح رؤيته للسبب وهو أنّ أدباءَنا على كثرة ما ألفوا من كتب وما أصدروا من مؤلفات لا يزالون بعيدين عن فهم رسالتهم الحقيقية في المجتمع وأن الأدب في

حقيقته هو الحياة وكل أدب لا يصور حياتنا ولا يسعى لتجديدها هو أدب زائف، ثم يطرح تعقيباً على ذلك سؤالاً شديد الأهمية: هل في كتب الأدب الكثيرة التي أنتجها رجال الفكر في مصر ما حقق رسالة الأدب على هذا الأساس؟ وهنا يجيب بأنّ أكثر تلك الكتب عن آداب العصور الماضية وهو ما يعتبره قصوراً في تأدية رسالة الأدب التي تتطلب الابتكار الذي يحفز همة الأمة على النضال من أجل الحرية أو الإرشاد إلى الطريق القويم في الحياة وهنا تعلق مجلة الرسالة مؤيدة ما تحدث به كاتب الصباح وداعمة له فأكثر الإنتاج الأدبي المعاصر إما دراسات لأدب العصور العربية الماضية وإما دراسات ومترجمات من الآداب الأجنبية...

بالطبع هذه ليست المرة الأولى التي يثار فيها هذا الجدل حول واقعية أدبنا العربي وعكسه لقضايا أمته ففي مجلة الكشكول في **11** يوليو **1930** كتب نعمان محمد نعمان: "هل يصبح لنا أدب قومي؟" متناولاً نفس القضية والمثارة وقتئذ وداعياً في الوقت ذاته لمقاطعة الأدب الغربي وحصره "فيما نرى فيه أي فائدة" وهو يحلل أسباب ذلك وهي "أن الأجنبي استعبدنا بآدابه وأفنى قوميتنا في قوميته وحصرنا في دائرة من معارفه وعادات بلاده" فليس استعمار بأشد من استعمار الأخلاق وما كان استعباد إلا استعباد القومية" الطريف في هذا المقال ما جاء بشأن الاقتراحات البديلة فهو يرى "أنّ الفلاح المصري الساذج البسيط الذي لا يقرأ ولا يكتب ينطق ببديهته

كلاماً يحمل من المعاني ما لا يخطر بعقلية الغربي"، وهذه حقيقة يلمسها من عاش بالريف مثلي وشهد أكابر أهلها ممن يغدقون بالحكمة على أبنائهم وأحفادهم.

إننا أحوج في عصرنا هذا إلى هذا المسعى والمبتغى... أدب حقيقي واقعي نابع من صميم بيئتنا ومتحدثاً عن قضاياها ومناقشاً للحلول بعقلانية وليس أدب زائف جمّه روايات مسلية مقتبسة من المسلسلات التركية وأفلام هوليود وبوليود أو فانتازيا جامحة في عبق الخيال أكلت عقول شبابنا وصرفتهم عن الواقع وأورثتهم الأوهام...

نعود مرة أخرى للمسابقة وأسباب حجب الجائزة والتي لا تخلو من توازنات حزبية وسياسية..

زمان كهذا (**1947**) يعج بالمثقفين كالعقاد وطه حسين وأحمد أمين وغيرهم وهذا هو الإصدار الأول من الجائزة، فكيف يمكن حسمها لصالح أحدهم؟!

لاحظ عزيزي القارئ أن من ضمن لجنة الفحص للجائزة الدكتور محمد حسين هيكل باشا وهو كاتب وأديب ورئيس حزب الأحرار الدستوريين (من مؤسسيه أحمد لطفي السيد) ورئيس لمجلس الشيوخ وهو الحزب الذي يعتلي سدة الحكم وقتها وطبعاً بينه وبين الوفد ما صنع الحداد من خصومة والعقاد أبرز المتأهلين للجائزة في إصدارها الأول من الوفديين

البارزين وإقصائه ليس بالأمر السهل ولن يمر بسهولة علاوة على أن الخصومة الحزبية وضعت العلاقة بين العقاد وهيكل على صفيح ساخن، ويكفي أن نستمع إلى هذه المقاطع من الردح بلغة الحواري بين الأديبين البارزين فعلى صحيفتي البلاغ (التابعة للوفد) والسياسة (لسان حال الأحرار الدستوريين) عام **1928** كتب العقاد واصفاً هيكل "هذا كلام أطفال يا ولد فتكلم كلام الكبار وإلا فاسكت" وبأنه "سمج ثقيل" ليرد عليه هيكل قائلاً: "هربوا من الميدان (يقصد الوفد) وصدروا سفيههم (يقصد العقاد) ينضح من وعائه القذر ومن نتن وأوساخ".

من بين أسباب الحجب ما تردد عن غضب القصر الملكي من طه حسين لميوله الاشتراكية وحديثه عن صور من الفقر المدقع في كتابه (المعذبون في الأرض) وقد نشر على هيئة قصص متفرقة في مجلة الكاتب المصري بين عامي **1946-1947** مما يستوجب إبعاد طه حسين عن الفوز.

هذه الأسباب وغيرها دفعت اللجنة للتأجيل... هنا شعر العقاد أنه المقصود بهذا القرار فهو صاحب سبعة عشر كتاباً جديداً في خمس سنوات والأوفر حظاً لنيلها؛ فصال وجال وكتب مقالاً بأخبار اليوم بعنوان: "علامة الاستفهام في قرار لجنة الآداب" متهماً اللجنة أنها لم تطلع على ثقافة وطنها. في العام التالي (**1948**) وعلى طريقة الأفلام العربية القديمة في النهايات السعيدة كسبيل لإرضاء الجميع تم ضم الجائزة المحجوبة مع جائزة العام

وأصبح هناك جائزتان وحسمت المنافسات لصالح الأربعة الكبار: عباس العقاد ومحمد حسين هيكل (عضو اللجنة تصور) وطه حسين وأحمد أمين.. فهل يسدل الستار وتنتهي القصة؟ لا طبعاً.. فالعقاد لم يعجبه فوز طه حسين معه فهل يتساوى صاحب السبعة عشر كتاباً جديداً في خمس سنوات بصاحب جزء من كتاب وهو طه حسين الذي أخرج في هذا الوقت الجزء الثالث من على هامش السيرة، وهو ليس بدراسة وأقرب للتصوير الأدبي وتقدم العقاد باحتجاج لوزير المعارف ولدى رئيس ديوان جلالة الملك حتى نجح في مسعاه أخيراً، واستبعد طه حسين ومنحت الجائزة للثلاثة الباقين وتم إرضاء طه حسين بمنحه الجائزة عام **1949** (الحقيقة حينما قرأت هذه القصة عرفت لماذا يمكن أن يرفع طالب دعوى قضائية لحجب درجات الرأفة عن زملائه لأنه لم يستفد سوى بقدر ضئيل منها؟!) وهكذا انفض السامر عن أول كارثة ولا أقول جائزة أدبية ثقافية في مصر...

انتهى الحدث ولم تنتهِ القصة، فالذي كان بالأمس مقصياً حملته الثورة ليتصدر المشهد الثقافي فإذا به يسير على غرار سابقيه وعلى نهجهم فيقصي مستحقين ويرد الصاع صاعين لسابقين ففي عام **1955**، أصبح طه حسين رئيس اللجنة التي شكلتها وزارة المعارف لاختيار المستحقين لجوائز الدولة فحجبها في أقسام العلوم والتاريخ والآثار لعدم الاستحقاق ووقد كان من

المتقدمين لها الدكتور محمد حسين هيكل عن مذكراته في السياسة المصرية والدكتور سليم حسن وموسوعته مصر القديمة ومحمد فؤاد شكري عن كتابه عبد الله جاك مينو!!! وكأنه لا يوجد في مصر علماء تاريخ أو آثار (تصور).

فيما فاز بجائزة الأدب مناصفة الدكتورة سهير القلماوي والدكتور شوقي ضيف وقتها وذلك بحسب بوابة أخبار اليوم ومجلة الأديب **1955**.

****

المقال السابع

أخطاء الساسة ونفاق السياسة

من منا لا يخطئ؟ جلست يوماً أحصي أخطائي بكتبي فوجدتني أخطئ مرة بعد مرة، فكتبت أن محاولة اغتيال نجيب محفوظ كانت عام **1995** وذلك في كتابي تأملات بين العلم والدين والحضارة الجزء الثاني والصحيح أنها عام **1994** وخلطت في نوستالجيا الواقع والأوهام بين مجلة السمير المدرسية وكتاب السمير الصغير، شعر سهل بالصور لمحمد الهراوي **1926** والصواب أنه كتاب السمير الصغير..

كنت أحزن لأخطائي مع محاولاتي لمنع ذلك مرة بعد مرة دون جدوى ولكن وجدت العزاء في أن الإنسان من النسيان وأنها فطرة أهل الأرض جميعاً. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ ابنِ آدمَ خطَّاءٌ، وخيرُ الخطَّائينَ التَّوَّابونَ)، والأخطاء أنواع فمن الأخطاء ما يكون ارتكابه عن جهالة أو سهواً، لكن للأسف أكثر ما بالتاريخ ما كان عن عمد وتدبير ومن الأخطاء بالتاريخ ما هو هين ويسهل كشفه، ومنه ما كان جد خطير ويترتب عليه تبعات جسام فمثلاً الإمام محمد بن جرير الطبري الأب الروحي للتفسير والتاريخ الإسلامي استعرض الروايات التي تشهد أن الذبيح

إسماعيل والروايات التي تزعم بأن الذبيح إسحاق غير أنه عند المفاضلة كان أكثر ميلاً وتغليباً لكونه إسحاق، هنا خطأ العالم كبير فهو ليس بالهين بل يترتب عليه مخاطر تاريخية وعقائدية جمّة أبسطها تسرب هذا الرأي الخاطئ لكتب من بعده وهو ما حدث فنقل عنه ابن قتيبة وابن خلدون هذا الرأي.. تصور أن هذا الخطأ تسرب لعوام الناس وصار من تراثهم وميراثهم الشعبي وهذا ما حدث أيضاً، فيكفيك أن تعلم أن من بين نوادر مزبد المديني وكان معاصراً للخليفة العباسي الثالث المهدي نادرة تحت عنوان "أغلى من ديك مزبد" وخلاصتها أن مزبد أراد أن يضحي فلم يجد فأخذ ديكاً ليضحي به فجلب له جيرانه شاة بعد شاة حتى أصبح لديه سبع فقال: "ديكي أفضل عند الله من إسحاق لأنه فُدي بكبش وديكي بسبعة!!

لا ينبغي أن نغبن جهود العلماء المسلمين في تصويب مثل هذه الأخطاء وغيرها ومسألة تصحيح الأخطاء لابد وأن تكون عملية مستمرة ودائمة وإن كان الوصول للكمال غاية لا تدرك وحسبنا ما نسب لعماد الدين الأصفهاني أنه قال: "لا يكتبُ إنسانٌ كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد لكان يستحسن" وحتى هذه المقولة ذهب بعض المحققين إلى عدم صحة نسبتها للأصفهاني وأن الصواب أنها للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، يخاطب بها صديقه ومعاصره

عماد الدين الأصفهاني... هذا طبعاً في مضمار العلم الديني والبحث بقواعده واجتهاداته وكفاءة رجاله وتواضع أعلامه•••

أما مضمار السياسة فالأمر مختلف تماماً؛ فالسياسي أمام جمهوره لابد وأن يكون ملهماً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وإن كان في حقيقته على العكس من ذلك تماماً وما أكثر الجهلاء في عالم السياسة••

خلف السياسي يقف أنصار ربطوا مصيرهم بمصيره يهتفون له على طول الخط ويصفقون له حقاً وباطلاً، وعلى الجانب الآخر يقف أعداء يترصدونه وينتظرون هفواته ويحصون عليه سقطاته ولهذا يتوهم السياسي أن رصيده يتناقص حينما يعترف بأخطائه عياناً بياناً، ولو فعلها لنال احترام التاريخ ولكن من يكترث بحكم التاريخ؟

ومن الأخطاء ما يكون يسيراً ولا يستدعي الخوف والرهبة من كشفه أمام السياسي من دائرته المقربة وتصويبه، ولكن روح النفاق قد تدفع البعض لتغيير التاريخ للانتصار لهنات السياسي••

ومن أمثلة ذلك ما ذكره الدكتور إبراهيم عبده أستاذ الصحافة البارز من أن الرئيس السادات أخطأ ذات مرة وذكر أن "رفاعة الطهطاوي قاد الجماهير لمحاربة الولاة والخديويين" فكتب الدكتور إبراهيم للسادات ينبهه أن الرجل عاش ومات في كنف السلطة فإذا بالصحف الحكومية تتحدث عن أنّ الطهطاوي زعيمٌ سياسيّ باعتباره ترجم دستور **1866** وأنه أول من

استخدم في كتبه لفظتي (الوطنية) و(الأمة) مع أن الطهطاوي ترجم الدستور بأمر الخديوي إسماعيل!! وهكذا تحول الطهطاوي إلى زعيم رغم أنفه وأنف التاريخ.. وفي خطبة أخرى قال الرئيس السادات: إن نوبار باشا تولى الحكم بعد سعد زغلول باشا عام **1924** والصحيح أنه زيور باشا، ولكن الصحافة لم تكن لتتجاسر على التصويب ويعلق الدكتور إبراهيم على هذه الحوادث بعبارات بديعة في كتابه (ومن النفاق ما قتل) بقوله: "ما من أحد في العالم يحاط بكل هذا النفاق ويبقى على طبعه الأصيل، فلابد أن تغره الدنيا، ولا يقبل نقداً لسلطانه أو تصويباً لبيانه، فمن المسؤول عن هذا كله؟ إنه النفاق الذي مهد لكل بلاء أصابنا أو أصاب السلطان"

النفاق قد يدفع باتجاه تغيير المفاهيم وإعادة تشكيلها وتفصيلها تفصيلاً لصاحب السلطة، فديمُقراطية الرئيس في تعريف بعضهم هي ديمُقراطية المعجزات التي لا تصادف سواه، فمثلاً: أنْ يعثر الرئيس محمد نجيب وكان في السلطة وقتها على فتاة عمياء ضالة تدعى فاطمة فيتعهدها بالرعاية ويوصي بعلاجها في المستشفى وأن عطف سيادته صنع المعجزة واستعادت الفتاة النور بعد أن كانت حالتها في هوة اليأس؟

تصور أن صاحب هذه المعجزة (نجيب) وبحسب صحف مصرية نشرت عن مجلة "الأونيتا" الإيطالية في أغسطس **1952**، أنه رفض أن يعطي يده

اليمنى لأحد الفلاحين ليقبلها قائلاً: "هذه اليد قد صافحت بها الملك السابق فما كان من الفلاح إلا أن قبل يده اليسرى!!

أما النفاق في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، فقد كان له مذاق مختلف ونكهة فريدة لدى بعض مفكري العصر الملكي ممن أشاعوا عن أنفسهم خلافات مصطنعة مع العهد البائد تساندها الأحزاب وقتها ومنهم الدكتور طه حسين الذي أبدع في قص خلافاته مع الملك فؤاد والملك فاروق.. لكن عهد عبد الناصر حيث القبضة الحديدية الأمر مختلف تماماً. ففي إحدى المرات نشرت الصحف أن تلغراف من أبي قرقاص باسم طه حسين (وهو ليس من المقيمين فيها) وصل إلى مجلس الوزراء يقول فيه: "يا زعيمي.. لقد جئت بعد انتصارك جعل الله كل خطواتك انتصارات" إلى هنا جميل وممتع لكن الأجمل هو نفي طه حسين للخبر لا لشيء سوى أنه لا يهنئ الرئيس بالتلغراف، بل يحضر بنفسه للتهنئة وهو ما قد كان بحسب روز اليوسف عام **1955**..

لقد كان النفاق في العهد الملكي يدرس مع الوطنية جنباً إلى جنبٍ، لذلك فهي سلسلة متصلة ومتجذرة ولا تتعلق بعصر دون آخر وحسبك أن تقرأ كتاب التربية الوطنية للأستاذ عبد العزيز البشري وكيل إدارة المطبوعات بوزارة الداخلية والذي قررت وزارة المعارف العمومية تدريسه في المدارس الابتدائية بنين وبنات **1929** وما جاء في تقديمه: "مولاي يا صاحب

الجلالة (يقصد الملك فؤاد وقتها) لقد تفضلت جلالتكم الملوكية فأولت هذا الكتاب من الرعاية السامية ما ينقطع دونه جهد الشكر إذ أذنتم بصورتكم الكريمة كما أذنتم بتصوير حضرة صاحب السمو الملكي ولي عهدكم المحروس بعناية الله حتى يتهيأ للنشء من رعايا جلالتكم مطالعة الصورتين العزيزتين كلما أقبلوا على دروس التربية الوطنية وإن صدق الولاء لمليك البلاد حامي ثغورها وحارس دستورها وصدق الحب لولى عهده المفدى لمن أبلغ هذه الدروس وأقدرها على تكوين الوطني الحق.. أطال الله يا مولاي في عمرك وأمدك بالعافية كلها تنعم في ظلك البلاد بما ترجوه من العظمة والإسعاد.. عبدكم المطيع عبد العزيز البشرى"... تصور كل هذا الإطناب في التذلف من أجل صورتين على صفحة كتاب!!

لا تتوهم يا عزيزي أن النفاق بلغ أوجهه حديثاً، فقديماً كان أدهى وأمر وكانت صوره شتى وكان رجالاته أحياناً من الأسماء اللامعة التي نقف منها موقف التقديس اليوم، وكانت مسألة التلاعب في التاريخ ورواياته من أسهل ما يكون خاصة فيما يتعلق باختلاق الأنساب... فهل تعلم يا عزيزي أن ابن خلدون هو الذي نسج النسب الخيالي للسلطان المملوكي سيف الدين برقوق لإلحاقه بالنسب العربي، وإكسابه شرعية الحكم (تحدثنا عن هذا النسب في كتاب نوستالجيا الواقع والأوهام) مما قربه من السلطان وجعله موضع ثقته فقلده قضاء المالكية بالديار المصرية فقلب لأهل مصر الذين أكرموه ظهر المجن، ولم يقم للقضاة الذين أتوا للسلام

عليه وكان يعزر بالصفع ويسميه الزج، فإذا غضب على إنسان قال: زجوه فيصفع حتى تحمر رقبته... الغريب أن أهل المغرب (موطن عيشته الأولى) حينما علموا بتوليته القضاء في مصر عجبوا من ذلك، واتهموا المصريين بقلة المعرفة، فالرجل لم يكن مؤهلاً لمنصبه بالقدر الكافي...

الغريب أن هذه الفئة من العلماء يجمعهم دائماً الحرص على الحياة والفرار من الموت يود أحدهم لو يعمر ألف سنة أو يزيد في رغد ولين من العيش فابن خلدون مثلاً حينما رافق السلطان فرج بن برقوق للقاء تيمورلنك الرهيب في دمشق؛ ليفاجَأ بعودة فرج على عجل إلى القاهرة لاضطراب الأحوال بها تاركاً ابن خلدون مما جعل الأخير في حيص بيص لكنه اتخذ قراره بسرعة فائقة...

سارع واضع مقدمة علم الاجتماع إلى الاستسلام لتيمورلنك ليضمن طريقاً آمناً للحفاظ على حياته والعودة إلى القاهرة وانحنى العالم العلامة الجهبذ الفهامة لتقبيل يد تيمورلنك المخضبة بدماء أهل حلب والذي صنع من جماجمهم برجاً ومن بعدهم أعمل السيف في أهل دمشق الذين منحهم الأمان وبرغم كل هذه المجازر آثر ابن خلدون السلامة ووضع لتيمورلنك كتاباً عن تاريخ المغرب وجغرافيته وأهم مدنه!!

نعود بأدراجنا مرة أخرى للعصر الحديث... نعم هناك أخطاء للساسة وهناك من المنافقين من يبررها ولو عدلوا التاريخ في سبيل ذلك، ولكن

تبقى هذه الأخطاء هنات قولية محدودة وذات نفع محدود أيضاً للطرفين بالتأكيد هذا ما استنتجته عزيزي القارئ ولكن هناك من الأخطاء ما هو أفدح أثراً وانعكاساته شديدة الوطء في وضع الأمر في غير أهله وفي غير محله أيضاً..

من أطرف ما صادفت بعملي في الجودة قصة سمعتها عن إقدام إحدى المستشفيات على تعيين استشاري لمكافحة العدوى وبعد مضي شهور كان الرجل يكتفي بهز رأسه كلما عرضت عليه مسألة ولم يبادر ولو مرة للمرور على الأقسام أو التدخل في مسألة تخص عمله..

ولأن المسؤول عن القسم قبله، وكانت ممرضة فليبينية شديدة الدهاء وقد ألهب حقد نفسها استجلاب المستشفى لهذا الرجل للعمل مديراً لها، فقد دعته مع مجموعة من الأطباء والصيادلة والتمريض لمحاضرة في مكافحة العدوى وعلى هامشها امتحان بسيط وعلى الرغم من أن الجميع كانوا يتناقلون الإجابات إلا أن عزة نفس الرجل أبت أن يظهر بمظهر الغشاش في امتحان مفترض أنه من صميم تخصصه..

ظهرت النتائج وكان هو الوحيد الراسب في الامتحان وتحقق ما تمنته الفلبينية العجوز الخبيثة، وأسرعت إلى صاحب المستشفى وتم التحقيق في ملابسات تعيين هذا الاستشاري والذي اتضح أنه يحمل شهادة **HAZMAT** في التعامل مع المواد الخطرة ولا علاقة له بمكافحة العدوى من قريب أو

بعيد.. لكن من اختاره وعينه؟!! بالطبع كان من منافقي الإدارة المقربين (أهل الثقة) الذين لا يدرون الفرق بين المواد الخطرة ومكافحة العدوى!!
ذكرتني هذه الحادثة بما نسميه مسؤولي تشابه الأسماء.. لكن الخلاف كبير بين المؤسسات الصغيرة والمتوسطة والمؤسسات الكبيرة في حجم الدول فالفضيحة في الأولى والثانية سهل مداراتها وعلاج آثارها أما الأخيرة فمن المستحيل أن تمر مرور الكرام دون صدى وفرقعة إعلامية كبيرة تهز صورة الأنظمة في وجدان شعوبها وعليه فلا بأس من تجميل المسألة وحلها مع أول تعديل وزاري..

لكن بعض مسؤولي تشابه الأسماء لم يكونوا كصاحبنا السابق لا بل استطاعوا أن يغتنموا الفرصة جيداً.

نبدأ بأول حالة مسجلة لما سمي بوزير تشابه الأسماء بحسب مركز أخبار اليوم (**2021/6/3**) نقلاً عن مجلة آخر ساعة في **25** يناير **1950** وكتاب علي أمين (هكذا تحكم مصر) ففي عام **1950** وفي أثناء البحث عن وزير للتموين في حكومة النحاس باشا تذكر النحاس قاضياً اسمه فرحات ولا يتذكر اسمه كاملاً، برأ المتظاهرين الوفديين ففصل من وظيفته (لاحظ أن الصراع الحزبي بين الوفد والأقليات كان على أشده كل حزب يصل للحكم يقوم بإقصاء المنتمين للحزب الآخر بالفصل أو النقل فإذا أتى الحزب الآخر أعاد رجاله ومارس نفس الأمر مع خصومه وهكذا) المهم وجد مساعدو

النحاس مستشاراً يدعى مرسي فرحات فظنوه من قصده النحاس باشا وتم استدعاؤه لحلف اليمين ليفاجَأ به النحاس ويسأل في دهشة: من هذا ؟ قيل له: "مرسي فرحات" فقال النحاس: "أبداً مش هو" وتذكر لحظتها اسم القاضي وهو قطب فرحات ولكن قضي الأمر ولم يعد هناك سبيل للتراجع.. الأمر ذاته قيل أنه حدث في عهد الرئيس مبارك في حكومة أحمد نظيف حينما تم اختيار الدكتور هاني هلال وزير التعليم والبحث العلمي عن طريق الخطأ، ولم يكن هناك سبيل لتدارك الأمر بعد إعلان أسماء الوزراء في التشكيل الوزاري وذلك بحسب تصريح منسوب للدكتور جابر عصفور وزير الثقافة الأسبق تعليقاً على المقصود بوزير تشابه الأسماء في فيلم معالي الوزير ولما كان الفيلم من إنتاج **2002** بينما جاء تولي الوزير في **31** ديسمبر **2005** إذاً فالفيلم سابق على تعيين الوزير لا العكس مما يضعف من أسانيد هذه القصة والله أعلم...

الطريف في قضية النفاق في مصر أن القدرة على النفاق تتناسب طردياً مع مكانة ومركز وحيثية المتوجه إليه بالنفاق ودرجة استقراره وثباته بمنصبه وعكسياً مع أفول نجمه وتواضع مرتبته، فإن كان في أوج سلطانه وكمال صولجانه وصانع قرار فالكل يسعى إليه ويتودد فسليمان فوزي صاحب الكشكول التي تصدر كل جمعه وصاحب العلقة الساخنة بالكرباج من النبيل عباس حليم بحسب خصومه من الوفدين (تطرقنا إليها في نوستالجيا

الواقع والأوهام) نجده على صفحات مجلته يرد على ما أسماه بإشاعة جريدة الصرخة ووليم أفندي مكرم وروز اليوسف وصبيها التابعي (انظر التدني في لغة الزمن الجميل) وأن مثل هذه الحادثة لو وقعت فعمال جريدته يقومون بالواجب مع عباس حليم!! ربما تتصورها شجاعة عزيزي القارئ في التعامل مع أحد أبناء الأسرة العلوية... لا يا عزيزي كل ما في الأمر أن عباس حليم كان مجرداً من ألقابه لميوله الإشتراكية والعمالية، مما أغضب الملك فؤاد عليه وصار يخاطب بالأفندي إلا لكانت سياط أميرنا وشلوته دفعة لمستقبل الصحفي نحو الأمام... الظاهر أنها لم تكن العلقة الأولى لصاحب الكشكول، فقد سبقها اقتحام مجموعة من الطلبة لمقر الكشكول وتدميره وحرقه وضرب صاحبه ضرباً مبرحاً، وتمزيق صحفه، وذلك بحسب اللطائف المصورة في **24** نوفمبر **1924** ذلك أن الشخصية التي كانت توجه لها سهام السخرية على صفحات الكشكول ذات ثقل كبير وموضع إجماع لا يقبل الاقتراب أو المساس في فترة حاسمة، كانت قضية الجلاء على أولوياته وهو زعيمها ورمزها. إنه سعد باشا زغلول..

الحال ذاته كان مع النحاس ورجال الوفد كانوا من الحاضرين الدائمين في مرمى التندر والسخرية على صفحات المجلة بحكم الخصومة بين الوفد والقصر وأيضاً الأمير عمر طوسون صاحب النزعة الوفدية، فكانت الكشكول تسخر من عطاياه للخير وأنه لا يتوانى عن توقيع الحجز على كل

مستأجر يتعثر في تسديد الإيجار عند حلول الأجل المسمى بينهما، وأنه حينما طلب منه المساعدة في عمارة المسجد الأقصى أولى القلبتين وثالث الحرمين الشريفين وثاني مسجد بني في الإسلام بعد المسجد الحرام. "تنحنح للندى وتنخم بالبذل وبعد زحير ونحير وشخير ونخير بصقها في وجه المروءة خمسة وعشرين جنيهاً لا شك أنها كافية لرسم دائرة في وسط القبة ينقش فيها اسم الأمير عمر طوسون فيكون منه للمسجد الشريف بعد تمام عمارته وكمال زبلته تعويذة من العين ووقاء من الحسد"... أسلوب للنقد والسخرية في منتهى القسوة، ولكنه أعد لخصوم الملك فؤاد فماذا عن الموالين له؟

على النقيض تماماً كانت لغة المجلة في التعامل مع أحد أعمدة الحكم الملكي وهو إسماعيل صدقي باشا (تناولنا سيرته في كتابي على هامش التاريخ والأدب ونوستالجيا الواقع والأوهام) فجاء وصفه على صفحاتها برجل الساعة صاحب الدولة إسماعيل باشا صدقي باشا في **27** يونيو **1930** بل ووضعت له قصيدة في مدحه مهداة إلى "المصلح العظيم حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقي باشا" تقول فيها: "ما أنت إلا البدو في جنح الدجى يهدي السبيل ويؤنس المذعورَ... أرسلت في سحائب إفكهم فهتكت سترهم ولحت منيراً.."

للأسف نفس الفكر ونفس المنهج لا يتغيران عبر العصور والأزمنة..

المقال الثامن

بقايا الزعيم الحائر

ربما لم يحدث في تاريخنا المعاصر أن اجتمعت أغلبية قوى الشعب المصري المعروفة بتنافرها وعدم تجانسها حول شخص واحد، مثلما اجتمعت حول سعد باشا زغلول.. لكن هذا لا يمنع من وجود فئات قليلة ناصبت الزعيم العداء أثناء حياته وبعد وفاته أيضاً..

في كتاب نوستالجيا الواقع والأوهام تناولنا قصة نقل رفات سعد زغلول باشا إلى مرقده الفرعوني الجديد، لكن بقي السؤال لماذا ضريح فرعوني وليس عربياً إسلامياً، وهو الشائع في هذه الأزمنة؟

في العدد **211** من مجلة كل شيء والعالم في **24** نوفمبر **1929** طرح هذا السؤال على معالي عثمان باشا محرم أحد الوفديين البارزين، ووزير الأشغال وقت بناء الضريح (شغل هذا المنصب في **14** وزارة قبل ثورة **1952** وأتينا على ذكره في نوستالجيا الواقع والأوهام)... أغرب أسباب الوزير لإقامة الضريح على الطراز الفرعوني هو سهولة دخول الضريح أمام الزائرين لو كان فرعونياً دون نزع الأحذية خاصة الأجانب منهم، أما لو كان الضريح عربياً إسلامياً فإنه يصطبغ بصبغة تكاد تكون دينية فيغدو الضريح كأنه

ضريح ولي من الأولياء.. فهل تأمل معالي الوزير وهو شيخ المهندسين مدافن حكام مصر ومنهم الأسرة العلوية ذاتها ومدافن الوزراء السابقين والمعاصرين، ومنها ما كان داخل مسجد أو قبة أو تزين بالتصاميم المعمارية الإسلامية ولم يتحول أيٌّ منهم لأولياء.

السبب الأغرب الثاني أن سعد رجل قومي، وكان يعمل لمصر القومية فوجب علينا أن نشيّد له ضريحاً قومياً، وهذا لا يكون إلا بالفرعوني فالفن الفرعوني أقدم فن من نوعه في العالم، وهو فن بلاد الفراعنة أي بلاد مصر وقد كانت نهضة سعد في سبيل مصر ولأجل تحقيق استقلال مصر... هذا السبب يظهر بجلاء أن محاولة سلخ مصر عن هويتها الإسلامية وعزلها عن محيطها العربي والإسلامي تحت مسمى الهوية الفرعونية قد بدأ مبكراً جدّاً...

وحول القول إنّ مساحة الأرض التي خصصت لبناء الضريح حول بيت الأمة لا تناسب ضريحاً على الطراز الفرعوني قال الرجل: "هذا ادعاء لا قيمة له".

كنت أتمنى لو أدرك عثمان باشا محرم وفاة أحد أبرز دعاة الفرعونية ألا وهو الدكتور طه حسين الذي كتب يوماً في مجلة كوكب الشرق عام **1933** يقول: "الفرعونية متجذرة بعمق في أرواح المصريين. وستبقى كذلك، ويجب أن تستمر وتصبح أقوى. المصري فرعوني قبل أن يكون

عربياً" ليرى قبره لا تعلوه وصايا الحكيم الفرعوني بتاح حتب مثلاً، بل يزينه دعاء المصطفى صلى الله عليه وسلم: (اللّٰهُمَّ لك أسلمتُ، وعليك توكلتُ، وبك آمنتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنتَ إلهي لا إلهٰ إلَّا أنتَ... من حديث نبويّ تلاه الدكتور طه حسين في فلورنسه **1952** وفي مكة المكرمة **1955**) وضع على قبره بناء على وصيته...

لا تنزعج عزيزي العلماني إن صدمت بتراجع من أوهموك أنه أستاذك على درب العلمانية، وعلى كلٍّ لن تكون صدمتك بأكبر من صدمة صديقه ورفيق دربه أحمد لطفي السيد الداعي للتمصير الذي أرسل لطه حسين مندهشاً: هل أسلمت؟! وكان الأخير قد نشر مقالاً يتناول بعض الأمور الدينية، فأرسل إليه طه حسين قوله تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا).

نعود لقصتنا... في هذا الوقت الذي انشغل فيه الوفديون بضريح زعيمهم ورفض إسماعيل باشا صدقي لاقتصار الضريح على شخص واحد وهي مسألة أراه كان محقاً فيها تماماً، علاوة على تماثيل الزعيم الراحل التي كان مزمعٌ لها أن تكون بالقاهرة والإسكندرية، اتخذت الصحافة المعارضة للوفد وفي طليعتها مجلة الكشكول من تمثال سعد مادة للسخرية والتهكم، ففي عددها في **1** أغسطس **1930** وصفته بالتمثال الحائر؛

مقترحين وضعه بقرافة زينهم باعتبار سعد أب الشعب وزعيم الرعاع (لاحظ لغة صدقي باشا)! فخير مكان لأبي الرعاع بين أبناء المدبح وزينهم وفي ذلك تذكير أنه كان نائب حي السيدة زينب وفي الحي بزغ نجمه! وتمضي المجلة في اقتراحاتها الساخرة بأن يوضع التمثال أمام مستشفى الأمراض العقلية (السرايا الصفراء)، حيث يمكن لأتباعه سكنها ليطلوا على أبيهم سعد من نوافذ حجراتهم، وسيكون للتمثال الفضل في اضطراد الزيادة بين ضيوف السرايا الصفراء وعلو إيرادها، أو وضعه بكفر الجاموس الذي أنشأته مصلحة المجاري ليكون أعطر سلام لتمثاله ولو عن طريق غير مباشر..

طبعاً أنا أنقل هنا عبارات الصحيفة ليس بغرض إحياء صور التهكم على الزعيم الراحل، ولكن بغرض استعراض مثال للشكل المتردي والمؤسف للمعارضة وسوء استخدام حرية التعبير في صحافة زمان التي نتحسر عليها دون أن نقرأها ولو قرأناها لعرفنا أننا بحاجة إلى ميثاق أخلاقي منذ أمد بعيد وليس الآن فقط.

****

المقال التاسع

عدو الشعب

في عام **1932** أصدرت وزارة المعارف العمومية في مصر رواية تمثيلية ذات خمسة فصول هي "عدو الشعب " تأليف هنريك إبسن وترجمة إبراهيم رمزي وراجعها خليل مطران ومحمد زكي المهندس وزكي طليمات، وأصل الرواية باللغة النرويجية كان عام **1883**. تدور الرواية في بلدة نرويجية يكتشف بها ينابيع مياه صحية ويحلم أصحابها بالثراء من انتعاش السياحة العلاجية، فاستغل الأخوان ستوكمان ذلك، وأسسا محطة حمامات معدنية استشفائية وتقاسما المسؤولية عنها، فتولى بيتر عمدة المدينة الجناح الاقتصادي بما يحقق الرخاء والعائد المنتظر، أما الطبيب توماس فتولى ضمان الجودة وتحقيق المرجو الصحي منها. بالطبع تكامل يتحقق معه النجاح..

لكن تدب الفرقة بين الطرفين مع اكتشاف توماس لبكتريا خطيرة بداخل مياه المحطة تهدد صحة وسلامة الناس؛ فقرر إغلاق المحطة وإعلام الناس، ريثما يتم علاج الأمر، وهو ما وجه من جانب بيتر بالرفض التام بدافع البرغماتية الاقتصادية والخسائر التي تنجم عن ذلك.

بدأ بيتر يعد خطة لتكذيب أخيه صاحب الضمير النزيه والمدافع بقوة حتى ولو كان وحيداً أمام أغلبية لها مصالح مادية قالباً الطاولة على أخيه ومغيراً للحقائق ليظهر توماس بمظهر عدو الشعب..

الغريب أن توماس تحول لعدو الشعب فعلياً، حينما قرر أن يفرض وصايته على الناس أثناء اجتماع له معهم مقدماً نفسه لهم باعتباره المنقذ الوحيد لهم واعتبر المناهضين له حمقى...

هكذا الأشخاص لهم وجوه كثيرة متباينة ومتضادة ومتقلبة وهكذا التاريخ أيضاً له أوجه شتى ولكل قصة عشرات الروايات والحكايات الإنسانية من الصعب فيها الوصول للحقيقة الكاملة الدامغة، لذلك فالصواب أن نوسع مداركنا في الحكم على الأمور والأحداث والأشخاص، وأن نعيد الأمور لسياقها ونقيمها وفق معطياتها وظروفها الخاصة وأن نضع أنفسنا أحياناً مكان صانعي الحدث؛ كي نستفيد حقاً من التاريخ إنسانياً قبل كل شيء..

في نظرتنا للأشخاص من الضروري أن نعي أنه كما بالوطن زعماء هناك أيضاً موظفون... الزعماء يتمردون ويختلفون ويهادنون أحياناً، والموظفون يؤدون مهامهم كما هي مطلوبة منهم بأمانة كاملة، وفي ضوء التعليمات الموجهة لهم. في لحظات قد يبدو الزعيم نصيراً للشعب، ولكن في مواقف قد يبدو على النقيض، وكذلك الموظف لكن الفرق بين الاثنين أن الأول

المتحكم فيه رؤيته للظروف من حوله، أما الثاني فيحكمه رؤية ولي الأمر الذي يحكمه وفي كلتا الحالتين ينبغي أن نتوقف عن اتهام الأشخاص بالخيانة والعمالة لمجرد موقف واحد في مسار حياة مهنية طويلة.. فمثلاً بطرس باشا غالي رئيس النظار، رجلٌ وجدَ نفسه بين سلطتين سلطة شرعية حاكمة هي الخديوي، وسلطة شريكة في الحكم واتخاذ القرار من منطلق القوة والواقع وهي سلطة الاحتلال، لذا فتوقيع معاهدة السودان عام **1899** التي اتهم أنه أراد فيها فصل السودان عن مصر لم تكن من وحي اجتهادات الرجل الشخصية، بل أفضل ما يمكن التوصل إليه برأي الخديوي عباس حلمي الثاني ودفاعه عنها (انظر نوستالجيا الواقع والأوهام)... لا شك أن ترأسه لمحكمة دنشواي من أعظم خطاياه وأكثرها فداحة لكنها أيضاً لا تخرج عن إطار عقلية الرجل الوظيفية ..

الشخصية الثانية هي أمين عثمان وهو رجل بحكم دراسته في أكسفورد وتأثره بالثقافة الإنجليزية لعب دور الاتصال بين الوفد والإنجليز بشكل معلن... حزب الأغلبية في بلد محتل طبيعي أن يكون له أذرع سياسية وأخرى للمقاومة.. يهادن ويفاوض بقنواته الدبلوماسية وقتما تتطلب الأمور ذلك ويرفع رايات الفداء حينما توصد الدبلوماسية أبوابها وتعجز عن الحل...

مشكلة أمين عثمان في التاريخ المصري أن أحد الذين اشتركوا في قتله قد أصبح رئيساً للجمهورية وهو الرئيس السادات والذي كان يفاخر بدوره في هذه الحادثة كمثال على البطولة والفداء، ولم يكن أحد ليقدر أن يقدم تصوراً مختلفاً عن الشخصية وإلا أصبح مناوئاً ورافضاً لبطولة الرئيس...!

أما المقولة التي قالها أمين عثمان "إنّ العلاقة بين مصر وإنجلترا زواج كاثوليكي"، ثم مداعباً "السير مايلز لامبسون" _المندوب السامي البريطاني الذي حضر لمصر عازباً وحينما تزوج رأينا المعاهدة المصرية البريطانية_ (تزوج لامبسون راشيل فيبس والتي توفيت عام **1930**ثم جاكلين الدين ليزلي كاستيلاني عام **1934**) فكما نرى كانت على سبيل المجاملة في احتفالية جمعية خريجي كلية فيكتوريا في فندق الكونتنتال في **7** فبراير **1940**.. ولو قتلنا كل سياسي أو رجل دين جامل المحتل في هذه الفترة لما وجدنا لأجسادهم أجداثاً!!

إنها قناعات شخصية وحسابات سياسية لدى البعض بالاحتياج لإنجلترا كشريك مهم في مختلف المجالات، والقفز على حقيقة أنها إمبراطورية جاءت تحتل بلادنا وهي تدافع عن مصالحها بالدرجة الأولى، قد تترسخ هذه القناعات لدى البعض وقد تتبدل لكن ينبغي دراستها بموضوعية وفي سياقها التاريخي وحسابات أزمنتها والأخذ في الاعتبار أننا كنا وقتها وطن

محتل بالفعل.. سأعطيكم مثالاً على درجة تقلب القناعات عند الزعيم الوطني الكبير محمد فريد ففي يناير **1891**، كتب أنه "لا يرى ما يوجب كراهية الإنجليز وأنهم يعاملون الناس بالرفق والدعة"، ويبدي إعجابه بإدارة الأمور المالية بالبلاد متمنياً عدم العودة للدولة العثمانية وأننا بحاجة "لمساعدة الإنجليز مدة لا تقل عن خمسة عشر سنة حتى نبلغ شأناً من التمدن والتقدم في سبيل المعارف، يمكننا أن ندبر أحوالنا بأنفسنا"، ثم سرعان ما انقلب على كل هذه الآراء، بل وكتب كتاباً عن الدولة العلية هو (تاريخ الدولة العلية العثمانية) عام **1893** تماماً كما فعل عبد الرحمن الجبرتي في كتابه (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) مبدياً إعجابه بالفرنسيين في النواحي العلمية وفي المحاكمات، ثم سرعان ما انقلب على آرائه السابقة وقدم في طاعة الباب العالي كتابه (مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس)..

نأتي إلى سؤال ما هي منزلة الشخصيتين سالفتيّ الذكر لدى بعض الطوائف والمثقفين؟

جاء في مقال لاخنوخ فانوس في مجلة المحيط (صاحبها عوض واصف) العدد العاشر في **1** ديسمبر **1905** أن "بطرس باشا رجل قبطي.. تعتبره الأقباط رأساً وعيناً لهم، "ولو كان في زمن مضى لوضعوه في مصاف الآلهة" وهو يقارن بين مكانة الباشا في قومه بمكانة الإمام محمد عبده بين أوساط

المسلمين ودوره في انتهاز كل الفرص لتمكينهم والعمل على نهضتهم وإصلاح شؤونهم الدينية والاجتماعية والأدبية مع ما لاقاه من نكران الجميل والمقاومة والاضطهاد حياً وميتاً، والمناداة بعد وفاته بالحط من مقامه (طبعاً بسبب الخلاف بينه وبين الخديوي عباس حلمي الثاني) في المقابل يعتب فانوس على بطرس غالي أن مخالفة البعض له في الرأي جعلته ينصرف عن قضايا الأقباط مما يؤدي لتأخر الأمة القبطية في جميع أمورها الروحية والعالمية والقضاء عليها القضاء المبرم ملوحاً بما فعله الشعب الروسي "بإلهه إمبراطور الروس" حينما أهمل تقدمه وأصر على استعباده فقام "يحاسب إلهه ومعبوده أدق الحساب على الأمانة المودعة بين يديه"
أما أمين عثمان فنجد الكاتب (أحمد الصاوي محمد) في عمله (بيرون أو دون چوان) يوجه إهدائه "إلى صاحب المعالي الأستاذ أمين عثمان باشا رائد الصداقة المصرية الإنجليزية والعامل الأول على توثيق عرق الحلف بين أمتين حرتين لقد وجدت فيه أمته رجلاً والرجال قليل".

ومن الأشخاص نعرج إلى الأحداث وقد تتعدد الروايات حول الحدث الواحد بشكل شديد التباين والخطورة فمن يتأمل مثلاً قصة الموظف الفلسطيني علي خلفاوي الذي نسبت إليه أعمال بطولية وقت حرب عام **1948** لكنه اتهم بعد ذلك بالتجسس لصالح إسرائيل، وفي التحقيقات

اِدعى أنه تعرض للخداع وأنهم أوهموه أنهم المخابرات البريطانية ويريدون معلومات عن منطقة فايد لابد وأن يضع في الاعتبار وجهاً آخر للقصة تزعمه بعض الكتابات الفلسطينية من أنه اشتكى الإدارة المصرية في ذلك الوقت، وأدلى بتصريح لصحيفة «المصري» عن تجاوزات وأفعال كثيرة ارتكبها كبار رجال الإدارة لا يستطيع السكوت عليها فاستُدعي لمصر وقُبضَ عليه وأُودع في سجن الأجانب؛ لتنتهي حياته منتحراً بشكلٍ غريبٍ وذلك بلباب الخبز الذي كان يقدم له، حيث قام بتجفيفه وتركه بحلقه حتى اختنق..

لذا فلنتريث في تاريخنا قليلاً خاصة فيما يتعلق بإطلاق مسميات الخيانة وعدو الشعب ريثما تتضح الصور الكاملة مع الوقت ونقارن الشهادات والروايات المختلفة، وعندئذ تنضح الحقيقة في النهاية.

****

المقال العاشر

رجال لم تخبرك عنهم حصص التاريخ

في التاريخ المصري صفحات مشرقة تستحق أن تروى وأن يسلط عليها الضوء إن أردنا أن نبني جيلاً حقيقياً لا يعترف إلا بالعزة ولا يعرف سوى التطوير والبناء في كافة المجالات.

أ-رجل الساعة بمصر

تحت عنوان "رجل الساعة في مصر عبد السلام ذهني بيك المستشار الوطني الجريء" أفردت اللطائف المصورة في عددها **1003** في **30** أبريل **1934** صفحة كاملة مزينة بصورته واصفة إياه برافع الكرامة المصرية والمدافع عن القومية الوطنية. كان مبعث هذا الاحتفاء بالرجل هو انتصاره في جعل تدوين أحكام المحاكم المختلطة باللغة العربية لأول مرة بعد خلاف كبير مع القضاة الأجانب وهو ما اعتبرته المجلة انتصاراً كبيراً للهوية والكرامة القومية وعلى صفحات المجلة أنشد محمد يونس القاضي:

"شفت سي عبد السلام ذهني وحكايته... آهو واقف فوق سطوح المحكمة
وبشجاعة قام رفع راية كرامته... وسط أزمة مختلط مستحكمة
مصر من فرحتها عمالة تسقف... لابنها اللي رفع راية علاها
راية لا تنزل ورفعتها تشرف... كل سكان مصر واللي في حماها

طول حياتهم يرفعوا راية السلام"

فيما قام أحمد زكي أبو شادي يستحث همم المصريين ومذكراً بمشابهة هذا الموقف بموقف سعد زغلول باشا حينما كان وزيراً للمعارف وجعل اللغة العربية لغة التعليم بدلاً من اللغة الإنجليزية؛ فيقول في قصيدته التي ضمها كتابه (فوق العباب):

"عفاء على دار على أهلها تجني ... إذا بات أهل الدار يرضون بالغبن
بني وطـنـي! هذي حمـيـة واحد ... فأين إباء الشعب يهدم أو يبني؟
أتنسون ماضي سخطكم أو إبائكم ... وكلكمو «سعد» وكلكمو «ذهني»".

للأسف لا نملك كثيراً من المعلومات عن حياة الرجل أكثر مما ذكره خير الدين الزركلي في (الأعلام) نورده نصياً من أنه "علامة بالقانون. مصري عصامي. بدأ حياته مدرساً في الإسكندرية، وتابع دراسة الحقوق، وسافر إلى فرنسة مرتين، ففاز بشهادتي "الدكتوراه" في العلوم السياسية والمالية، القانون المدني. وعمل في المحاماة (سنة **1909**) ودرَّس في مدرسة الحقوق بالقاهرة •وانتقل إلى القضاء ، فارتقى إلى أن كان رئيساً لمحكمة مصر، فمستشاراً بمحكمة الاستئناف المختلطة. وأحيل إلى التقاعد بعد إلغاء "المختلط" فعاد إلى المحاماة بالقاهرة• واستمر إلى أن توفي. له تصانيف كبيرة كثيرة، تعد من أمهات المراجع العربية في القانون. منها "مسؤولية

الحكومة- ط " جزآن، لعله أول ما نشر من مؤلفاته (سنة **1914**) و"كتاب الحيل، المحظور منها والمشروع - ط" و"الأنظمة الدستورية والإدارية - ط" و"النظرية العامة في الالتزامات - ط "، "في الأحوال - ط " مجلدان، و"في القانون التجاري - ط"، و"مسؤولية الدولة عن أعمال السلطات العامة من الناحيتين الفقهية والقضائية - ط " و" الأموال - ط " و"نهضة القانون - ط"، و"القانون التجاري - ط"، و"التطور الاجتماعي والتشريعي - ط"، و"المداينات - ط " مجلدان".

ولأن الشيء بالشيء يذكر؛ فقد جاء انتصار آخر من المحكمة المختلطة أيضاً بفوز المهندس المصري النابغة إبراهيم أفندي فوزي على مهندسي العالم في المسابقة التي أقامتها الحكومة المصرية لوضع تصميم للمحكمة المختلطة الجديدة، وقد نشرت اللطائف المصورة في عددها **532** بتاريخ **20** أبريل **1925** خبر فوزه أيضاً على أقرانه في مدرسة باريس للهندسة، وإشادة المسيو الجيوم رئيس مدرسة الناسيونال والفنون الجميلة بنبوغه..

أتمنى وضع مثل هذه الأمثلة وما أكثرها لمن يبحث وينقب ولو في مشهد من مسلسل يتناول هذه الفترات المضيئة من تاريخ مصر بدلاً من مسلسلات البلطجة والإسفاف..

ب-رسول العلم بروسيا

في ضاحية فولكوفو بالقرب من سانت بطرسبرغ بروسيا، يقع ضريح الشيخ الجليل محمد عياد الطنطاوي، حيث تعتبره الدولة من الآثار التاريخية والثقافية بالبلاد..

في مصر كانت البداية لشيخ نابه تلقى تعليمه بالأزهر على يد ثلاثة من العلماء المتنورين ممن تولوا مشيخة الأزهر بعد ذلك هم: الشيخ حسن العطار والشيخ محمد بن أحمد البيجوري والشيخ برهان الدين إبراهيم السقا... لكن اهتمامه بعلوم اللغة وآدابها جعله منبوذاً متهماً باتباع البدع وبلغت كراهية خصومه له حد تمني موته أثناء إصابته بالطاعون وهو بين الحياة والموت... وكما يقولون فربّ ضارة نافعة، فاللغة التي كانت سبباً في محنته تحولت بين يوم وليلة إلى مناط سعده ومكمن قوته وانطلاقه نحو العالمية، حيث بدأ اهتمام المستشرقين بمصر يتزايد في عهد محمد علي باشا وتشجيعه لهم، فكانت الحاجة متزايدة لمن يعلمهم العربية وهنا انطلقت مواهب الشيخ عياد.. كان من تلامذة الشيخ المستشرقان الروسيان **(**موخين**)** و**(**فرين**)** اللذان رشحا الشيخ للقنصل الروسي العام في الإسكندرية ليسافر لروسيا للتدريس هناك، وهنا يستأذن الشيخ عياد "عزيز مصر وممدنها، وحامي ذمارها ومؤمنها " محمد علي باشا الكبير والذي لم يمانع بل وشجعه على تعلم اللغة الروسية وإتقانها (انظر سعة فكر

محمد علي في بناء قاعدة لقوة مصر الناعمة وفي مقدمتها المد الثقافي وبناء جسور من الحوار مع الغرب).

نجح الشيخ عياد في مهمته بين التدريس في كلية اللغات الشرقية بـ سانت بطرس بورغ وبين كونه مستشاراً في الدولة الروسية ونال احترام واستحسان الروس وتكريمهم أيضاً، حيث قلده القيصر وسام ستانيسلان ووسام القديسة حنة وخاتماً مرصعاً بالألماس الغالي وتوفي الشيخ في **29** أكتوبر **1861.**

ت-الصومال بالمصري

عصر عبد الناصر.. سنوات التحدي والكبرياء ضد كل مظاهر الاستعمار في أفريقيا.. سنوات ذهبية كتب فيها المصريون بأحرف من نور على صفحة النضال الأفريقي نحو الاستقلال ومن هؤلاء السفير المصري الشهيد محمد كمال الدين صلاح، وهو وبجدارة ممن يطلق عليهم رجل بأمة..

جاء الشهيد بصفته مندوباً عن مصر في المجلس الاستشاري «الوصاية» بالصومال الذي شكلته الأمم المتحدة عام **1954**، وضم أيضاً الفليبين وكولومبيا لمراقبة عملية التحول نحو الاستقلال وكانت أراضي الصومال مقسمة بين استعمار إنجليزي ووصاية إيطالية وأجزاء تحت السيطرة الفرنسية، وافتتحت مصر قنصلية لها في الصومال لتدعيم نشاطها..

أغرم السفير المصري بالصومال وشعبه فبادلوه حباً بحب، وأصبح منخرطاً بين الأهالي الفقراء، فتبنى قضاياهم ووضع خطة اقتصادية لمعالجة الفقر بالبلاد وتعليمهم أسس الزراعة الحديثة والنهوض بالحرف المحلية وخاض معهم معركة جعل اللغة العربية لغة البلاد الرسمية.. كما عبر عن الموقف الصومالي بأمانة تامة فيما يتعلق بمسألة الحدود مع الحبشة غير مبالٍ بتلميحات رئيس وفد الحبشة الدائم في الأمم المتحدة بأن دفاعه عن الصومال يعد موقفاً غير وديّ من مصر إزاء الحبشة، كما طالب بإعادة النظر في عقود الامتياز الممنوحة للشركات الاستعمارية، وتعديل بنودها بما يحقق مصالح الشعب الصومالي ومندداً في الوقت ذاته بمظاهر التفرقة العنصرية داخل البلاد على أساس اللون والعرق والتي صنعها المستعمر.

دفع الشهيد حياته ثمناً لذلك، حيث طعن أثناء عبوره الشارع أمام منزله في «مقديشيو» يوم **16** إبريل **1957**، وودعه الصوماليون في جنازة مهيبة وصلوا عليه في البرلمان، كما قدم الوفد الصومالي المرافق للجثمان لمصر التعازي للرئيس جمال عبد الناصر...

هذه النماذج وغيرها مثل حكيم الإسلام طنطاوي جوهري والشيخ علي أحمد الجرجاوي أول داعية إسلامي باليابان والشيخ محمود أبو العيون المصلح الاجتماعي (أتيت على ذكرهم في صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر) والدكتور محجوب ثابت (تحدثنا عنه في كتاب على هامش التاريخ

والأدب) ألا تستحق منا أن تكون على أولويات الأعمال الدرامية والسينمائية بدلاً من تقديم أعمال البلطجة والإفساد أو السير الذاتية لبعض الفنانين الذين ربما قدموا أعمالاً سينمائية هامة في الماضي، لكن سيرهم تحفل بخصال شديدة الدناءة والانحطاط كممثل أضحكنا وأبكانا في رصد للمجتمع المصري بشكل إنساني مميز، لكن مذكراته يتحدث فيها عن محاولته خيانة مديره ومضاجعة زوجته مستغلاً غيابه وزواجه براقصة صاحبة ملهى ليلي شهير، وممثل آخر عاش حياة بألف عام يتنقل بين النساء وآخرهم زوجته التي هربت من زوجها لتتزوجه، ثم يرواد ابنتها التي كان يدعوها بابنته لتحمل منه وتنتحر هروباً من الفضيحة فأي موعظة تقدم للشباب والنشء من حياة هؤلاء غير الابتذال والقضاء على الأخلاق والفضائل إن لم تكن انقرضت بالفعل؟!

ث. عمدة المصريين في لندن

إنّه الأستاذ قرياقص ميخائيل المراغي والذي بدأ حياته صحفياً ومراسلاً مستقلاً بمصر لينتهي به المطاف إلى لندن، حيث قضى فيها الشطر الأكبر من حياته حتى سمي بعمدة المصريين في لندن، وقد خصص بيته ليكون نادياً لهم. هناك لم ينسَ أبداً قضايا وطنه وأمته، ومثل ضميرها الحي في كثير من المواقف فدافع عن حقوق العمال المصريين العاملين بالسفن الإنجليزية وقادهم في مظاهرة أمام البرلمان كما احتج على الحماية البريطانية على مصر عام **1914** وفي خضم ثورة **1919** كان لسان مصر

المدافع عن قضيتها واستقلالها في لندن ففي ديسمبر عام **1919** قاد مظاهرة وسط شوارع لندن وصلت إلى حديقة هايد بارك وهناك ألقى كلمة معرفاً بالقضية المصرية ومندداً بالممارسات الاستعمارية، وكتب نحو مائة مقال باللغة الإنجليزية عن القضية المصرية العادلة.. وبسبب مواقفه تم اعتقاله وترحيله لمصر حيث استقبلته جماهير مصر بالمحبة والعرفان، واتهم بعضويته في التنظيم السري لثورة **1919** مع عبد الرحمن فهمي وإبراهيم عبد الهادي، وكاد ذلك أن يوصله لمنصة الإعدام، لكن خفف الحكم وخرج بعد عدة سنوات ليعود إلى لندن مرة أخرى، حيث أبدى معارضته لمعاهدة عام **1936**.. ألف قرياقص كتاباً بعنوان "مسلمون وأقباط تحت الاحتلال الإنجليزي" رصد فيه متاعب الأقباط في عهد الاحتلال ودور الاحتلال في انقسام المصريين داعياً للوحدة الوطنية بالبلاد.. لكن الموقف الأبرز والذي للأسف نسيه التاريخ كما نسي ذكر صاحبه هو تدخله لدى هيلاسلاسي إمبراطور الحبشة بطلب من وزير الخارجية المصري الدكتور محمد صلاح الدين ووزير الأشغال عثمان باشا محرم حينما هم هيلاسلاسي ببناء خزان على نهر تانا يضر بحقوق مصر المائية في نهر النيل، وكانت تجمعه بقرياقص صداقة متينة، حيث استضافه وقت احتلال إيطاليا لأثيوبيا ومراعاة للصداقة القديمة تراجع هيلاسلاسي مبدياً حسن النوايا وعدم تنفيذ أي مشروعات على النيل إلا بموافقة مصر••

وفي الختام وحتى ندرك عبقرية هذا الرجل وحجم تأثيره شرقاً وغرباً، فأنقل لكم ما قالته عنه جريدة جلوز الروسية "أليس غريباً أنّ قبطياً يفوز بنشر آرائه في أنحاء العالم"، وأنه بعيد النظر في فهم أن "مستقبل بلاده يتوقف على العلاقات السياسية بين دول العالم" في مقارنة بينه وبين الروس الذي لايبذلون مثل هذا الجهد والمال في هذا المسعى وتمضي الجريدة متساءلة: "ألا يحق لنا أن نكون في مستوى واحد مع هذا القبطي المصري في إدراك كيان الأمة وحياتها".

ج. تجارة مع الله

أعترف بأن هذه السيرة رافقت يقظتي وغزت أحلامي لمرات عدة... وكلما تداهمني لحظات من النسيان وسط مشاغل العمل أو البحث في موضوعات أخرى تعود تداعب خلدي مرة أخرى بإصرار، وكأن لسان حالها يقول لي دائماً: تذكرني واكتبني؛ فإذا بي هذه المرة أعقد العزم على العودة لملفاتي القديمة لستِ سنوات مضت لأعثر على صور ألتقطتها داخل مسجد ومدرسة صاحب هذه السيرة العطرة المرحوم عبد العزيز باشا رضوان رجل الأعمال العصامي الذي بنى نفسه من الصفر وصاحب الجهود العظيمة في أوجه الخير فبالإضافة لهذا المسجد والمدرسة والسبيل الملحق بهما بنى **26** منزلاً بكفر النحال لأقاربه بشارع يحمل اسمه..

حتى أنني في الإجازة الأخيرة إلى مصر كنت قد أهديت كتبي لدار الكتب العامة الكائنة بجوار مديرية الزراعة خلف مبنى المحافظة بالزقازيق ودائماً

ما أهتم بمعرفة تاريخ أي منشأة أزورها من باب الفضول التاريخي لأجد أن عبد العزيز رضوان كان من النخب المؤسسة لها في مقرها القديم بجوار كنيسة الشهيد البطل مار جرجس على كورنيش المدينة..

ولنبدأ السيرة من البداية كما رواها صاحبها والذي ولد بالزقازيق لأبوين صالحين رقيقي الحال أخذ عنهما حسن الأخلاق والالتزام بالقيم الدينية وبوفاة أبيه وهو في الثامنة من عمره تكفلت به جدته لوالدته والتي ألحقته بالمدرسة الابتدائية المجانية، ثم بعد ذلك بالأزهر حيث تتلمذ على يد الإمام محمد عبده، لكن بوفاة الجدة بدأ يضيق به الحال فترك الدراسة وبدأ يشق طريقه نحو العمل فالتحق بالعمل لدى تجارة الحاج علي مكاوي، مقابل ثمانين قرشاً راتباً شهرياً وفي عام **1895** حدث تحول كبير في مجرى حياته بتحوله للعمل بالأقطان قبانيا، وجمع بينها وبين تجارة الحبوب في غير موسم الأقطان... وأصبح يتقاضى اثنين جنيهاً شهرياً من الروكية أي رابطة القبانية بحكم حداثة عمره "ربع راجل في عرفهم" فجعل وجهته أن يصبح بمائة رجل وقد كان..

وتنوعت تجارته في غير موسم القطن بين الترمس الناشف والبطيخ يجلبهما من دمياط ويبعهما بالزقازيق والثلج، حيث يشتريه من المصانع ويوزعه على المقاهي بالزقازيق..

كانت تجارته بالقطن بكميات بسيطة يشتريه ويحلجه ويشحنه إلى مينا البصل بالإسكندرية ومن مدخراته البسيطة اشترى بيتاً، لكن سرعان ما مني بخسارة جعلته يبيع البيت سداداً للديون وتولى البيع أمين باشا الشمسي (سنأتي على ذكره)... مصاب فادح لكن لم يفت ذلك في عضده فضمَّ أخاه الحاج إبراهيم لتجارة القطن، ويعلل ذلك بكونه ثاقب النظر حسن التدبير وتوجها معاً للخواجة أربيب صاحب محلج فأقرضهما **400** جنيه فاشتغلا مجدداً وحققا ربحاً **5000** جنيه..

ذكاء الأخوين دفعهما لتغيير وجهة نشاطهما الاقتصادي فارتحلا إلى سواكن بالسودان عام **1907**، وهناك كانا يشتريان القطن ويحلجانه هناك، ثم يصدرانه إلى ليفربول بإنجلترا، أما البذرة فكانت تصدر إلى مدينة (هل) الشهيرة بصناعة الزيوت وفي عام **1909** يموت الشقيق تاركاً ابنه الذي مال للانفصال عن عمه، لكن سرعان ما خسر ماله فعاد إلى عمه الذي أكرمه وأشركه في ماله من تجارةٍ وأراضٍ وعقاراتٍ عن طيب خاطرٍ منه..

ويبدأ عبد العزيز باشا في معترك التمصير وأولى خطوات الرأسمالية الوطنية بشرائه محلج أربيب عام **1915** وأنعم عليه الملك فؤاد بالبكوية عام **1918** كما زاره الملك فؤاد عام **1921** وتفقد مصانعه وزار منزله ووضع حجر الأساس للمسجد والمدرسة، وأوقف عليهما عشرة أفدنة ودكاكين ومنزل

لصيانتهما.. وأقبلت الدنيا على الرجل المثابر المكافح فأصبح عضواً بمجلس الشيوخ عن دائرة هيهيا عام **1924**، ثم عضواً بمجلس النواب عن بندر الزقازيق عام **1938** وأنعم عليه الملك فاروق بالباشوية...

ويلخص الرجل سيرته الطيبة والمراد من كتابتها "وهكذا أراد الله سبحانه وتعالى لمؤسس هذه المدرسة أن يصبح من كبار تجار مصر بعد أن كان عاملاً رقيق الحال"، وفي هذه السيرة حافزاً للشباب على الجهاد في معترك الحياة والثبات في ميدانها واحتمال نوازلها والجلد لكوارثها والأمل في الفوز والنجاح..

ويقدم لنا عبد العزيز باشا دروساً أخرى في النجاح ففي تقرير نشرته مجلة كل شيء والدنيا في **17** أبريل عام **1935** تحت عنوان "كيف نجحت في أعمالي المالية؟ آراء لبعض كبار رجال المال في مصر"، وكان من بينهم فقال: إنّ أكثر ما نفعه لتحقيق النجاح هو "عدم المغامرة فإن السوق غير مأمونة ومن الخطأ أن يغامر التاجر فيها ويلقي بنفسه في البحر دون أن يعلم متى تهب العاصفة وتضطرب الأمواج" إضافة لحسن السلوك وصدق العزيمة وأن الحياة الناجحة هي نتيجة السلوك الشخصي للمرء إذا استثنينا المصادفات التي يضمرها الغيب.

ثمة تاجر آخر من الزقازيق هو خليل عفيفي خليل من المساهمين في إنشاء دار الكتب العامة بالزقازيق ومقبرته تقع بالقرب من مقبرة عبد العزيز

باشا رضوان بالزقازيق وهو من المبادرين لإدخال صناعة الورق بمصر عبر مشروع مفصل تقدم به إلى السلطان حسين كامل، وتحدثت عنه اللطائف المصورة في **12** يونيو **1916**.. بلغ هذا الرجل من المروءة والشهامة مبلغاً لا يضاهيه فيه إلا القليل؛ إذ اضطلع بمهمة نقل جثمان الزعيم محمد فريد من ألمانيا إلى مصر وأنفق على الرحلة كلها من ماله الخاص وبجهوده الشخصية، ويقال: إنه كان يملك محلاً للتجارة بالمنتزة وقد باع عمارته التي عرفت بعمارة حتحوت من أجل هذا الغرض النبيل وتحمل مشاقاً جمّة استغرقت شهوراً على الأراضي الألمانية في سبيل ذلك، منها مظاهرات بالبلاد كما أصيب بالتهاب رئوي حاد وفي النهاية فوجئ أن القانون الألماني لا يسمح بنقل الجثامين المتوفاة على أراضيها لخارج البلاد، وبمعاونة الدكتور عبد العزيز عمران وإسماعيل بيك النقيب أصدقاء الفقيد واستغلالاً لمبدأ المعاملة بالمثل تصادف في نفس الوقت أن سمحت ألمانيا لفرنسا في استعادة جثمان جندي لها مات في الحرب العالمية الأولى، مما سهل من خروج جثمان فريد لمصر.. مصير مؤلم لزعيم قدم حياته وماله فداء الوطن فنسيته الحكومة المصرية، فيما لبى النداء لرد الجميل شهامة تاجر من الزقازيق وقد كرمه الأمير عمر طوسون رئيس لجنة استقبال الجثمان بخاتم خاص...

نأتي إلى أمين باشا الشمسي أحد كبار تجار الأقطان وأصحاب الأملاك بالزقازيق، وقد زرت مقبرته هناك وهي على مقربة أيضاً من مقبرتيّ خليل وعبد العزيز باشا، وتعاني إهمالاً شديداً وقد زرتها مرتين بعمري الأولى في المرحلة الإعدادية، حيث دعاني لزيارتها صديق لي وكان لها قبة زرقاء لمعرفة تاريخها وكنت أجهله أنا أيضاً ومن حينها وتملكني الفضول لمعرفة تاريخ الرجل والثانية بإجازتي الأخيرة، فوجدتها قد ساءت حالتها ونزعت أقفالها وسرق رخامها الإيطالي وحتى اسمه على الضريح أضحى على الأرض تدوسه الأقدام...

تعالوا نسمع حكايته معاً فالرجل ذو الأصول الشركسية لم تمنعه من أن ينضم إلى معسكر العرابيين ضد الخديوي توفيق، بل وأن يغلظ القول للخديوي فانفعل الأخير قائلاً: "أتتكلم معي يا أمين باشا بهذه اللهجة وقد أوصاني والدي بك (يقصد الخديوي إسماعيل) خيراً".. بعد هزيمة المعسكر العرابي دفع أمين باشا الثمن غالياً، فقد جرد من ألقابه ورتبه ونياشينه وأصبح السيد أمين كما حكم عليه بالسجن مع الشغل وقضى العقوبة بالقاهرة كما احتل الإنجليز محلجه خشية أن يكون به مؤن وذخائر..

كانت العلاقة بين أمين باشا وفريد باشا مدير الشرقية (والد الزعيم محمد فريد) ليست على ما يرام فاستغل الفرصة في إهانة أمين باشا وإذلاله فطلب من السلطات نقل أمين باشا إلى سجن الزقازيق وهو ما تم فعلاً ولم

يكتفِ بذلك، بل أمره بالخروج لشوارع الزقازيق لكنسها وهو مكبل بسلاسل الحديد إمعاناً في كسر خاطر الرجل والنيل من كرامته أمام أهله وعشيرته..

كان المشهد قاسياً أمام صديقه الإنجليزي ووكيل أعماله السابق "فرشيني" فعز عليه أن تلحق به هذه الإهانات وكان وقتها قد أصبح قنصلاً إنجليزياً بالزقازيق ومن بعدها بالإسكندرية، فحاول التدخل لدى السلطات للإفراج عن أمين باشا، لكنها تعنتت في أمره فأرسل يدعو أحد كبار المحامين الإنجليز للحضور لمصر للدفاع عن أمين باشا أمام القضاء، وكانت السابقة الأولى التي يُستدعى فيها محامٍ إنجليزي خصيصاً للدفاع عن متهم مصري بحسب كتاب مفاخر الأجيال في سير أعاظم الرجال لواضعه إبراهيم مصطفى الوليلى معاون إدارة بمديرية الغربية سابقاً الطبعة الثانية **1934**..

تحسنت العلاقة بين الخديوي توفيق وأمين باشا الشمسي حيث زاره لاحقاً في داره أثناء جولته بالمديريات. كما تعدلت الحال به، فأصبح عضواً في الجمعية العمومية الثانية **1910-1912**، وصار مقرباً من الزعيم سعد زغلول باشا وهو ما لعب دوراً كبيراً في مسار ابنه على باشا الشمسي بعد ذلك.

وحتى لا نكون مثل الدراما المصرية التي تبرز شخوصها دوماً مثاليين لا تشوبهم شائبة فسأذكر واقعة تحدث عنها سلامة موسى في كتابه (تربية

سلامة موسى) فقد كانت ترتبط عائلته بأواصر مودة مع أمين باشا الشمسي وكانت عزبة جده (كفر سليمان) قريبة من عزبة أمين باشا وقد اشتراها بعد ذلك من الجد.. بحسب رواية سلامة موسى أنه أرسل لأمين باشا من انجلترا خطاباً عام **1908** مع مجموعة من كبار ملاك الأراضي يدعوهم لإنشاء مدرسة لتعليم أبناء الفلاحين الذين يعملون في أرضه وأرضهم لكن الدعوة لم تجد آذاناً صاغية، وهي مسألة تستدعي نظرة أكثر قرباً من نظرة كبار الملاك لتعليم الفلاحين والتي تبدو أنها كانت متفاوتة..

****

المقال الحادي عشر

أدب الرحلة

قديماً كان للرحلة بريقها الساحر ومذاقها المتفرد، فهي طوع يمين مالكها يختار وجهتها ويترك الرحلة ترسم له الطريق.. مناظر ساحرة وأهوال صادمة.. صحارى وجبال وحدائق غناء وبين هذا وذاك.. خفقان قلب هنا وسعادة هناك وتطلع للنفس شوقاً نحو المزيد.. كانت الرحلة طريقاً للمعرفة وجسراً للثقافة، وناقلة للمشاعر المتباينة بين صانع الرحلة ومتابعيها.. وكان التدوين ولغة الأدب هما وسيلة التواصل وترجمان المشاعر ومتنفس القلم وطريق المعرفة.. ولكل صاحب رحلة تجربة تستحق أن تقرأ وإن اتحد المكان واتفق المسير، لكن حتماً تتباين الخطوب وتتفرد الأحداث.. لكن اليوم ومع التقدم التكنولوجي لم تعد الرحلات كما كانت بالماضي فبرنامج الرحلة محدد سلفاً باليوم والساعة والأماكن بواسطة شركات السياحة، ومع وسائل المواصلات السريعة والسهلة أصبح بلوغ المكان في لمح البصر، ومع وسائل التواصل الاجتماعي أصبح التقارب بين ثقافات متعددة أمراً سهلاً ويسيراً. كما حلت الصورة محل القلم، وأصبحت وأنت في بيتك ترى دقائق كل مكان حول العالم بكل اللغات وتحصل على أية معلومة بدقة

دون عناء السفر. وبالتالي تراجع أدب الرحلة في العصر الحديث وقل عشاقه..

لذا فدائماً ما نحنُّ للماضي ولنا العذر في ذلك فالماضي في هذا المبحث هو النبض والحياة الحقيقية..

من كتب الرحلات الطريفة كتاب (منظر أوروبا العجيب وملخص رحلات نجيب) بقلم نجيب حسين الجندي الطبعة الأولى **1911** والغريب أنه قد تلقب في بعض النسخ من نفس الطبعة بخادم الحرمين الشريفين وفي بعض النسخ بدون، وتحت صورته جاءت مقولة: "نحن عثمانيون لا نرضى أن نعيش أذلاء" وتضمّن الكتاب وصفاً لرحلاته إلى الأستانة العلية وبلاد اليونان وإيطاليا وسويسرا وألمانيا وفرنسا وبلجيكا، ومعرضي ميلان وبروكسل وتضمن كتابه خمسين رسماً...

ومن كتب رحلات الحج الممتعة كتاب (الدين والحج على المذاهب الأربعة) عام **1939** وحقوق طبعه وتأليفه محفوظة ومسجلة بالمحكمة المختلطة باسم الحاج عباس كرارة، ويباع الكتاب في مكتبة كرارة بميدان السيدة زينب ومكتبة عبد الله فدا بمكة، ومكتبة محمد ضياء الدين بالمدينة المنورة.. ومما ورد في الكتاب صورة نادرة للسبيل المصري في منى والذي أنشأته وزارة الأوقاف المصرية بأمر الملك فؤاد عام **1922** وتولى تصميمه

حضرة صاحب العزة حامد بيك شاكر مدير الأعمال بوزارة الأشغال، ليشرب منه ركب المحمل المصري وسائر الحجاج الذين ينزلون بالقرب منه. وكذلك يتضمن الكتاب صورة المحجر الصحي بجبل الطور لاستقبال العائدين من الحج ولو ليوم واحد؛ للتبخير والخدمات به مقابل ثمن معتدل.

لا يفوتنا ونحن نتحدث عن المحمل ألا نتحدث عن بطلين من أبطاله ولكن من عالم الحيوان هما الجمل مبروك، والجمل نبيل، واللذان اشترتهما الحكومة المصرية بمبلغ **332** جنيه للاثنين بعد عودة سفر المحمل مرة أخرى عام **1937** بعد انقطاع عشر سنوات.. وجبات البطلين كانت كيلة فول جاف و **14** أوقية من التبن الفاخر، والتريض **3** ساعات يومياً مع رعاية طبية كاملة، والحلاقة لهما **7** مرات سنوياً مقابل **75** قرشاً للمرة الواحدة مع طلاء جسمهما بالمسلى البلدي والحناء ومسحوق الكبريت حتى يظهرا بالمظهر اللائق... ويقبع الهيكل العظمي لمبروك في متحف الصيد بقصر محمد علي بالمنيل.

يتناول كتاب المحمل والحج الجزء الأول تأليف يوسف أحمد مفتش الآثار العربية سابقاً ومدرس الخط الكوفي بكلية الآداب بالجامعة المصرية وبمدرسة تحسين الخطوط الملكية **1937** بعضاً من المعلومات الممتعة عن

المحمل والكسوة في عهد الأسرة العلوية، حيث تكفلت الخزينة المصرية بالنفقات السنوية للحرمين منذ عهد محمد علي باشا، والذي اتخذ من بيت أحد الأمراء المصريين داراً فسيحة بالخرنفش لصناعة الكسوة أطلق عليها بعد ذلك مصلحة الكسوة الشريفة، وكانت الكسوة ترسل باسم الخديوي الجالس بسدة الحكم، ثم توقف المحمل بأمر إنجلترا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى وانضمام تركيا إلى المحور المعسكر المناوئ للإنجليز مع الاكتفاء بتسليم الصرة والكسوة لمرفأ جدة بواسطةِ مأموري المحمل الملكيين وإمامه إلى وكيل أمير مكة.

كان اسم السلطان العثماني يكتب فقط على الحزام، ثم أضيف إلى جانبه مع إعلان السلطنة المصرية تحت الحماية البريطانية عبارة "والآمر بها السلطان الكامل حسين" في إشارة للسلطان حسين كامل، لكن السلطة المحلية في الحجاز نزعتها...

ومع تولي الملك فؤاد الأول وضع اسمه على الكسوة وجاء فيها بخط الشيخ مصطفى الحريري "أمر بصنع هذه الكسوة الشريفة لكعبة بيت الله الحرام صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول ابن إسماعيل باشا ابن الحاج إبراهيم باشا ابن الحاج محمد علي باشا خلد الله ملكه آمين"، ومع توقف المحمل في عهد الملك فؤاد بسبب الاعتداء عليه من جانب بعض الأعراب بسبب استخدامه الموسيقى، ثم عودته مرة أخرى في عهد الملك فاروق كتب

على الكسوة بخط صاحب العزة مصطفى غزلان بيك رئيس قلم التوقيع بديوان جلالة الملك "أمر بصنع هذه الكسوة الشريفة لكعبة بيت الله الحرام جلالة ملك مصر فاروق الأول وأهديت لها في عهد صاحب الجلالة عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية سنة **1355** هجرية".

ومن أمثلة التدابير الحكومية التي كانت تتخذ في مصر في أزمنة الجوائح وقت الحج ما فصلته صحيفة البيان في عددها في أول مارس **1897** من قرار مجلس النظار في **11** يناير من العام نفسه بشأن "عدم الترخيص لسكان القطر في الذهاب إلى مكة إلا إذا أثبت الذي يقصد الحج اقتداره على نفقة السفر ذهاباً وإياباً على مدة **6** أشهر على الأقل (ما أشبه الليلة بالبارحة) ووجوب منع الحجاج من الدخول إلى القطر فيما لو حدث الوباء في مكة والأقطار الحجازية إلا بعد زواله بالكلية وتعيين روجرس باشا والدكتور ملتون مندوبين لفحص أحوال الوباء المتفشي في بمباي وتعيين الدكتور حسن باشا والدكتور ملتون مندوبين في المؤتمر الدولي".

ومن الرحلات الدينية رحلة الشيخ أحمد الشرباصي المدرس بالأزهر الشريف إلى باكستان في مايو **1952** لحضور مؤتمر الشعوب الإسلامية المنعقد في كراتشي "عاصمة الباكستان" ممثلاً عن المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين والذي كان يرأسه اللواء محمد صالح حرب باشا.

أما الرحلات العسكرية والاستكشافية فنذكر منها كتاب البكباشي حسن قنديل عن فتح دارفور سنة **1916** ونبذة من تاريخ سلطانها علي دينار وكتاب أعمال الجيش المصري في السودان لأمير اللواء محمد باشا لبيب الشاهد وأمير آلاي أحمد بيك رفعت، ومذكرات عن زيارةٍ إلى دير طور سيناء وطواف بالسيارات في صحراء شبه جزيرة سيناء في شهر يناير سنة **1926** للواء أحمد شفيق باشا رئيس مصلحة الحدود..

من أشهر الأمراء المهتمين بأدب الرحلة والمتيمين بالصحراء كان الأمير عمر طوسون حفيد الوالي محمد سعيد والي مصر السابق (كلماته تتصدر صفحات الكتاب) وكانت أولى رحلاته إلى وادي النطرون بالفيوم عام **1892** حيث اصطاد عدداً كبيراً من الحلاليف (الخنزير البرّيّ أو خنزير الجبل ندر وجوده بمصر لاحقاً) وتعددت رحلاته إلى الواحات والصحراوات المصرية والليبية والسودان إضافة لرحلته للهند.. وكان يستخدم في البداية في رحلاته الخيل والإبل، ولكن بعد ظهور السيارات بعد الحرب العالمية الأولى بدأ يفضل نوعين من السيارات الملائمة لبيئة الصحراء وهي سيارات فورد وسيارات رينو ذات العجلات الست، وسنأتي على ذكر شكل استخدامات الأمير لها فيما بعد•• وبحسب الأمير في حديث له مع كريم

ثابت نشرته الهلال في **1** مارس **1929** فشتان بين الرحلتين، فالسيارة تقطع في ساعات ما تقطعه الإبل والخيل في أيام..

وتصف لنا مجلة المصور في عددها **219** بتاريخ **21** ديسمبر **1928** رحلته العلمية الطويلة إلى الصحراء الغربية والتي استغرقت أربعة عشر يوماً واجتاز في أثنائها **14** كيلو متراً، تخللها انقطاع عن السير مدة ثلاثة أيام كاملة للراحة..

وفي عام **1935** كانت رحلته العلمية إلى الصحراء وواحة المحرق والواحة الخارجية لدراسة الآثار، وكانت حاشيته في هذه الرحلة مؤلفة من **25** شخصاً تقلهم **8** سيارات كبيرة بينهم ثلاث سيارات من طراز رينو الأولى بمثابة مطبخٍ كبيرٍ لطهي الطعام، والثانية بمثابة غرفة للطعام، والثالثة غرفة نوم لسموه، وقد أخذ معه راديو كبير لسماع الأغاني مع حاشيته وهم في قلب الصحراء! ربما يعتريك العجب من كل هذا العدد.. فليس كله حاشية الأمير وحرسه، ولكن يتضمن عدداً من المرشدين العارفين بمشاعب ومسالك الصحراء، إذ لا تكفي البوصلة والخرائط في رحلات طويلة في عمق الصحراء.

سؤال على الهامش: هل الراديو اللا سلكي كان موجوداً في هذا الزمن وكذلك الإذاعة؟

من خلال بحثي في أرشيف المصور لدي في هذا الأمر، وجدت في عدد العيد في ديسمبر **1938** إعلاناً عن راديو جنرال الكتريك فخر اللا سلكي، والوكلاء الوحيدون شركة بريتس تومسون هوستون بشارع المدابغ رقم **44**..

أما فيما يتعلق بالإذاعة؛ فقد بدأ بث الإذاعة الحكومية المصرية في **31** مايو **1934** بالاتفاق مع شركة ماركوني، ثم مُصِّرَت في عام **1947** وألغي العقد مع شركة ماركوني.

ما يميز رحلات الأمير أنه سلك مع نتائجها مسلكاً مغايراً لباقي أفراد الأسرة العلوية المولعين بالرحلات، فلم يدوّن عن رحلاته إلا القليل مما يوحي أننا أمام رجل عملي يجمع المعلومات المفيدة ويحيلها لجهات الاختصاص كمصلحة المساحة أو المتحف الروماني اليوناني بالإسكندرية من أجل استخدامها بشكل عملي وتطبيقي..

كان للأمير قدرات معرفية واسعة، وسعة اطلاع كبيرة شهد بها معاصروه فنجده يلقي محاضرات علمية جزلة، منها محاضرته عن رحلة الإسكندر في واحة جوتبير ونجده أيضاً يصوب خطأً تاريخياً على لوحة الكنيسة المرقسية، إذ جاء فيها: «إن المرقسية تجدَّدَت في عهد خلافة الأنبا بطرس البطريرك التاسع بعد المائة سنة ١٥٢٠ للشهداء.» فأرسل من فوره إلى صاحب النيافة الأنبا يوساب «قائمقام البطريرك في ذاك الوقت» لتصويب الخطأ وأن الصواب أن سنة ١٥٢٠ للشهداء تقعُ في مدَّة البطريرك الثامن بعد المائة، وهو

الأنبا «مُرقص الثامن»، ولا تقعُ في عهد التَّاسع بعد المائة. وفي رحلته إلى المغراء كانت إشارته إلى ورود ذكرها ووصفها في كتاب ابن دقماق "الانتصار لواسطة عقد الأمصار" وقد بنى الأمير بها بئراً من الإسمنت المسلح على عمق **50** متراً، يخرج منها الماء بطلمبة لتوفير الماء النقي للسكان. كما كان الأمير يبحث عن الحقائق العلمية، وينتصر لها، فحينما اشتدَّ الجدل حولَ وجودِ قبرين بمسجد النبيّ دانيال أحدهما للإسكندر والآخر للنبي دانيال، والناس تأتي للتبرك والتقديس.. سارع لاستجلاء الأمر حيث كشف أنه لا يوجد شيء داخل المسجد..

يعود للأمير الفضل في إدخال الحركة الكشفية في مصر عام **1914** بتشكيله بعض الفرق الكشفية في الإسكندرية، وفي عدة اكتشافات منها تمثال الإسكندر الأكبر من الرخام الأبيض بخليج العقبة، والذي يعرض الآن في المتحف اليوناني الروماني، وكذلك اكتشاف **52** ديراً أثرياً تقع أغلبها على خط رحلة العائلة المقدسة..

واكتشاف آثار المدينة المغمورة في خليج أبي قير عام **1933** وصليب قبطي من البرونز طوله عشرة سنتيمترات أهداه إلى متحف الإسكندرية وبعض الأواني الفخارية وعليها كتابات يونانية، لكنها وبفعل حرارة الجو انطمست وأصبحت لا تقرأ...

نأتي للأمير يوسف كمال (مثل في قصره فيلم رد قلبي) وهو ابن أحمد كمال بن أحمد رفعت بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا الكبير، ومتبني فكرة النحات الفرنسي جيوم لابلان في إنشاء مدرسة للفنون الجميلة عام **1905** تحمل تكاليفها بالكامل، وجعل الالتحاق بها بالمجان ومنها تخرج المثال المشهور محمود مختار كما أنشأ جمعية محبي الفنون الجميلة عام **1924** وشارك في تأسيس الأكاديمية المصرية للفنون بروما، هذا هو المشهور عنه أما المجهول عنه أنه كان رحالةً وجغرافياً مصرياً من الطراز الفريد، وصاحب عملٍ موسوعيٍّ ضخمٍ هو المجموعة الكمالية في جغرافية مصر والقارة الإفريقية، وله رحلة مشهورة إلى القارة الأفريقية على ظهر السفينة نازيرور (على اسم والدته) سجلها في كتاب، وبحسب الطبعة الأولى منه عام **1928** فقد تضمنت الرحلة مستعمرة إريتريا الإيطالية وبلاد الصومال المنقسمة بين فرنسي وبريطاني وإيطالي، ومستعمرة كينيا وميناء مصوع وسواكن والقصير والكونغو البلجيكي وتنجانيقا البريطانية وانجولا البرتغالية وشلالات روديسيا وصحراء كالاهارى..

والأمير كان في صدارة قائمة أثرياء مصر، فقد قدرت ثروته عام **1934** بعشرة ملايين جنيه، وقد أهدى مقتنياته النادرة والهائلة للمتحف الإسلامي ودار الكتب والجامعة المصرية...

ولكن السؤال ما الذي يدفع أميراً بهذه المنزلة لتحمل مشاق رحلات في المجاهل الأفريقية؟! في حوار أدلى به الأمير يوسف كمال لكريم ثابت ونشرته مجلة الهلال في **1** مايو **1929** وكان وقتها ينوي السفر إلى جنوب أفريقيا ورحلة بالسيارات من مدينة رأس الرجاء الصالح إلى مدينة دار السلام للصيد والقنص كعادته كل عام.. (وهي عادة مؤسفة تعتمد على إيذاء الحيوانات المسكينة وزعزعة استقرارها، وكان يحنّط الطيور ورؤوس الوحوش المفترسة التي يصطادها وأهداها إلى متحف فؤاد الزراعي) أبرز في هذا اللقاء السبب في رحلاته وهو أنّ الرحلات والأسفار أكبر مدرسة للإنسان وقد يلاقي فيها من التجارب ويصادف بها من الاختبارات ما لا يتسنّى له تعلمه في صفحات المجلدات.

ومن الرحلات العلمية كان كتاب (سياحة الهند) تأليف أوبير ثرولد وترجمة إبراهيم مصطفى المشهور بالبياع الصغير ومراجعة محمد الفرغلي بن إسماعيل الطهطاوي طبع عام **1849**.

وكتاب (تلخيص الإبريز في تلخيص باريز) والذي وضع فيه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي مشاهداته في رحلته بفرنسا بشكل تفصيلي ودقيق، وكان الطهطاوي قد رافق رحلة البعثة الدراسية المصرية إلى فرنسا بترشيح من الشيخ حسن العطار، فتعلم الفرنسية وقضى في تأليفه خمس سنوات حيث

اشتمل على الأحوال التاريخية والجغرافية والاجتماعية والسياسية في كل من مصر وفرنسا وقتئذ.

ومن العلوم البحتة إلى العلوم التطبيقية ومنها الجودة تخصصي نعرج لهذه الرحلة العلمية أيضاً وقد اخترتُ لها مسمىً خاصاً لغرابة نتائجها وهو: "جودة أمريكية بلمسات مصرية" ونناقش تقرير أصدرته وزارة الصحة العمومية عام **1948** عن النظم المتبعة في المستشفيات بالولايات المتحدة لممثلي الحكومة المصرية لدى المؤتمر الدولي لجمعية المستشفيات الأمريكية عام **1946** والمنعقد في فيلادلفيا من **30** سبتمبر إلى **3** أكتوبر **1946** أعده الدكتور محمد توفيق بيك مدير عام مصلحة المستشفيات الجامعية والدكتور يوسف رأفت مدير عام مصلحة الطب العلاجي، حيث أتيحت لهما زيارة خمس مستشفيات جامعية وعشرة غير جامعية أو ملحقة بالجامعة... بلا شك أنها رحلة مثيرة وثرية مع زيارات لمستشفيات جامعية كجيفرسون وجون هوبكنز وهارفارد وكولومبيا والخروج من التجربة من الناحية النظرية برسوم من الهياكل التنظيمية بالمستشفيات ومقارنات بين المستشفيات الأمريكية ونظيرتها المصرية بالقصر العيني والمستشفيات الجامعية... لكن الاستفادة العملية من التجربة الأمريكية في إدارة المستشفيات أخذت بُعداً أكثر إثارة ومنحى يبدو بعيداً عن فلسفة

إدارة الأزمات إذ وجهت للتصدي لإضراب التمورجية في مستشفيات القصر العيني في أبريل **1948**، حيث تم الاستغناء عن المضربين (مفترض أن يكون هناك استبيان ومؤشرات لرضا العاملين وقياس ودراسة مسبقة لأسباب دوران العمالة بدلاً من التعامل من منظورِ ليِّ الذراع يواجه بقطع الأرزاق) وخفض عدد الأسرة المشغولة لتناسب حجم العمالة بالمستشفى وتم قبول عدد من الطالبات (هنا سعى لإبدال الإناث مكان الذكور وسنعرف لماذا لاحقاً؟) في مدارس مساعدات الممرضات وأعطيت التعليمات بسرعة إعدادهن، كما تم تشغيل الأسرة بشكل تدريجي (طبعاً سرعة في التدريب مع ضيق الوقت يقابلها نقص في الكفاءة والمهارات) وتشغيل غرف العمليات الجراحية جميعاً بالقصر العيني، وبكل غرفة ترابيزتان عمليات بعد أن كان العمل قاصراً على غرفة واحدة للأعمال الضرورية فقط..

ربما تكون حزيناً يا سيدي القارئ على إنهاء خدمات التمورجية ولو مشاعرك جياشة ربما تذرف الدمع الآن، ولكن يا سيدي دائماً الحقيقة في مصر لها أوجه كثيرة ومعقدة ومرتبكة، وقد تجد جميع الأطراف في نزاع على باطل خاصة في الأعمال الحكومية فتجد مثلاً موظفاً طوال الوقت يشكو الظلم الذي يعاني منه من تعسف مديره، وحينما تفحص شكواه تجده دائم التأخير ويغادر قبل انتهاء مواعيد العمل الرسمية والوقت القليل الذي

يقضيه بالعمل يعطل فيه مصالح الناس، بينما مديره انتقائي الهوى هناك من يعاقبه بالخصم عن التأخير وهناك من يغض عنه الطرف..

استمرار الصراع بين الحق والباطل سنة أرضية لا حيود فيها ولا مشكلة في دورانها ما دام الحق حقاً والباطل باطلاً، ولكن تتولد المعضلة الحقيقية حينما يفقد الناس بوصلة التمييز بينهما، وينقلب ميزان المجتمع وتعلو نبرة الباطل ويتزايد متابعوه ويقوى أنصاره..

نعود للتمورجية في ذلك الزمان (والجلي أنهم لم يكونوا ملائكة الرحمة كما حدثتنا أفلام هذه الفترة) والقضية تتلخص كما تحدث عنها الطبيب الإنجليزي آرثر سيسيل ألبورت في كتابه (ساعة عدل واحدة: الكتاب الأسود عن المستشفيات المصرية)، أنه أرسل خطاباً مفتوحاً عام **1942** لمكرم باشا عبيد وكان وقتها وزيراً للمالية حول تردي الأوضاع في مستشفى فؤاد الأول وخطورة ذلك على حياة وصحة الفقراء الذين أصبح شعارهم "من يدخل القصر العيني مفقود ومن يخرج مولود" وأن الأمير محمد علي ولي العهد حينما طولب بالتبرع لها في يوم المستشفيات تبرع ب **200** جنيه بصفته كولي للعهد بينما على المستوى الشخصي أبدى انزعاجه من الحالة المزرية وعدم استحقاقها!

من بين الأسباب التي ساقها ألبورت أن التمورجية الرجال كانوا يبتزون المرضى للحصول على النقود ومن يرفض من المرضى يتعرض للضرب المبرح

والمعاملة السيئة والسرقة، وينقل أحد هذه المشاهد عن إحدى الإنجليزيات في غرفة تطل على قسم الجراحة بالقصر العيني أنها رأت ممرضاً يمسك بمرتبة طفلٍ مصابٍ في ساقه بجرحٍ خطيرٍ ويطرحه أرضاً، فرفعت بأمره لرئيسة الممرضات ومساعد المدير فأكتفي بفصله..

ويستعرض ألبورت نماذج لازالت حية بيننا إلى اليوم في بعض المستشفيات الحكومية مارسها التمورجية من سرقة الأدوية والحقن والأدوات الطبية ورصد حالات يتم فيها إبدال الأنسولين بالماء لمرضى السكر وبيعها على مقاهي بولاق فضلاً عن أرغفة الخبز والمراوح الكهربائية والمقابض والأرقام الفضية على أبواب الأقسام الخارجية..

وضع ألبورت مع الدكتور عزمي باشا الذي رأس كلية الطب وقتها خطة لخمس سنوات لإبدال التمورجية الرجال بطاقم متميز من الممرضات الفتيات لسد حاجة مستشفيات القاهرة والأقاليم. يتولى الإشراف عليهن وتدريبهن بواسطة ممرضات إنجليز وأمريكان على ألّا يتعدى إشراف كل واحدة منهن خمسة وعشرين سريراً..

طبعاً أثار طرح هذه الأفكار التمورجية الرجال فنظموا سلسلة من الإضرابات ومنعوا طاقم التمريض المنتظم من الدخول وحرضوا الممرضات المصريات على التظاهر والتطاول على العميد وتمزيق ردائه، كما تلقى عزمي باشا عدداً من خطابات التهديد، وعينت له حراسة حفاظاً على حياته.

وفي ختام رحلتنا في هذا المبحث ما لنا لا نرى المرأة في عالم الرحلة؟!! هل معقول أن تغيب عن منافسة الرجل في هذا المضمار وقد نافسته في كل شيء.. بالتأكيد حاضرة، وعلينا أن نقرأ كتاب (مصرية في ربوع الشام) للرحالة أماني فريد ووصف لرحلتها في صيف عام **1947** لفلسطين وشرق الأردن وسورية ولبنان..

****

المقال الثاني عشر

آداب الفتى

في عوالم كتب التنمية البشرية، قلّما تجد كتاباً يأسر لبّك ويملك عليك نفسك ويروي عطش فؤادك الحائر، ويملأ عالمك الخاوي فيأخذك لعالمه ولا تبدأه إلا ويواتيك الدافع على مواصلة المضي بين بريق حروفه الساحرة وأنيق أفكاره الساطعة عازماً على الانتهاء منه، لترتشف من حكمته وتشحذ ذهنك بفضائل أفكاره وجميل موضوعاته المطعمة بفصاحة وجزالة ودقة ترتيب... وهذا ما وجدته في كتاب موضوع حلقتنا اليوم...

ولو كنتُ ناشراً لأعدتُ طباعة مثل هذا الكتاب وغيره لأنثر رحيق الأخلاق في مجتمع ضاقت عليه مظلة الفضائل بما رحبت من فرط ما أحاط به من رذائل وعلق به من انهيار وتفكك مجتمعيّ..

من هذه الكتب كتابان الأول آداب الفتى والثاني آداب الفتاة للأستاذ علي فكري بالكتبخانة الخديوية (أصبح أمين أول دار الكتب المصرية) نظراً لضيق المقام فسأكتفي هنا بعرض آداب الفتى والذي كانت الطبعة الثالثة منه **1905** واعتمد هنا على الطبعة السادسة **1924** والمتاحة بين يدي..

يعترف المؤلف في مقدمة الكتاب بما تلاقيه الكتب الأدبية من الإهمال والترك وأنه فوجئ بما لاقاه كتابه من إقبال من أهل العلم والأدب حتى

نفدت طبعاته (طبعاً مقارنة تاريخ الطبعة الثالثة والسادسة والفارق الزمني بينهما عشرين عاماً تقريباً يوحي أنه ربما كان هناك شيء من المبالغة في تقدير هذا الإقبال وإن كان الكتاب بالفعل رائعاً ويستحق).

وفي هذه الطبعة أعلن المؤلف تنازله عن حقوق طبع كتابه لأمين أفندي هندية صاحب مطبعة هندية بالموسكي، وهي من المطابع السورية (هل تتذكر ما ذكرناه في نوستالجيا الواقع والأوهام عن دور المطابع السورية مقارنة بالمصرية؟)

يبدأ الكتاب بقانون الأدب وأن الأدب أو علم تهذيب الأخلاق هو معرفة الخير من الشر وتمييز النافع من الضار وأن أصول الأدب أن يعرف الإنسان الواجبات عليه لبدنه بمراعاة القوانين الصحية ولروحه بتغذية عقله بالمعارف والآداب والواجبات عليه لغيره بأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه وأن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به، والواجبات عليه لربه باتباع أوامره واجتناب نواهيه والواجبات عليه لوطنه بمحبته وخدمته بإخلاص، وإن محبة الملك مولانا الملك الأفخم فؤاد الأول وولي عهده الأمير فاروق ورئيس حكومته سعد زغلول باشا لمن أعظم الدلائل على محبة الوطن فأخلصوا جميعاً في محبتهم (هنا الوطن والملك وجهان لعملة واحدة) ويقول في زهو "وإذا سألك سائل عن الوطن الذي ترجو تقدمه ونفعه وخيره قل دون تردد مصر كنانة الله في أرضه".

ويستعرض الكتاب صوراً وأنواع شتى من الآداب منها الأدب مع الوالدين والعمل بوصاياهما، فقد خبرا الحياة ومارساها أكثر منك وجعلهما خزانة أسرارك فهما "نعم الأمين المكين والصادق الصدوق" ويوصي الفتيان بمساعدة الوالدين والاعتناء بهما في زمن شيخوختهما دون ملل أو ضجر وعند الاختلاف مع الأبوين بعملٍ تراه خطأً، فالمناقشة وإبراز الحقيقة هما السبيل دون جرح لإحساسهما أو تكدير لخاطرهما.. وينتقل للأدب مع الإخوة وضرورة أن يكون الأخُ عضداً ونصيراً لإخوته يساعدهم دون انتظارِ سؤالٍ منهم، ويحافظ على أسرارهم وأنّ الأخ الأكبر في منزلة الأب التعامل معه بمعروف وإحسان والملاطفة وعدم الإيذاء للإخوة الأصغر سناً..

من النقاط الهامة التي أبرزها المؤلف في هذا الموضع مشكلة الزمن الماضي وكل زمن وهي الصراع على الميراث بين الإخوة والأقارب وهنا يوصي محذراً من مخاطر ذلك على البناء الأسري والروابط المجتمعية قائلاً: "لا تكن يا بني من الأشقياء الذين بمجرد وفاة والديهم يقعون مع إخوتهم وأهليهم في مشاحنات ومنافسات طمعاً في ميراث أو ثروة ويسيئون أنفسهم ويهينون اسم أبيهم ويحطون من شرف أسرتهم؛ فتسوء حالهم وتضمحل رابطتهم، بل كن دائماً معهم على وفاقٍ واتحادٍ وائتلافٍ حفظاً لشرف أسرتك وحبّاً في الأمن والاطمئنان".

شاهدت أثناء عملي بإحدى المستشفيات رجلاً توفي والابن لا يريد استلام الجثمان خشية أن يقوم عمه بتبصيم الأب المتوفي على أوراق للتنازل عن ثروته لصالح العم ولصالح ابنة المتوفي وحرمان الابن من الميراث ووسط وابل من الشتائم المتبادلة وتدخل الشرطة تم استلام الجثمان لدفنه، لكن نظرة واحدة للابن الذي يظهر عليه أمارات التعاطي والإدمان كافية للحكم المبدئي أن الابن تنقصه التربية والله أعلى وأعلم. لذلك فأنا أعتبر الكتاب رائعاً حينما اعتبر أن إنفاق الأب على أولاده على قدر استطاعته من أجل تربيتهم التربية الحسنة، فهي خير ميراث يتركه ورأس مال لا يفنى والإنسان في حياته ذكرى بعد مماته...

ننتقل إلى موضوع الأدب مع الأقارب، فيكون بمساعدة ذوي القربى فهو واجب ديني والمبادرة بزيارة من يمرض منهم ومشاركتهم أفراحهم وأحزانهم والأدب مع الجار باحترامه وزيارة مريضه ومواساته في سرائه وضرائه وغض البصر عن محارمه...

ويعرف المؤلف الأدب في المنزل بحسن المعاملة مع أهل بيتك والخدم والتلطف عند الطلب بقول من فضلك أو اصنع معروفاً أو أرجوك وعدم إفشاء أسرار أحد من الأسرة والحذر من الخدم من إطلاعهم على حالك وثروتك، فهم مفاتيح أسرار المنازل ينقلون ما يسمعون (جرائم كثيرة ترتكب بسبب ذلك) وفي هذا الموضع يعطي نصيحة هي بمثابة الكنز

لقارئه وهي حمد الله وشكره بعد كل استيقاظ والوضوء والصلاة قبل الخروج للمدرسة وتقبيل يد الوالدين وسؤالهما الرضا والدعاء.
من كنوز هذا الكتاب في رأيي تعريفه لمصادر الثروة وهي من خمسة أشياء: النشاط مع الإقدام (السعي) وعدم التردد فيما تطلب ومعرفة ما تريد بلا إبهام (تحديد الهدف) والاقتصاد، فلا تزيد نفقتك على دخلك فلا تستدن إلا لعذرٍ شرعيّ ولا تدن أحداً إلا إذا تأكدت أنه صادق الوعد وما يطلبه لقضاء حاجة أو تفريج كربة وليس بقصد إنفاقه في بحبوحته ومسرته (مهم جدّاً) وآخر شيء قلة الطمع والربح القليل بالوسائل الأكيدة خير من الربح الكثير مع التعرض للخطر والفشل (مفهومي للحرص دائماً) ومن كنوز الكتاب أيضاً حديثه عن ممارسة الكتابة، فهي من أكثر الصنائع إفادة للعقل وأن عقل الإنسان الواحد لا يقدر على استنباط العلوم الكثيرة، فإذا استنبط مقداراً من العلم أثبته بالكتابة، ثم يأتي إنسان آخر ليضيف باستنباطه لما استنبطه الأول وهكذا فبالإجمال العلوم، إنما كثرت بإعانة الكتابة.. وهو يشرح في نظم بديع أهمية التدوين والكتابة فالبيان بيانان بيان اللسان وبيان البنان، ومن فضل بيان البنان أنّ ما تثبته الأقلام باقٍ على الدوام أما بيان اللسان فتضيعه الساعات والأيام.
ومن الكنوز أيضاً ما جاء في وصيته في آداب الدين: "لا تطلب من الله ما تحب أن تخفيه عن الناس ولا من الناس ما تحب أن تخفيه عن الله"

يفرد الكتاب مساحة كبيرة لآداب الشكل الخارجي والنظافة والمظهر العام للشخص وهي أمور للأسف نفتقدها اليوم ومنها آداب الأنف وضرورة تجنب لمس الأنف أو وضع الأنامل فيها واستخدام منديل عند التمخط ووقت العطاس، يجب لفت الوجه عن المقابلين ووضع منديل على الوجه فذلك "أليق وأظرف". وعن آداب السمع فتكون بسماع كلام الله عزّ وجلّ وأحاديث نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم وكلام الوالدين وعدم استرقاق السمع ونظافة الأُذن بعدم سماع القبيح، وإن صدرت نميمة من شخص أكبر سناً؛ فالأولى هو التزام الصمت وإن كان بعمر مماثل فتوجيه النصح له بالبعد عن مذمة الناس وإن كان أصغر سناً؛ فالزجر مع إفهامه مضار فعله كما ينبه الكاتب في هذا الموضع على أنّ الانقطاع للموسيقى (يقصد إدمانها) شغل للبال وإضاعة للوقت وصرف للقوة وتشتيت للفكر وتهييج للإحساس...

ننطلق مع الكتاب إلى آداب أخرى ومنها آداب الفم حيث بشاشة الوجه وعدم الإفراط في الضحك والمزاح، وعدم التكرع أمام الحضور، وعدم التثاؤب بدون وضع اليد على الفم، وتجنب البصق على الأرض والجدران وعدم التدخين. نأتي لآداب الأيدي والمصافحة باليد اليمنى وعدم أخذ شيء لا حق لك فيه لأنه سرقة (ما أحوجنا اليوم لهذا الدرس) ومن الكمال وحسن الأدب تجنب اللعب بالأيدي وفرقعة الأصابع أو تشبيكها وتقليم الأظافر أمام الناس.

ومن آداب الرأس حفظ الرأس مستقيمة وعدم الهرش ومراعاة لبس الطربوش كمظهر للاحترام وعدم كشف الرأس أمام الحضور وإن دعاك الحر، لذلك فلا بأس شريطة أن يكون ذلك على انفراد (لقد أدركت قيمة غطاء الرأس حينما أصبت بالحزاز فهو له فائدة في إخفاء عيوب الرأس).

أما آداب المجالسة فعدم الجلوس بالطرقات ولا تضع قدماً على آخر أو الجلوس على الكرسي باعوجاج.. وفي هذا الموضع يضع نصيحة رائعة " ضع نفسك في موضع احترام واعتبار، واعلم أن المرء حيث وضع نفسه فإن وضعها في موضع جد وإكرام كان معظماً مكرماً، وإن وضعها في موضع هزل كان مهزأ وفي المثل: المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت "

ومع آداب المشي نمضي مع الكتاب وضرورة التزام الكمال في المشي باعتدال وبقامة مرفوعة وفي الحركات.. وعدم المشي وسط الطريق وتصويب النظر دائماً إلى الأمام ومساعدة الضعيف والعاجز والبعد عن المشاجرات دفعاً للضرر.

نأتي لآداب اللبس وضرورة انتخاب الملابس المتينة اللائقة والمحتشمة والأقل زخرفة وأطول عمراً حتى ينظر إليك بعين الاعتبار والاحترام محذراً من التقليد الأعمى في الملبس والزي والشكل "كي لا تكون كالغراب الذي لم تعجبه مشيته فأراد محاكاة بعض الطيور" فخسر مشيته الأصلية ولم يوفق في المشية التي أرادها..

نأتي لآداب المحادثة وضرورة التحلي بالصدق والمناقشة بلطف واختصار ووضوح والاعتراف بالخطأ، وأن يكون الكلام عن علم والسكوت عن حلم وإذا تبين لك خطأ أحد في حديثه فإرشاده للحقيقة يكون بألطف إشارة وأرق عبارة وأن الجدال يؤدي للشحناء والبغضاء وأن فصاحة اللسان والبلاغة في القول لا يكفيان لنيل المقاصد إذا لم يقترنا بالذوق السليم والطبع اللطيف.

ومن النصائح العامة بالكتاب الدقة في ابتداء العمل للنجاح فيه، فبدايتك نهايتك وضرورة ترتيب الوقت والصبر والجلد وألا يكون القصد حب الظهور (نادراً ما تجد عاملاً يعمل دون ظهور أو رغبة في الظهور) وعدم التسويف وعدم الشروع في جملة أعمال في آنٍ واحدٍ وضرورة السعي في تحسين الحالة المادية والأدبية بأشرف الوجوه فلا يرضى بحاله إلا قليل الحيلة قليل العقل.

ولأنهم يسمونني ملك الحرص؛ فـأتوقف في الكتاب عند مفهوم الحرص في الأعمال لا من منطلق الخشية من الوقوع في الخطأ فمن "لا يريد أن يخطئ لا يمكنه القيام بأي عمل" والمراد أن تعمل وتخطئ ولا تخشَ الخطأ، لكن كن حريصاً في إتقان عملك وبلوغه أقصى درجات الامتياز (الجودة)...

ويتناول الكتاب عدة قضايا مهمة تتعلق بالمرأة وحقوق الزوجة على زوجها في العناية بها ومساعدتها واحترامها وصيانتها ومعاملتها بالمعروف ومقابلتها بالبشر وطلاقة الوجه، ولا يكلفها فوق طاقتها. كما يناقش

فكرة السعادة وأنها في الهناء بين الزوج وزوجته وليس في تزيين المنزل كما يلفت النظر إلى قضية اجتماعية لازالت إلى اليوم وهي عزوف الشباب عن الفتيات الفقيرات والبحث عن ذوات الثراء، وهي مسألة لا يحلها كتاب بل الحل في كل زمان ومكان هو اتباع الهدي النبويّ: "فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ؛ تَرِبَتْ يَدَاكَ" كما علمنا المصطفى صلى الله عليه وسلم... فضلاً عن الإشارة إلى ضرورة المساواة بين الأبناء في العطية لتعليمهم العدل والإنصاف..

لكن وحتى تكتمل أركان هذه المسألة، فهل كانت مشكلة السعي نحو الزواج بأثرياء وثريات مطروقة بهذا الزخم في هذا الزمن البعيد أو ما نسميه في عصرنا بالتريند..؟! في مقالٍ طريفٍ وموقع بالحروف الأولى للآنسة الجريئة (م.ر) من الجيزة ونشرته جريدة الصباح في عددها **442** بتاريخ **15** مارس **1935** فقد شنت الكاتبة حرباً ضروساً ضد منتقدي زواج المصلحة وأنه لا زواج لفقير أو فقيرة داعية أن يقنع كلاهما بحياة العازب والعانس فما كان الزواج وهو كبرى متع الحياة للفقراء والفقيرات! وأن حصاد مثل هذه الزيجات هو الفقر والعوز والندم للطرفين والذرية الناتجة عن هذه الزيجات.. طبعاً تفكير قاصر لم يراعِ مفهوميّ الرزق والسعي في مناكب الحياة قال تعالى: (وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) النور/**32**.

كتاب شيق ونبيل المقاصد وموسوعي المحتوى استعرضت ما استطعت في هذا المقام الضيق تقديمه، ولكنه يحتاج دراسات أشمل وأوسع وسير على الخطى من القائمين على التربية والتعليم في بلادنا إن أردنا جيلاً يعرف حقوقه ويعي واجباته...

****

المقال الثالث عشر

الثورة المثمرة

مطالب فئوية اكتست بثياب الثورة فصارت شعبية وسادتها الأهواء فأضحت هوجة وتمخضت عن صراع أورث احتلالاً... هذه هي الثورة العرابية باختصار...

تبدأ الحكاية من تمرد مجموعة من الضباط المصريين على التفرقة بينهم وبين الشراكسة في المميزات خاصة المزايا الوظيفية والمالية يقودهم أحمد عرابي باشا، فوقعوا عريضة بالمطالبة بعزل وزير الجهادية الشركسي عثمان رفقي باشا إلى رياض باشا رئيس الوزراء وهو ما جوبه بالشدة العسكرية المعهودة حيث تم القبض على عرابي ورفاقه الأميرالاي علي فهمي وعبد العال حلمي واحتجازهم بثكنات قصر النيل لمحاكمتهم عسكرياً ليتمكن البكباشي محمد عبيد من اقتحام القاعة وتحريرهم وفرار عثمان باشا من النافذة وإصابة أفلوطين باشا وكيل الوزارة. وهنا تبدأ الأحداث تتسارع فيتحرك عرابي في مظاهرة استعراضية بقواته لقصر عابدين للضغط في تنفيذ مطلبه فتم عزل عثمان رفقي وتعيين محمود سامي البارودي محله والعفو عن الضباط الثلاثة..

فرحة الزعماء من الضباط بهذا المكسب وخشيتهم على حياتهم وهو أمر طبيعي كدأب البشر جعلهم يتوسعون بمطالبهم لتأخذ حساً شعبياً يغلف حركتهم بسياج منيع يحافظ على حياتهم من ناحية وعلى مكاسبهم من ناحية أخرى، فكانت مظاهرة عرابي الثانية في **9** سبتمبر **1881** غير المبررة. حيث احتشدت ساحة عابدين بالجنود والمتفرجين على هذا الحدث التاريخي الفريد من الشرفات خاصة من النساء فتقدم عرابي راكباً جواده شاهراً سيفه، ومن خلفه بعض الضباط، وفي مواجهته نزل الخديوي من قصره لا يهاب الخطر...

كان بصحبة الخديوي أحد عساكره الخصوصيين ضخم الجثة يدعى حسن صادق؛ فصاح في عرابي أن يغمد سيفه في حضرة الخديوي، فامتثل على الفور، ثم وبحسب مذكرات أحمد شفيق باشا المعاصر للحدث، فقد خاطب الخديوي عرابي بقوله: "ما هي أسباب حضورك بالجيش إلى هنا؟" فرد عرابي: "جئنا يا مولاي لنعرض على سموك طلبات الجيش والأمة"، فقال الخديوي: "وما هي؟" فقال: "إسقاط النظارة (الوزارة) المستبدة، وتشكيل مجلس نواب، وتنفيذ القوانين العسكرية التي أمرتم بها"، فقال الخديوي: "كان في إمكانك تقديمها للحكومة".

كان بصحبة الخديوي في هذا المشهد الصعب السير أوكلاند كلفن المراقب والمستر كوكسن قنصل إنجلترا في الإسكندرية فأشار كلفن على الخديوي

باللغة الإنجليزية بالعودة إلى قصره وراح يدير بنفسه دفة التفاوض مع عرابي حتى وصلا لطريق مسدود، فكانت نصيحةُ القنصلَين للخديوي بقبول المطالب إذ ليس باليد حيلة..

لكن سليم خليل النقاش المؤرخ والأديب والشاعر اللبناني والمعاصر لهذا الحدث وسجله في كتابه مصر للمصريين أو حوادث الفتنة العرابية فقد أذاع الحوار بين الطرفين بشكل مختلف بعض الشيء حيث يقول:

" أمر الخديوي بإحضار عرابي فحضر راكباً جواده سالاً سيفه، ومن حوله ضباط السواري للمحافظة عليه، فأمره بإغماد سيفه والنزول إلى الأرض، وإبعاد الضباط عنه ففعل، ثم خاطبه بقوله: ألم أكن سيدك ومولاك؟ رد عرابي: أجل.. قال الخديوي: ألست أنا الذي رقيتك إلى رتبة الأميرالاي؟ رد عرابي: نعم ولكن من بعد ترقية نحو الأربعمائة.. سأل الخديوي: وما هي أسباب حضورك بالجيش إلى هنا؟ أجاب عرابي: لنقدم طلبات عادلة.. سأل الخديوي: وما هي هذه الطلبات؟ أجاب عرابي: إسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب، وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الإسلام.. قال الخديوي: كل هذه الطلبات ليست من خصائص العسكرية."

هذه هي نفس الرواية التي أوردها الإمام محمد عبده وكذلك اليوزباشي محمد أفندي البارودي أحد ضباط البوليس المصري في كتابه (تاريخ

العائلة الخديوية وتفاصيل الثورة العرابية طبعة **1897**) مع إسهاب أكثر فيما دار بين عرابي وقنصل إنجلترا وأهمية هذا الحوار في فهم خطورة حصر القوة بين يدي شخص لا يملك الحنكة السياسية الكافية التي تؤهله للتمييز بين ما يمكن كسبه بالتفاوض وما لا سبيل لكسبه سوى بالقوة كخيار أخير مع القدرة على تقدير التبعات وقراءة فارق القدرة، وهو ما كان ينقص عرابي فأوقع بلاده فيما لا يحمد عقباه حينما حول قوته إلى تحدٍ غير مسؤول.

نقل قنصل إنجلترا لعرابي نيابة عن الخديوي: "أن إسقاط الوزارة من خصائص الخديوي وطلب تشكيل مجلس النواب من متعلقات الأمة ولا وجه لزيادة الجيش بما أن البلاد في أمان وهدوء فضلاً عن مالية البلاد لا تساعد على ذلك (لاحظ أن ذلك في بؤرة الأزمة المالية المتفاقمة في البلاد) أما التصديق على القانون فينفذ بعد اطلاع الوزارة عليه أما عزل شيخ الإسلام فلابد من إسناده إلى أسباب" رد عرابي: " اعلم يا سيادة القنصل أن طلباتي المتعلقة بالأهالي لم أقدم عليها، إلا لأنهم أنابوني في تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر لأنهم إخوانهم وأولادهم، واعلم أننا لا نتنازل عن هذه الطلبات ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ."

رد قنصل إنجلترا: «إذا تريد تنفيذ اقتراحاتك بالقوة الأمر الذي يخشى منه ضياع بلادكم»، فرد عرابي: «ذلك لا يكون ومن الذي ينازعنا في إصلاح

داخليتنا فاعلم أننا نقاومه أشد المقاومة إلى أن نفنى عن آخرنا»، فقال القنصل: «وأين هذه القوة التي ستقاوم بها؟». رد عرابي في ثقة: «في وسعي أن أجمع في وقت قليل مليونا من العساكر طوع إرادتي (كارثة الكوارث). فقال له القنصل: «وماذا تفعل إذا لم تنل ما طلبت؟!» قال له عرابي: أقول كلمة ثانية لا أقولها إلا عند القنوط (طبعاً المقصود التلويح بالتغيير بالقوة). وبعد ثلاث ساعات من المداولات نزل الخديوي على مطالب عرابي وتم تشكيل وزارة برئاسة شريف باشا...

لكن الكواليس التي دارت خلف الأروقة يكشفها ألفريد جاشلوا بتلر في كتابه (الحياة في البلاط الملكي المصري) من أن النصيحة البريطانية للخديوي كانت في البداية هي قتل المتمردين رمياً بالرصاص، ثم الاستماع بعد ذلك للمطالب مع عودة الأمور لنصابها بالجيش كما يكشف حديث بتلر مع الخديوي عقب الوقفة الأولى لعرابي أن الخديوي اضطر للعفو عن المتمردين الثلاثة وقبول عزل وزير الحربية نزولاً على إجماع مجلس نظارهِ على ذلك العفو وأنه كاد أن يقيل هذا المجلس بالكامل لكنه خشي من ردود الفعل الأوروبية أن تتهمه بافتعال هذه الأحداث للخلاص من رياض باشا على غرار ما فعله والده إسماعيل باشا، حينما دبر المظاهرات العسكرية المطالبة بمستحقاتها المالية لإقالة وزارة نوبار وأن القنصل الألماني أوضح بصريح العبارة رفضه لهذه الخطوة فتراجع الخديوي ...

هذا الحوار بين بتلر والخديوي يكشف عن ثلاثة أمور هامة في رأيي الأول هو السبب في استدعاء الخديوي لقناصل الدول ليكونوا على مقربة منه في مظاهرة عرابي الثانية ليكونوا شهوداً على ما يحدث وأنه ليس مفتعلاً والأمر الثاني هو غياب الإرادة السياسية بالكلية في دولة أصبحت مثقلة بالديون وأصبح الحل والعقد فيها بموافقة قناصل الدول الأوروبية الدائنة وهي مسألة المسؤول عنها الخديوي إسماعيل المسرف في الاستدانة وليس توفيق الذي عليه دفع أقساط الدين..

والأمر الثالث أن متزعمي الصفوف من الضباط لم يكونوا على قلب واحد من حيث الصمود ذلك أن الخديوي حكى لبتلر أنه بعد العفو عن الضباط الثلاثة استقبل علي فهمي فانكب يقبل حذاءَه عدة مرات!!!

حينما كتب عرابي مذكراته والتي حملت عنوان "كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية" قيل هم بكتابتها عام **1904** لكن لم يتمكن من ذلك إلا عام **1907** بسبب عزوف محاميه الإنجليزي برودلي عن إمداده بالوثائق التي تعينه مما جعله يعتمد على ذاكرته وعلى كتاب سليم النقاش الذي تحدثنا عنه آنفاً، فاختلق رواية عن الحوار الذي دار بينه وبين الخديوي على النحو الذي لازال يدرس في المدارس وروج له بشدة في عهد الرئيس عبد الناصر لتأثره الشديد به.

جاء كلام الخديوي بحسب مذكرات عرابي: "كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا". فرد عليه عرابي قائلاً: "لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثاً أو عقاراً فوالله الذي لا إله إلا هو لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم"

والعبارة الخاصة بعرابي لا تخلو من تأثر واستلهام من حديث سيدنا عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً" في واقعة ضرب القبطي وهو ما يجعلها منطقياً مقحمةً وليست وليدة لحظتها ولو قيلت فرضاً لتلقفتها الصحافة وهو مالم يحدث والدليل وقد اخترت ألا يكون مصرياً لضمان الشفافية، فمثلاً صحيفة لسان الحال اللبنانية حينما نشرت الخبر في **15** سبتمبر **1881** كان الخبر صغيراً لا يعدو محتواه سوى أن "مسيو كلفن والقناصل أخذوا في المخابرة مع الضباط غير المرتضين وأن مسيو ككسون الذي تصرف كونه قنصل إنجلترا الجنرال (العام) حمل المرسوم العالي الموقع من الخديوي المتضمن قبول مطالب العساكر وتسمية شريف باشا رئيساً للنظار وتهللت فرق العساكر داعية بحفظ الجناب العالي ورجعت إلى مراكزها والموسيقى تعزف أمامها"

السؤال لماذا سمحت الدولة المصرية في أزمنة دون أخرى بالترويج للحادثة كما قصها عرابي في مذكراته؟

في عصر توفيق لم تكن مذكرات عرابي قد كتبت وكان الحوار بين الطرفين على النحو الذي أوردناه في البداية وكان مسموحاً بالنيل من عرابي وإسماعيل باشا وتشويهما..

في عصر الخديوي عباس حلمي الثاني بحكم كون توفيق والده، فقد كانت رواية خيانة عرابي وعصيانه هي المهيمنة ويمكن أن نراها في كتاب مذكراتي في نصف قرن لأحمد شفيق باشا واستمر نهج تشويه الخديوي إسماعيل وتسببه في الأزمة المالية.

أما في عهد الأشقاء حسين كامل (الأم نور فلك هانم) وفؤاد (الأم فريال) ابني الخديوي إسماعيل، فقد كان النسب بين السلطان حسين كامل والخديوي المعزول عباس حلمي الثاني بن توفيق حائلاً بينه وبين ترك العنان للنيل من أخيه توفيق بينما الملك فؤاد لم يكن لديه هذه المشكلة في السماح بالنيل من توفيق (ابن الجارية شفق نور مستولدة الخديوي تفاصيل أكثر بكتاب حواديت المحروسة) بينما جمع عهدهما السعي للإشادة بوالدهما الخديوي إسماعيل باعتباره مؤسس مصر الحديثة.. فنجد مثلاً الملك فؤاد يسند للمؤرخين الأجانب مثل الإيطالي أنجلو ساماركو والفرنسي جورج دوان وبيير كرابيتيس تحسين صورة والده إسماعيل باشا والتي التصقت بالأذهان في العهود السابقة عليه بالتسبب في دمار مصر وخرابها!

فيما نجده يغض الطرف عن نشر مجلة الهلال في عددها بتاريخ **1** مارس **1928**- وهي المجلة التي لم يُعرَفْ عنها نهجٌ معارضٌ طوال مشوارها - مقالاً لعبد العزيز عرابي يشتمل على الحوار الذي اختلقه عرابي سالف الذكر تحت عنوان "صفحة لم تنشر من مذكرات عرابي. يوم عابدين **9** سبتمبر **1881**.. تفاصيل وثيقة عن المقابلة بين الخديوي توفيق وزعيم الثورة!"

أما فاروق فقد شهد عصره عزوفاً عن الاهتمام بمثل هذه القضايا فلم يُلبِ نداء عبد العزيز عرابي وتوسلاته على صحيفة البلاغ بالإفراج عن تركة أبيه ربما خشية من تنامي شعبية حكومة الوفد في ذلك الوقت عام **1944**.. ومما جاء في الخطاب "أسرة عرابي تلجأ إلى أعتاب المليك المفدى.. وهي إذ ترفع بصرها إلى مقامك السامي لتعلم يقين العلم أن الفاروق المحبوب أحنى على رعاياه من أن يشقوا وأن الرحمة إذا وجدت في هذه الدنيا الفانية فهي رحمة الفاروق وبر الفاروق وعطف الفاروق وأن عقوبة ستين عاماً أو يزيد تبرر التماس العفو والغفران"

وفي نفس الوقت غضت دولته الطرف عن كتاب (أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه) لمحمود الخفيف وذلك لأن توقيت صدوره كان عام **1947** فيما صادرت الحكومة كتاب (الزعيم الثائر أحمد عرابي) لعبد الرحمن

الرافعي لأنه جاء في وقت شديد الحساسية بعد هزيمة **1948** واضطرابات داخل الجيش مع أن محتوى الكتابين يخرجان من مشكاة واحدة. فيما صدر في عهده كتاب إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية لجورج جندي بك رئيس المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك وجاك تاجر أمين المكتبة الخاصة لجلالة الملك مع مقدمة لحضرة صاحب السعادة يوسف جلاد باشا مدير الإدارة الأفرنجية لديوان جلالة الملك **1947**.

لكن الواضح أن الانقسام حول شخص الخديوي توفيق الضعيف وإظهار العداء له في أوساط أسرته لم يكن وليد التغيرات السياسية اللاحقة عليه فقط، بل كان أيضاً بحكم اللحظات الأخيرة قبل حسم الصراع مع عرابي وبعده خاصة بين أوساط سيدات الأسرة العلوية فجميعهن باستثناء أم الخديوي وقفن ضده وتعاطفن مع عرابي فقدمت أم الخديوي إسماعيل الوالدة باشا (هوشيار قادين) وابنتها الأميرة جميلة دعماً من الخيول للجيش علاوة على تشكيل اتحادات لإغاثة الجرحى وتوفير الضمادات في كفر الدوار.. بل وصل الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك بأن عرضت الأميرة إنجي أرملة الوالي سعيد باشا الزواج على عرابي باعتباره منقذ مصر**!**

نأتي لسؤال هام: ما سبب احتلال الإنجليز مصر؟

هذا السؤال كانت له إجابة نموذجية بكتاب وزارة المعارف العمومية (دروس التاريخ للمدارس الابتدائية وهي مجموع كتابين الأول إتحاف أبناء

العصر بذكر قدماء ملوك مصر والثاني البهجة في تاريخ مصر والأمة العربية تأليف حضرة السيد أفندي عزمي أحد مدرسي مدرسة الناصرية سابقاً **1916**م (أي فترة حكم السلطان حسين كامل) وننقل السؤال والجواب حرفياً من الكتاب:

س-ما سبب احتلال الإنجليز مصر؟

ج-(بحسب الكتاب) سبب ذلك تظاهر أحمد عرابي باشا ناظر الجهادية بالعصيان بعد ما انحاز إليه القسم الأكبر من قواد الجيش فهددته دولتا انكلترا وفرنسا وأمرتاه أن يكف عمّا هو عازم عليه فلم يسمع وأظهر استعداده لمقاومتهما فأرسلتا أسطوليهما إلى ثغر الإسكندرية وهددتاه بالضرب، فأخذ يحصن القلاع ويتجهز للدفاع فحينئذ هاج رعاع الناس ضد الإفرنج في مدينة الإسكندرية (كان السبب خلاف على أجرة حمار بين مالطي سكير وسائق مصري على ثمن الأجرة وعلى إثرها طعن المالطي السائق بسكين) سنة **1882** واقتتلوا وقتل من الطرفين خلق وتعاظم الأمر وكثر الخوف عند الأجانب الأوروبيّين وأخذوا يهاجرون من الديار المصرية إلى أوطانهم ولمّا لم يرتدع عرابي باشا ولم يزل مصمماً على الدفاع أطلق الأسطول الإنجليزي قنابله على قلاع الإسكندرية فهدمها وامتنع عن الضرب الأسطول الفرنسي، وحينئذ هرب عرابي ومن معه بعد أن أحرقوا قسماً كبيراً من المدينة وتحصنوا في كفر الدوار بمدينة البحيرة فأنزل

الإنجليز قسماً كبيراً من الجنود استلموا المدينة وحضر في الإسكندرية والسويس من العساكر الإنجليزية نحو ثلاثين ألفاً تحت قيادة الجنرال (ولسلي) وحين رأى هذا القائد أن مهاجمة المصريين من جهة كفر الدوار خطرة جدّاً نقل قواته العسكرية إلى الإسماعيلية وحصلت بينه وبين المصريين واقعة عظيمة في التل الكبير آل أمرها إلى انهزام الجيش المصري ودخل الجيش الإنجليزي مدينة القاهرة في شهر شوال (سنة **1299**هجرية) الموافق لشهر سبتمبر سنة **1882** م واستلموا القلعة وقبض على عرابي وجماعته وحكموا عليهم بما يستحقون واستمر الجيش الإنجليزي بمصر إلى الآن"

بالطبع عوامل أخرى أدت لهذا المصير، كلها تدور حول عرابي الذي افتقد الخبرة السياسية والحنكة، ولو استعان بأحدٍ من معاصريه من السياسيين البارزين كشريف باشا لإدارة الأزمة (السؤال نفسه ماذا لو أشرك عبد الناصر علي باشا ماهر في التفاوض مع إيدن في أزمة السويس **1956**؟) لكان أفضل وأقل ضرراً، ولكنه غرق في خلافات معه ومع غيره بسبب انفراده بالأمر فـأغرق نفسه وأغرق من معه حتى أن الإمام محمد عبده والذي شاركه الثورة قال عنه: "أما عرابي فلم يكن يخطر في باله ولا يهتف به في منامه أن يطلب إصلاح حكومة أو تغيير رئيسها، وإنما الذي أحاط بفكره هو الخوف على مركزه.. ولم يكن له هم سوى التغلب على ما كان بيد

الجراكسة من الوظائف العسكرية للتمتع بما يتمتعون به من رواتب ونفوذ، لأنه هو وإخوانه أبناء البلاد أحق من غيرهم بمزاياها الخاصة."

وبدلاً من أن يواجه عرابي نفسه بأخطائه في مذكراته فقد تنصل من أي مسؤولية وأثخن ظهور الجميع بسياط الخيانة فحمد سلطان باشا خائن وقد تناولنا هذه المسألة في كتاب على هامش التاريخ والأدب بشيء من التفصيل والرد عليها.. والتهمة ذاتها نال ديلسبس نصيبه منها مع أن موقفه ليس به أدنى خيانة، بل موقف سياسي عمل فيه لصالح بلاده فرنسا في بقاء قناة السويس على الحياد وعدم ردمها كما أراد عرابي... وكذلك البارون صمويل سيليج كوسيل مراقب عام الجمارك والذي اعترف في مذكراته بأنه عرقل حصول عرابي على طرد محتوى على طوربيدات بحرية أمريكية الصنع أوصى بها الجنرال ستون باشا المستشار الأمريكي بالجيش المصري وقتها تنفجر تحت الماء وكان من الممكن أن تغير موازين المعركة لصالح المصريين كما منع عرابي من الاستيلاء على أموال الجمارك لدعم معركته فنال تكريم الخديوي والإنجليز.. طبعاً السياسة خداع ومكر ودهاء ولا نلوم من عملوا لمصالح بلادهم إنما نلوم أبناء جلدتنا ممن كانوا دون مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقهم والتي سعوا لها بأنفسهم ولم يطلبها منهم أحد..

وحتى نعرف حجم هذه المعركة وأهميتها لإنجلترا فقد كرمت الملكة فيكتوريا جنودها العائدين من مصر في **21** نوفمبر عام **1882** بساحة قلعة وندسور وفي طليعتهم ابنها الأمير آرثر الضابط بالجيش كما جرى استعراض للقوات قبلها بثلاثة أيام في ساحة قصر سان جيمس..

أما ما أعتبره عاراً في جبين الصحافة الوطنية ما نشرته الأهرام في عددها **1446** في **15** سبتمبر **1882** من بشرى عظيمة "بشراك يا مصر بشراك فقد نلت المنى ودخلت العساكر الإنجليزية باسم الحضرة الخديوية عاصمة بلادك فاحتلتها وقبضت على عرابي وطلبه وإخوانهما واستلمت القلعة وقصر النيل وسواهما من المراكز العسكرية وتسنى لسمو خديوك المعظم أن يتم فيك مقاصده النبيلة الآيلة إلى نجاحك وترقيك وانفتحت لأبنائك أبواب العصر الجديد فادخلوها بسلام آمنين.. وارتع أيها الأمير في بحبوحة النصر والظفر واهنأ فإنّ لك من المهيمن عضداً وعوناً ومصر تناديك أنت روح البلاد فيك حياتها أطال الله بقاء سموك وحفظ أنجالك الكرام"

مع القبض على زعماء الثورة العرابية تعمد الخديوي توفيق عبر رجله إبراهيم آغا إهانتهم والحط من كرامتهم ومن قدرهم ولم يكن هذا أبداً من شيم الرجال فقد اشتكى عرابي من تعرضه لخلع حذائه والشتم بالكلب والخنزير والبصق عليه ثلاث مرات من إبراهيم آغا والذي استشعر أنه جاء لقتله مستجيراً في رسالته لمحاميه بشرف الدولة الإنجليزية! أما عبد

العزيز حلمي فقد تعرض للصفع والسب والإمام محمد عبده فقد تعرض للسب ومصادرة ثلاث مجلدات مجلدين من العقد الفريد والمجلد الأول من تاريخ ما توسط من القرون وهو كتاب مترجم بعد تفتيش غرفته تفتيشاً دقيقاً (استعمل لفظ أودتي في خطاب شكواه) وحينما جاءه أحد رجال الدولة الإنجليزية للاطلاع على حاله طلب منه مصحفاً فلبى طلبه واعتبر ذلك كأنه خروج من الحبس!

انتهت رحلة زعماء الثورة بتخفيف الحكم عليهم من الإعدام إلى النفي إلى جزيرة سيلان حيث لم يكن من سياسات الإنجليز خلق الأبطال عبر إعدامهم ليبقوا في الوجدان الشعبي مجاهدين وملهمين...

ولأن المصائب لا تأتي فرادى فقد تزامن مع الثورة العرابية واضطراب الأحوال بمصر اضطراباً آخر في السودان حيث تزعم السيد محمد أحمد المهدي ما عرف بالثورة المهدية ضد الحكم المصري التركي وادعى أنه مهدي آخر الزمان رافضاً احتكار الدولة للعاج وسياسة منع تجارة الرقيق وحققت الثورة بعض النجاحات بسقوط الخرطوم وقتل الحاكم الإنجليزي تشارلز جورج غوردون والذي كان يريده المهدي حياً ليبادله بعرابي.. وانتهت الأحداث بوقوع السودان في النهاية في قبضة الاحتلال البريطاني مع شراكة مصرية شكلية...

بالتالي تحقق لمصر أعظم إنجازين من ثورة عرابي وكفى بهما إنجازاً وهما إدخال زراعة المانجو بمصر عبر إرسالها كهدية لصديقه أحمد باشا المنشاوي أحد أعيان الغربية وكذلك شجرة الشاي علاوة على ضياع السودان فيما أدخل لجزيرة سيلان الكنافة وكعك العيد!!

وبعد ثورة **1952** رفع عبد العزيز عرابي تهانيه وتهاني الأسرة العرابية إلى المنقذ الأكبر وقائدها الأوحد اللواء محمد نجيب بك وهؤلاء المغاوير من أعوانه وبحسب البيان كما نشرته صحيفة المصري في **28** يوليو **1952** " سلام على نجيب في عليائه وسلام على كل صنديد من رجاله البواسل وسقى الله جدث والدي في مصر وأجداث أعوانه في سرنديب شآبيب الرحمة وأساكيب السماء " وكان قرار الثورة برد تركة عرابي الضخمة لأسرته...

****

القسم الثاني

أغرب القضايا..رحلة عبر الزمان

على أبواب مصر يكتب التاريخ وتتربع على أعمدته رواياته وأحداثه وشجونه فيما يرحل المنطق في كثير من الخطوب والأحداث فأبحر معي واتبعني في صمت ولا تسألني لمَ ولماذا؟
في كتابي (نستولجيا الواقع والأوهام) تناولت طائفة من قضايا الماضي وفي هذا المبحث نستمر في نفس هذا المسعى ولكن مع بعض التوغل في القدم.

1-قضايا السب والقذف

في صحيفة النيل العدد **24** في **25** يونيو **1921** (مؤسسها فرج سليمان فؤاد) نجد احتفاء الصحيفة ببراءة فخري بك عبد النور كبير أعيان مديرية جرجا من تهمة السب العلني بحق الشيخ محمد عبد العزيز سلطان المشهور ببرعي عمدة بندر الشرقية مركز جرجا، وكانت مشادة قد وقعت بينهما أمام فندق شبارد وجاء الحكم بالبراءة بعد مخالفة الشهود الذين استشهد بهم المدعي علاوة على مرافعة حضرة الأفوكاتو سامي نجيب بيك، والتي أدهشت الحضور (زمن المرافعات البليغة) وقد وهبه الله علم موفور ونجاح قضاياه على الدوام.. والطريف في الخبر أيضاً أخطاء النشر ففي صفحة **8** كان المدعي هو الشيخ "محمد عبد العزيز" ليصبح في صفحة **9** مع بقية الخبر "محمود عبد العزيز" وكذلك المحامي "بيك" في صفحة **8** وفي

تكملة الخبر صفحة **9** أصبح "أفندي" وما أكثر هذه النوعية من الأخطاء وغيرها في صحافة زمان..

2-قضايا التفكك الأسري

تحت عنوان "الدنيا المصورة تجمع شمل ابن مفقود على أمه الوالهة ففي عدد المجلة الصادر في **31** يوليو **1930** وفي بابها "برلمان الجمهور" تحدثت عن نجاحها في لم شمل محمد توفيق حسين التركي بوالدته القاطنة بسوريا وتتلخص القصة في أن والد محمد كان قائداً في الدولة التركية وتوفي في الحرب العالمية الأولى، تاركاً محمداً مع أمه بعمر العام أو العامين ليرحل بصحبة أمه إلى حيفا، حيث تتزوج الأم من صاحب أملاك يسمى **(**محمد الغزاوي)... قسوة زوج الأم وطريقته المهينة دفعت محمداً للفرار إلى يافا وعمره ثمانية أعوام حيث بدأ رحلته في العمل لدى طرابيشي وعلى القهوة يجمعه القدر بعازف كمان من طنطا فاتفق معه على أن يصحبه إلى مصر ولكن الطنطاوي على الموعد المتفق أخلف وعده وسافر دونه..

لم يفت ذلك في عضد محمد والذي سافر إلى طنطا للحاق به وليس لديه سوى مدخرات بسيطة وهناك سأل عن منزله فإما أنه ارتحل إلى بلدة أخرى كما أخبره الجيران أو أنكر نفسه منه والله أعلم..

ساقت محمداً أقدامه إلى القاهرة وتحديداً لشارع محمد علي فعمل بمطعم، ثم سمكري في أحد المحال بمصر الجديدة..

سرعان ما ضاق محمدٌ بحاله فذهب إلى إسماعيل بيك شيرين وكيل محافظة مصر وقصّ عليه قصته فرق لحاله وألحقه بمنزله، لكن شقاوة محمد دفعت البيك لإلحاقه بلمجأ للأيتام مكث به ثلاثة أيام، ثم تركه ليعمل بجراج أحد البكوات في بولاق... في أيام الملجأ المعدودة كان محمد على موعد مع محطة فارقة بحياته حيث كان يرسل مع زملائه إلى معهد الموسيقى الشرقي (لاحظ مستوى التأهيل الراقي في هذه الأزمنة) وبعد خروجه من الملجأ استمر في المواظبة على الذهاب للمعهد حيث تكفل به مصطفى بيك رضا ويعقوب بك عبد الوهاب وتعهداه بالرعاية والانفاق وخصصت له غرفة بالمعهد.
بعد نشر المجلة للقصة تعرف جار والدة محمد عليه ويدعى عبد العزيز نور وأبرق للمجلة في **10** يوليو **1930** من مكتب البرق في حيفا يعلنهم برغبة الأم في سفر ابنها إليها وتطوعه لتحمل نفقات السفر من جيبه الخاص...
انتهت القصة التي حاولنا نقلها بشكل لا يخل بمضمونها لأنها تنقل صورة حية من حجم المروءة والشهامة قلما نجده اليوم..

3-انتشار المخدرات :
كانت الصحافة في الماضي وبحق سلطة رابعة؛ فهي تمارس صلاحياتها بقوة وحرية تبحث وتدقق وتشير لمواضع الوهن داخل المجتمع، ومنها استفحال المخدرات والتقاعس الحكومي عن فرض النظام في الشارع المصري ففي صحيفة النديم الروائي (صاحب امتيازه إسحق صروف النديم) العدد **12**

في **5** يونيو **1923** وفي حديث الأسبوع وتحت عنوان "أين الحكومة" يتساءل أستاذ محمد عبد المنعم عن ثلاث غرز للحشيش في ضاحية العباسية بناحية المحمدي يتعاطى فيها "ذئاب البشر" هذه المادة علناً على مرأى من الناس ومن رجال البوليس معلنين عن حالهم بالطبل البلدي والمزمار فأين الحكومة؟!!

ولأن لا شيء يتغير بمصر فالوضع ذاته رصدته مجلة الكشكول في **22** أغسطس **1930** ولكن هذه المرة مع أنواع أخطر من المخدرات، فكتبت تحت عنوان "السم الأبيض مرض اجتماعي عز دواؤه" أن مرض شم الكوكايين والهيروين تفشى بين طبقات مختلفة وأحياء شتى مثل الزهار والترعة البولاقية وباب البحر وسوق السلاح والتبانة وباب الوزير والباطنية وغيرها وأن البيع للمتعاطين على مرأى ومسمع من البوليس ويقول في ذلك: "وجندي البوليس يشهد هذا المنظر ويراه، ولكنه يخشى أن يقوم بأداء واجبه وهو فرد وهم عصابات فهو يقضي ساعات الدورية متفرجاً على الشمامين"

وقد حدث أن هاجم بوليس ملكي تاجر مخدرات وضبطه فتكاثر عليه أعوان التاجر وضربوه حتى قتلوه.

ونقلاً عن الأهرام تكشف المجلة عن المسؤول عن نقل هذه السموم لمصر وهو مصري مقيم بالنمسا يدعى (حسين النعناعي) وكان يخلطها بدقيق قمح

وسكر مطحون.. وتمارس المجلة دورها في تنبيه الدولة ممثلة في مكتب المخدرات في حكمدارية العاصمة للبحث عن شركائه ومطاردة الباعة وإنشاء دار فسيحة لجيش البؤساء والمنكوبين بهذا الداء لإعادة هؤلاء الموتى للحياة.

لاحظ هذه الصور الحزينة المتلاحقة بين أمس لا يضع المهمشين في حساباته يقف منهم موضع المتفرج وخطواته للحل بطيئة ومتراخية فهو غارق حتى أذنيه في صراعاته الحزبية وحاضر يكيل فيه المجتمع بمكيالين فيصب جام انتقامه على الموظف متعاطي المخدرات ويفصله فيما يعتبر مطربة إن أدمنت ثروة لمصر لابد من حمايتها والحفاظ عليها!!!

4-القضايا الأخلاقية:

في نوستالجيا الواقع والأوهام طرحنا سؤالاً: ما السبب في انهيار الأخلاق وانتشار العنف داخل المجتمع المصري ونقلنا وجهة نظر الصحافة وقتها في أن السبب هو مشاهد العنف بأفلام السينما..

في هذا المبحث سنرد على السؤال بشكل أعمق وأكثر غوصاً في حقائق التاريخ وإجابتنا بسيطة من جملة واحدة: ابحث عن المماليك..

إنها الحقبة المظلمة من تاريخ مصر والعالم الإسلامي والتي امتدت لقرون تغيرت فيها ملامح المجتمع المصري وتفككت عراه وسادته الهمجية والابتذال.. أتعلم يا سيدي أن أغلب السباب بالأعضاء الجنسية مجردة أو

مضافة للأم أو الأخت، وكذلك مسميات العلاقة الحميمية بألفاظها الشعبية المنتشرة بكل مكان عربي بشكل موحد جميعاً شاعت بعهود المماليك..

لذلك لا تتوقع أن تبرأ جراح هذه الفترة ورواسبها النفسية في نفوس المصريين بين يوم وليلة..

دائماً واجعلها قاعدة على مسؤوليتي: إذا أردت أن تبحث عن أصل قضية أخلاقية مروعة فابحث في تاريخ المماليك، ستجد أصلها وفصلها والمروع منها والذي يتخطى المعقول والمنطق معاً..

فمثلاً قضية ريا وسكينة الشهيرة وفكرة استدراج النساء وقتلهن وسلب متاعهن هي فكرة مملوكية بلا منازع..

ولم يشهد العصر المملوكي حادثة واحدة فقط بل العشرات منها، ومنها:

-في أيام المنصور قلاوون وتحديد في أول محرم عام **739** هجرية قبض والي القاهرة الأمير علم الدين سنجر الخياط على امرأة عرفت بالخناقة تستقطب النساء الباحثات عن المتعة الحرام، ثم تخنقهن بقصد السرقة (تعرضت لها بالتفصيل في كتاب حكايات من بحور التاريخ).

-وفي عهد قايتباي وتحديداً في **27** جمادي الآخرة عام **876** هجرية حدث أنّ شخصاً حلبياً أعزب غريباً سكن قاعة مظلمة بالقرب من دار شيخ الإسلام ابن حجر بحارة بهاء الدين قراقوش استمال امرأةً عاهرةً وعجوزاً

قوادةً وأوسعهما شراباً حتى الثمالة، ثم مارس معهما الفاحشة وخنقهما وسلب ما عليهما من أقمشة مزركشة وحرير وأساور من ذهب وتركهما عاريتين، ولما فاحت رائحة الجثتين تم القبض على صاحب العقار مكان الجريمة والذي دفع مالاً للوالي ليطلقه فضلاً عن هروب الجاني!!

-وفي أيام الناصر محمد بن قلاوون قبض على امرأة بأرض الطبالة كانت عند طائفة من البزادرية (نسبة لطائر الباز المستخدم في الصيد) كانت تفعل نفس الفعلة.

الأنكت من كل ما سبق هو أن أحد المساجد المندثرة أقيم مكان بيت إحدى الخناقات بباب الشعرية وتدعى غازية الخناقة وعرف المسجد الذي لم يكن ليصلي به أحد باسمها وخلاصة قصتها والتي حدثت في زمن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري أن امرأة جميلة تدعى غازية ووصيفتها عجوز قوادة، وكان إذا أراد أحد الرجال مراودتها عن نفسها أسرت إليه قوادتها العجوز أنها لا تذهب إلى أحد ومن أرادها يأتي لبيتها فإذا ما وصل الضحية رجلاً كان أو امرأة خرج إليه رجال ليقتلوه ويأخذوا ما معه (نفس طريقة ريا وسكينة حيث كان دور المرأتين استدراج النساء فيما كان يتولى زوجاهما عبد العال وحسب الله قتل الضحية).

وكان القبض عليهم بالمصادفة ففي إحدى المرات استدرجت العجوز ماشطة مشهورة بالقاهرة بحجة فرح مقام ببيتها وابتلعت الماشطة الطعم وأتت مزينة بالحلي وبرفقتها جاريتها... دخلت الماشطة البيت لتلقى حتفها فيما

انصرفت الجارية وعادت بعد وقت لتسأل عن مولاتها؛ فأنكر من في البيت قدومها فساورت الشكوك الجارية ومضت إلى الوالي والذي هاجم الدار ووجد داخلها حفائر ممتلئة بالقتلى وجاءت الاعترافات مفجعة وأنهم إذا قتلوا أحداً ألقوا به في القمين (فرن) حتى تحترق عظامه.

ومن ريا وسكينة الصور المملوكية نستمر في نفس الزمان، ولكن مع قضايا الخيانة الزوجية ومن أطرفها خيانة الأميرة خديجة ابنة الأمير سيف الدين اقطوه لزوجها الأمير الناصري محمد ابن السلطان الظاهر جقمق مع الأمير سيف الدين برسباي بن عبد الله البجاسي والذي ادعى أنه عمها، ولكن تسمى باسم غير اسم أخيه لكونه من فرقة غير فرقته وانطلت الخدعة على الجميع حتى حين، وأتاحت للعاشقين التواجد بأريحية وسط خدم قصر الزوج دون شكوك مستغلين غياب الزوج الأمير الناصري والذي كان كثير الاعتكاف في بيته أو في مغارات جبل المقطم فضلاً عن عدم تخلفه عن إقامة الشعائر بين الناس.. لكن سرعان ما نما الأمر بين العوام وتناقلته المجالس "ومازال الرب يلقي بستره والعبد يفحش بفعله إلى أن جاء كشف المستور" فطلقها الأمير الناصري محمد ومات بعدها بفترة وجيزة وبعد انقضاء عدة خديجة أمر والد الأمير الراحل السلطان جقمق الأمير برسباي أن يتزوجها ويعلق ابن تغري بردي على هذا الزواج قائلاً: "فسبحان الله كان أولاً عمها، ثم صار زوجها فسبحان محلل الحلال ومحرم الحرام"

الطريف أن برسباي البجاسي كان الزوج الثالث للأميرة العثمانية شاه زادة (تعني بنت السلطان) الفارة من نظام قتل الأبناء بالدولة العثمانية (نوقشت في كتاب تأملات بين العلم والدين والحضارة الجزء الثاني) بعد زوجيها السلطانين المملوكيين برسباي وجقمق.

5-حوادث القتل:

حفل القرن الماضي في مصر بحوادث الاغتيال السياسي التي كانت تستهدف شخصيات حزبية وسياسية بالأساس لكن نادراً ما تستهدف شخصيات دينية، لذلك تعد محاولة الاعتداء وتشويه وجه الشيخ محمد مصطفى المراغي في **28** يناير **1925** وكان يشغل وقتها رئيس المحكمة العليا الشرعية في القضاء المصري من الحوادث الاستثنائية في التاريخ المصري المعاصر. بحسب مجلة اللطائف المصورة في **9** فبراير **1925** فقد تربص بالشيخ أحد الأشقياء المتشردين ويدعى موسى مراد (إِسرائيلي) مستقلاً دراجة وذلك عند خروجه من منزله بشارع منصور باشا بحلوان وألقى على وجهه ماء النار فأصابه في ذراعه وعضده وحول رقبته وفي وجهه لكن ملابس الشيخ الثقيلة حالت دون استفحال الإصابات، ثم لاذ بالفرار على الرغم من محاولة محمود بيك عزمي مأمور الضبط ملاحقته، وكان سائراً أمام الشيخ وقد تولى إسعاف الشيخ الدكتور مصطفى صفوت بيك بصيدلية حلوان حيث لم يجد لاستغاثاته مجيباً غيرها (لاحظ قيمة الصيدليات زمان

ودورها.. لو حدث هذا اليوم لحوكم الصيدلي) وقبض على الجاني بعد أيام وأقر بجنايته...

كما أُتهِمَ في الاعتداء أيضاً كلٌ من عبد العزيز حسن ممدوح ومحمد الشوربجي بتحريض من هنري سكاكيني والذي حاول منع الشيخ من حضور جلسة الحكم في قضية تخص نزاع على تركة والده حبيب باشا سكاكيني خشية أن يأتي الحكم في غير صالحه كما تضمنت القضية أيضاً اتهاماً بالنصب طال حمد الباسل باشا بالنصب على الورثة والسعي لدى الشيخ للحكم في القضية على وعد تعيينه شيخاً للأزهر وهو ما نفاه الشيخ وذلك بحسب مجلة الحقوق في **1** تشرين الثاني **1925**.

فما هي الحكاية؟

المسألة باختصار أن حبيب السكاكيني صاحب القصر والميدان الشهير بالقاهرة كان لبنانيَّ المولد وقيل سورياً وحضر إلى مصر في سن مبكرة للعمل في بورسعيد بشركة قناة السويس نظير راتب زهيد أربعة جنيهات شهرياً..

جاء صعوده السريع إلى عالم الثراء ملفتاً وفي هذه المسألة روايات شتى ومنها تجارته للسلاح ومنها جاء اسمه وقيل لاقترابه من الخديوي إسماعيل عبر حيلة ساذجة استعملها في القضاء على الفئران في منطقة القناة والتي كانت مصدراً للطاعون عبر جلب حشود من القطط الجائعة مما قربه من الخديوي فأوكل إليه استكمال بناء الأوبرا وقيل إنّ اعتلال

صحته ونصيحة أطبائه له بالبحث عن مكان جاف بعيداً عن الرطوبة جعله ينتقل من بورسعيد إلى القاهرة وكان هذا فألَ سعادته إذ اختار أن يقيم في مناطق لم يكن الامتداد العمراني قد وصلها في هذه الأزمنة المبكرة ومن غرفة خشبية بناها صارت عمارة ومع تجارة العقارات أصبح يمتلك المنطقة بأكملها كما قام بردم البرك والمستنقعات بمنطقة بركة قراجا التركماني أو الشيخ قمر مقابل الحصول على الأرض بسعر منخفض أتاح له بناء قصره الفخم على الطراز الإيطالي كما خط ورصف ثمانية شوارع رئيسة بالمنطقة لكن حدث نزاع بينه وبين مصلحة التنظيم انتهت بالتصالح مقابل تنازله عن الشوارع الثمانية للمنفعة العامة وحصوله على تعويض **1200** جنيه.. فلك أن تتخيل حجم الثروة الطائلة التي هبطت عليه من كل حدب وصوب... لذلك لا تستغرب الصراع على الإرث كما سنرى فيما بعد.

عرف عن حبيب حرصه الشديد لكن هذا لم يمنعه من أعمال البر للطائفة الكاثوليكية في مصر ومنها بناء ملجأ للأيتام وشراء قصر "لينو دي بيفور" لجمعية الروم الكاثوليك والذي تحول إلى بطريركية الروم الكاثوليك أو كنيسة القيامة الموجودة إلى الآن بشارع الفجالة ـ كما شيّد مقبرة الروم الكاثوليك في منطقة مصر القديمة بالقاهرة.

ومنحته الحكومة الفرنسية لقب الكونت كما حصل على الباشوية.

لم يرزق حبيب بأبناء من زوجته ماريتا كساب لذلك فقد تبنى وزوجته في **2** يونيو **1900**م طفلاً بالغاً من العمر أحد عشر عاماً، أسماه هنري بموجب عقد رسمي وأقام حفلة دينية ومحضر توقيع..

بوفاة ماريتا كساب زوجة السكاكيني بدأ ما يعرف بقضية هنري سكاكيني..

ففي فبراير **1909** وفي حياة حبيب سكاكيني رفعت فريدة كساب (أرملة المرحوم فتح الله بيك نحاس) وشقيقها جورج بيك كساب قضية ضد هنري سكاكيني وحبيب سكاكيني باشا للمطالبة بميراثهما الشرعي من شقيقتهما المتوفاة وبالطبع كان الحائل دون الميراث عقدَ تبني هنري لذلك احتكم المدعون من الورثة إلى الشريعة الإسلامية كمرجع في الأحوال الشخصية وأن التبني لا يمنع الورثة الطبيعين من الميراث داعين للحكم بعدم صحة التبني واعتباره دينياً محضاً فيما جاء دفاع الكونت سكاكيني أن الشريعة الإسلامية لا يجب أن تتناول الطوائف غير المسلمة في أحوالها الشخصية مستشهداً بالقانون الروماني وبعض الآراء الكنسية عن حق الشخص فاقد النسل في تبني ولدٍ وإشراكه في جميع حقوق الأولاد الطبيعيين..

جاء حكم مجلس بطريكخانة الروم الكاثوليك بمصر مخيباً لآمال هنري وحبيب إذ قضت بعدم صحة التبني لافتقاده بعض الشروط..

بوفاة الأب عام **1923** دخل هنري من جديد في معركة النسب لذلك كان أكثر عنفاً في إثبات نسبه بأي شكل أو وسيلة.

دائماً ما تشغل الرأي العام تلك الحوادث التي تتعلق بمقتل الأجانب في مصر إذ دائماً ما تصاحبها ضغوط ودعاية غربية صاخبة للقصاص ومن هذه الحوادث حادثة وقعت مع بداية حكومة إسماعيل باشا صدقي وكان يشغل منصبيّ رئيس الوزراء ووزير الداخلية وهي حادثة مقتل الميس إيلين سميث فتاة إنجليزية كانت على موتوسيكل بصحبة خطيبها الكونستابل رونالد ليلى برصاص في الظهر وذلك في **27** يونيو **1930** وهما على مقربة من مسجد الغوري على طريق المطرية.. رافقت هذه الحادثة شائعات عدة منها أن الخطيب قتل خطيبته أو أحد أعدائه حاول قتله وأصابها بالخطأ أو أن أحد عشاق الفتاة ممن رفضتهم هو القاتل.. مع ضغوط والد الفتاة عبر الصحافة الإنجليزية وتوجيهه خطاباً شديداً لرئيس الوزراء باللغة الإنجليزية متهماً إياه بالتباطؤ في القصاص لابنته فكانت المسارعة للقبض على عدد من الأهالي هم زيدان زايد وعبد العزيز مدكور وإسماعيل عبد العال وسيد صبرة وانتزاع الاعترافات منهم تحت وطأة الوعيد والحيلة بحسب مجلة الدنيا المصورة في **18** فبراير **1931**..

نأتي للحوادث العادية ومنها القتل من أجل السرقة ومثال لذلك ما جاء في العدد **222** من مجلة المصور في **11** يناير **1929** حيث قام أربعة من

الصعايدة العاطلين باستدراجِ شخصٍ يدعى الشيخ عبد اللطيف مبروك لمنزل أحدهم بحوش التكية طمعاً في سرقة عشرين جنيهاً مصرياً كانت في جيبه، حيث قدموا له القهوة ودسوا فيها مخدراً، ثم انقضّوا عليه وقتلوه خنقاً وألقوا بجثته ثم تفاجؤوا أن بحوزته **215** قرش فقط...

ومنها أيضاً عدة حوادث نسوقها من تقرير وزارة الداخلية عن حالة الأمن العام بالمملكة المصرية سنتي **1941** و**1942** كمقتل الخواجة اليوناني (بتروكافكالا) وزوجته (بنيولوبي) المسنين خنقاً بروض الفرج في **7-10-1941** بواسطة حلاق كان يتردد عليهما وسرقة **95** قرشاً فقط، حيث تعرف الكلب البوليسي على الخرقة التي استعملها القاتل وكذلك مقتل هيلين روك الفرنسية صاحبة بنسيون فرانكو بلج بشارع المدابغ خنقاً بواسطة خادمتها سميحة محمد الغندور وعشيقها رمضان محمد الجداوي لسرقتها في **30-3-1941** كما شهدت نفس السنة في **22** مارس العثور على جثة امرأة تدعى سالمة سلامة سالم بيكابورت المنزل رقم **12** بدرب الجنينة بجهة الناصرية هربت من قبيلتها الحويطات لتلقى حتفها على يد بائع خبز يدعى محمد السيد محمد طمعاً في مصوغاتها وأسنانها الذهبية..

ومن حوادث القتل بسبب الميراث ما طالعتنا به "المصور" في عددها **131** بتاريخ **15** إبريل **1927** حول القبض على السيد شرف الدين بمركز زفتى حيث قتل أخاه وزوجته وابنه وبنته حقداً في **15** يناير من نفس العام بعد أن حرمه أبوه من الميراث وأحرق الجثث بالنيران لإخفاء معالم جريمته..

ومن القضايا الأخرى قضية مقتل السيدة أمينة حسن بضربة على الرأس والخنق في عيادة فؤاد حلمي تقاوي طبيب الأسنان بباب الشعرية، ثم لف الجثة بالخيش وشحنها في صندوق بالسكة الحديدية إلى بني سويف وكانت القتيلة قد تبنت طفلاً وعزمت أن تهبه كل ثروتها وقبض على الطبيب والتمرجي محمد نبيه مرتكبي الجريمة وذلك بحسب مجلة المصور في عددها **42** بتاريخ **31** يوليو **1925**..

ومن حوادث القتل بدافع الغيرة والانتقام لرفض الزواج ما جاء بصحيفة المصري في **28** يونيو **1953** عن العثور على سيدة قتيلة بعيار ناري في دارها ببلدة نجع مازن بمركز البلينا وبسؤال النيابة لابنة القتيلة اتضح أنّ رجلاً من بلدة الساحل بحري يدعى مصطفى عبد الحافظ تقدم لها مراراً ورفضته الأم، فحقد عليها واستغل خلو الدار وأطلق عليها بضع رصاصات أودت بحياتها وفر هارباً في جنح الظلام.

وعلى نفس المنوال كانت قضية انتحار المخرج الفلسطيني الأصل (إبراهيم لاما) بعد أن أطلق الرصاص على زوجته الأمريكية إيزابيلا جورج التي انفصلت عنه وظل يلاحقها بدافع الغيرة في منزلهما بشارع الملكة بحسب الخبر من صحيفة الأهرام في في **16** مايو **1953**.

ومن مصر نعرج في رحلتنا إلى تونس كمحطة استثنائية؟! والسبب حبيبة (أو مارغريت) مسيكة التي غنت مارش الملك فؤاد (تحدثنا عنه في كتاب حواديت المحروسة) وغنت أيضاً (على سرير النوم دلعني) ومن الأغنية الأخيرة نستطيع معرفة مستوى أغانيها الخليعة، وقد قيل إنّ سبب اختيارها لغناء مارش الملك فؤاد هو هيامه بها وبصوتها!

ماذا حدث لحبيبة لتنتقل بين ليلة وضحاها من صفحة الغناء إلى صفحات الحوادث؟

في **20** فبراير **1930** نشرت الصحف مقتل حبيبة مسيكة التونسية وذات الأصول اليهودية بطريقة مفجعة ومأساوية، حيث انتقم منها صديقها تاجر المجوهرات اليهودي التونسي (إلياهو ميموني) بحرقها بالنار داخل غرفة نومها وذلك بعدما صارحته بعدم حبها له ورغبتها في قطع علاقتها به برغم ما قدمه لها من عطايا كقصرٍ بناه لها في منطقة تيستور (حولته الدولة لدار ثقافة) وما أنفقه في سبيل شهرتها..

أتذكرك هذه الحادثة يا عزيزي القارئ برجل أعمال أنفق ببذخ على مطربة شهيرة طمعاً في حبها، ففرت منه لدولة عربية أخرى فأرسل من يقتلها انتقاماً.. وهل تذكرك أيضاً بقتل شبان لزميلاتهم بالجامعة لرفضهن الارتباط بهم؟

إنه طبع حواء المتقلب ورغبة الرجل في الاستحواذ طوعاً وكرهاً وصراع أزلي مصبوغ بالدماء لا يتوقف ولن يتوقف وللأسف الشديد..

ومن القتل العمد إلى حوادث القتل الخطأ ومنها مقتل النبيلة الإنجليزية المصرية ماري أو ملك (اسمها بعد إسلامها) هارنجتون زوجة الأمير عباس حليم نجل الأمير إبراهيم حليم سليل الأسرة العلوية (أتينا على ذكره مراراً) ووقع الحادث بحسب اللطائف المصورة في عددها **447** بتاريخ **3** سبتمبر **1923** بمنزلها بسابا باشا بالإسكندرية حينما كانت تنظف مسدساً من طراز برونج فانطلقت منه رصاصة بالخطأ إلى صدرها لتلفظ أنفاسها وزوجها الأمير هو الثالث من بين أزواجها، فالنبيلة بدأت حياتها بالمسارح، ثم تزوجت من الكابتن أليس في الجيش الإنجليزي حفيد البارون ديوالدن وكان ينفق عليها بسخاء ورغم ذلك وقع الطلاق لتتزوج بعده من الأمير جلال الدين نجل الأميرة فاطمة هانم والذي تعرفت عليه في أحد المراقص وكان يغدق عليها هدايا ثمينة من بينها عقد من اللؤلؤ ثمنه فوق الستين ألف جنيه!! لكن غيرته الشديدة دفعت بالعلاقة بينهما إلى الطلاق

لتتزوج الأمير عباس حليم والذي تعرف عليها في منزل زوجها الأمير السابق! تزوج الأمير عباس حليم من توحيدة هانم ابنة مدحت يكن باشا أحد مؤسسي بنك مصر مع طلعت حرب وبزواجه منها أمن الأمير -المغامر والعاطل عن العمل أيضاً برغم كونه نصير العمال واشتراكي النزعة- مورداً مالياً ضخماً، وأصبح في غنى عن انتظار مخصصاته المالية بحكم كونه سليل الأسرة العلوية والتي قطعت عنه فترة بعد خلافه مع الملك فؤاد... ومن الجدير بالذكر أن الأمير كان رئيساً لاتحاد الأندية الرياضية وأول طيار مصري فاز ببطولة الهواء أثناء تطوعه في سلاح الطيران الجوي الألماني أثناء الحرب العالمية الأولى، وأيضاً منضماً لقوات الباب العالي عام **1915** وما أبداه من بطولات خارقة رسمتها وتناولتها الصحف المصرية بمبالغات لا تخلو من بهارات صحفية..

6-قضايا طريفة

بالتأكيد يا عزيزي قرأت على الصفحات الإلكترونية لبعض الصحف في عالمنا العربي وخاصة مصر قضايا خلع وطلاق بمحاكم الأسرة لأسباب كالتقصير في صنع الطعام أو تحضير الشاي هذه الأسباب للفرقة الزوجية ليست وليدة اليوم ففي صحيفة الصباح في **2** أكتوبر **1936** نشرت خبراً عن سيدة تطلب الطلاق من زوجها بسبب شخيره أثناء النوم.. الصادم هو

رد الزوج الذي جاء غريباً بأن الشخيرَ طارئٌ عليه في الشهور الأخيرة بسبب توتر أعصابه لاكتشافه خيانة زوجته له، لذا فهو يعارض طلب انفصالها ويطلب الحكم بالطلاق لمصلحته لأن زوجته أقدمت على الخيانة الزوجية..

ومن هذه النوعية من أسباب الانفصال كان طلاق بديعة مصابني من نجيب الريحاني لأنه دائم السهر ليلاً مع بديع خيري لتأليف الروايات والنوم نهاراً.

ومن زمرة الأسباب التافهة الأخرى لحوادث الطلاق ما أتحفتنا به مجلة الاثنين والدنيا في **5** فبراير **1940** ومنها إيثار المرأة التزين أمام المرآة أو الانهماك في قراءة رواية بوليسية على القيام بمهامها المنزلية ومن بين الأسباب أيضاً توهم الزوج أن زوجته لا توقر أباه بالقدر الكافي لأنه وجدهما يتبادلان الفكاهات أو أن زوجة وجدت بجيب بذلة زوجها صورة إحدى الغانيات (على غرار حنفي في مسرحية سك على بناتك)..

ومن الصحيفة ذاتها ولكن في عام **1947** تَقدمَ موظفٌ كبيرٌ في إحدى الوزارات ببلاغٍ بأن سيفون دورة المياه الخاص بشقة جيرانه يُشد كل ثلاث دقائق، فخشي أن يكونوا مصابين بالكوليرا، وبفحص سكان الشقة تبين أنهم معافون، وأنّ الأمر لا يعدو كونه هيستاريا انتابت ربة الدار الأجنبية فراحت تشد السيفون بكثافة درءاً للعدوى.

ومن القضايا الطريفة أيضاً ادعاء سيد محمد حسن السنراوي النبوة، وأن الوحي يهبط عليه بآيات سورة "الصناعات الحديثة" أو سورة "العمال والتليفونات" والعياذ بالله وذلك بحسب مجلة المصور في إبريل **1957**.

7-قضايا النصب

من ألطف حوادث النصب التي أماطت عنها اللثام مجلة (كل شيء والدنيا) قضية المحتال الذي زارته أم المصريين صفية زغلول في أعقاب مظاهرات عيد الجهاد في نوفمبر **1935** والتي سقط على إثرها عدد من المصابين في صفوف الطلبة "وهنا تجلى عطف أم المصريين والزعماء والأمة بأسرها على المصابين" وكانت أم المصريين "تزور المصابين واحداً واحداً وتقدم لهم الهدايا والحلوى ويتلقونها منها بالدعاء لها شاكرين" وكان من بين الطلبة المصابين طالب بكلية الحقوق يدعى "محمد أمين عبده" بمستشفى الدكتورين نجيب ومكرم بالجيزة.. المفاجأة التي تكشفت بعد ذلك أن الطالب المذكور لم يكن في حقيقة الأمر طالباً، بل "نصاباً محتالاً من أرباب السوابق" وسبق الحكم عليه بأربعة أشهر في قضية سرقة بدائرة قسم الدرب الأحمر في يوليو **1935**. كان انخراط محمد في أوساط الطلبة بدافع السرقة حيث كان يحتال عليهم بتقمص صورة طيب القلب والساذج المسكين؛ فكان يحتال لفتح خطابات بعض الطلبة المرسلة لهم والاستيلاء على نقودهم، كما كان

يقترض النقود ولا يعيدها فإذا طالبه أحد بنقوده تهرب منه أو تحجج بأنه ابن عمدة أحد مراكز إيتاي البارود، وأن النقود ستصل قريباً من أبيه العمدة!!

جاء افتضاح أمره والقبض عليه بعد أن ارتاب في أمره محمد أفندي ناصف توفيق معاون القسم الإعدادي بكلية الحقوق فأبلغ عنه...

ومن حوادث النصب الطريفة في عالم الدجل والشعوذة ما طالعتنا به جريدة الصباح في عددها **442** بتاريخ **15** مارس **1935** من امرأة عقيمة وزوجة لتاجر ثري وقعت بين براثن إحدى الدجالات بقدرتها على علاجها من العقم والولد بعشر جنيهات والبنت بخمسة!! وأقامت لها حفلة بخور فأصيبت السيدة بإغماء من تأثير دخان البخور، وهنا أوهمتها الشيخة المشعوذة أنها قابلت جلالة ملكة الجان والتمست منها شفاءها وحملها بولد... انصرفت السيدة فرحة ومطمئنة ومرت الأيام ولم تفِ ملكة الجان!! فأدركت أنه "ضحك على الذقون" وتقدمت ببلاغ لبوليس السيدة زينب وقبض على الشيخة.

8-قضايا البغاء

أحياناً تكشف الصحف القديمة عن الجهود المجتمعية التي تبذل سراً وعلانية لاحتواء الأزمات المجتمعية والحيلولة دون وقوعها أيضاً.. في **1** مايو **1931** نشرت مجلة الكشكول أن "مخدماً قواداً" أغوى فتاة سليمة النية تدعى "نعيمة" من قسم العطارين بالإسكندرية على البغاء حيث أرسلها إلى أحد بيوت الدعارة بالقاهرة على غير علمها لتجد فيه "شيطانة شمطاء" ترغمها على التسليم في عرضها بثمن بخس، وأثبتت التحقيقات أن ذلك المخدم اعتاد أن يورد "فتيات ساذجات" إلى ذلك "البيت الدنس" وغيره. ودعت المجلة المؤسسات المجتمعية لتحمل مسؤولياتها وإنشاء جمعية بالتعاون مع الحكومة لمكافحة هذا النوع من البغاء عبر البحث عن الفتيات الضعيفات والفقيرات لمساعدتهن على العمل الشريف.

المثير هو ما جاء في **8** مايو **1931** على صفحات المجلة من تعقيب الدكتور عبد العزيز نظمي من أنه عضو بمجلس إدارة جمعية "مقاومة انتشار البغاء ومنع الاتجار بالرقيق الأبيض" والتي تأسست عام **1909** (قصور واضح بالدعاية للنشاط) وفي عام **1912** أصبحت تلك الجمعية شعبة تابعة للمكتب الدولي لمنع الاتجار بالنساء والفتيات ورئيسها المستر بلاك ريد القاضي بالمحكمة المختلطة بمصر كما كشف عن أن من ضمن مجلس إدارتها هدى شعراوي (معلومة تعتبر جديدة عن إنجازاتها) وللجمعية

ملجأ بمصر وآخر بالإسكندرية لإيواء الفتيات والسيدات سواء المرسلين من البوليس أو عن طريق الجمعية..

على النقيض تجد صحافة تدعو لفساد الأخلاق بشكل مبطن أحياناً.. سبحان الله حلقات مترابطة بين الماضي والحاضر لا تنفك عراها لرعاية هذه الغاية واحتضانها.. فمثلاً في العدد **93** من مجلة الكواكب بتاريخ **1** يناير **1934** تعلق المجلة على قرار حكمدارية بوليس القاهرة بتضييق حدود الرقص ومنع الراقصات من أن يجلسن إلى الجمهور ليشربن شيئاً على حساب المتفرج!! واقتصار التنفيذ على الملاهي المصرية دون الأجنبية مستعرضة شكاوى بديعة مصابني ورتيبة وأنصاف رشدي من صرامة الحكمدارية في التنفيذ وحتى تتظاهر المجلة بالوقوف على مسافة واحدة من دعاة حماية الآداب ورافضيها، فقد طالبت إما أن تأخذ القرارات والأوامر صفة العموم أو أن يلغى القرار رحمة بقومية هذا البلد المسكين... مع أن العقل يقول: إنّ الأخذ بقاعدة ما لا يدرك كله لا يترك جله أفضل في مواجهة مثل هذه الكوارث الأخلاقية لا التراجع لتحقيق العموم في الابتذال والتدني الأخلاقي...

9-قضايا الاتجار في الرقيق الأبيض

أطرف هذه القضايا هي قضية الباشاوات عام **1894** ومسرحها كان عزبة نصار بجوار أهرامات الجيزة حيث أحضر خمسة نخاسين من البدو ستة جواري لبيعهن للأعيان في مصر في وقت كان الاتجار في الرقيق مجرّماً في مصر وكان اختيارهم للعزبة كمكان للاختباء لدى أحد معارفهم ويدعى عبد الرحمن نصار لحين إتمام البيع.. بالطبع وجود خمسة من الغرباء في عزبة كهذا كان مثيراً لريبة وشكوك أحد مرشدي المباحث ويدعى محمد بطران والذي تقاضى بعض المصوغات وجنيهين ذهبيين من عبد الرحمن مقابل حفظ سرهم..

تم بيع الجواري ثلاثة منهن لعلي باشا شريف رئيس مجلس شورى القوانين مقابل ستين جنيهاً و**7** جنيهات للسماسرة، واستبدل إحداهن بأخرى لعلة صحية لديها وبيعت واحدة للطبيب عبد الحميد الشافعي وزوجته الأوروبية وواحدة لحسين باشا واصف مدير مديرية أسيوط والأخيرة لمحمد باشا الشواربي عضو مجلس النواب وأحد أعيان قليوب.. المصادفة كشفت البيعة برمتها.. الثراء الذي ظهر على محمد بطران فجأة أثار ريبة زملائه فأبلغوا عنه فاعترف وتم القبض على أربعة من النخاسين فيما فر خامسهم وتم القبض كذلك على المشترين من الباشوات!!

استغل الإنجليز هذه الفرصة فمجلس شورى القوانين الذي ينتقد إسناد المناصب العليا للأوروبيين ورواتبهم الضخمة هو أول من يخالف القانون

برئيسه وبعض أعضائه.. أمر السردار كتشنر باشا بعقد محكمة عسكرية للمتهمين في **4** سبتمبر **1894** وكان الخديوي عباس حلمي الثاني بالخارج..

حاول علي باشا شريف الاحتماء بحصانته البرلمانية أو لكونه من الرعايا الإيطاليين مما يضعه تحت مظلة الامتيازات الأجنبية لكن القنصلية الإيطالية تحججت بعدم دفعه للاشتراكات لمدة طويلة لتنفض يدها عن قضية محرجة كهذه فأصيب الباشا بأزمة قلبية.. وقيل في روايات أخرى أن جهوداً إيطالية بذلت لدى شايفر بيك لإطلاق سراحه.

تركز الدفاع في القضية المثيرة أن الجرم في الاتجار في الرقيق فقط لا في الشراء الذي لا يعاقب عليه القانون وصدرت الأحكام ببراءة حسين باشا واصف ومحمد باشا الشواربي وبالسجن خمسة أشهر على الدكتور عبد الحميد الشافعي، كما صدرت أحكام على النخاسين خمس سنوات مع الأشغال الشاقة أما علي باشا شريف فعفا عنه الخديوي وقبل استقالته من منصبه لظروفه الصحية.

10-حوادث التزوير

من أطرف حوادث التزوير ما ساقه أحمد حلمي في كتابه (السجون المصرية في عهد الاحتلال الإنجليزي الطبعة الأولى **1910**) وتتلخص القصة أن شخصاً تركياً يدعى فاضل بيك رشيد فر مع من فروا من الأستانة إلى مصر

مع خلع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وبدأ أولى خطواته في مصر بالاحتيال على بعض هواة الآثار العربية الإسلامية، حيث أقنع أحدهم أنّ لديه سيفاً أثرياً عليه طلاسم مدفوناً بجامع عمرو يمكن حامله من نيل الخلافة وعلى طريقة شراء العتبة الخضراء انخدع المشتري ودفع خمسمائة جنيه نظير سيف الخلافة المزيف... ولما صرف المبلغ اتفق مع شخص تركي آخر على تزوير العملات بشكل متقن مما مكنه من العيش في رغد وبذخ وفي إحدى المرات تصادق أن دفع لمحل تجاري ورقة مزورة من فئة المائة جنيه في نفس اللحظة التي دفع فيها شخص آخر ورقة من نفس الفئة وبنفس النمرة فارتاب صاحب المحل في الأمر ولم يستطع تمييز الأصلية من المزورة فاتصل بالبنك.. تمكن "السير ألوين بالمر" محافظ البنك ومستشار نظارِهِ المالية من كشف التزوير، حيث أنه يضع إمضاءه على كل فئة من فئات النقود بمقياس مميز لكل فئة عن الأخرى والمزور وإن أتقن تزوير الإمضاء إلا أنه خالف قياس ورقة الفئة التي زورها... طبعاً كان كشفاً كبيراً في هذه الأزمنة حديثة العهد بالتعامل بالنقود الورقية وأساليب تزويرها.. المهم قبض على فاضل بيك وشريكه وحكم عليهما بالسجن وهناك كما يقولون ربّ ضارة نافعة إذ اقترح على مأمور السجن إدخال صناعة السجاد ضمن الأنشطة الصناعية داخل السجن، فأدخلت وكانت هذه حكاية إنشاء ورشة السجاد المميزة لسجن مصر العمومي...

11-حال السجون المصرية قديماً:

في كتابه (السجون المصرية في عهد الاحتلال الإنجليزي والصادر في طبعته الأولى عام **1911**) (أي فترة حكم الخديوي عباس حلمي الثاني) صور لنا كاتبه الصحفي أحمد حلمي صورة حية وجلية من داخل سجن مصر العمومي والذي يعتبره نموذجاً لباقي السجون مع اختلافات طفيفة وكان الصحفي يقضي هناك عقوبة العيب في الذات الخديوية فيصفه بالمكانِ قابضِ النفسِ ذي بابٍ واسعٍ أسود، وعلى جانبيه حديقة منقسمة قسمين وتعلوه نوافذ مسكن المأمور وبداخل السجن قاعة الحارس لتسجيل يوميات السجن وأسماء الداخلين والخارجين منه بالوقت والساعة ويصف غرفة الاستقبال أو الإيراد حيث يتكدس فيها الواردون من المساجين لحين توزيعهم بين سجن مصر أو نقلهم بالسكة الحديدية لسجن طرة ويعطي تفصيلات أخرى عن باب المبخرة والتي يتم فيها تطهير ملابس المساجين وغرفة الأمانات لحفظ الملابس إذا كانت مدة الحبس أقل من عام أو إعدامها إن زادت المدة وغرفة الأسلحة وبها بنادق عادية وبسيطة..

وبحسب وصفه ففور وصول السجين يتم تفتيشه بشكل دقيق حيث يتم تحسس كل عضو بجسده ويتم فحص فِيهِ، ثم يتم تسليمه للحلاق والذي يجز شعره كاملاً، ثم يغتسل ويلبس زي السجن وهو ثلاثة ألوان: الأصفر لمن كان حبسه أقل من سنة، والأزرق لمن زاد حبسه عن سنة، والأسود لأرباب

السوابق والمسجلين، ثم يتم توقيع الكشف الطبي عليه بواسطة طبيب في الغالب إنجليزي...

ويصف لنا الزنزانة بغرفة ذات نافذة واحدة عليها قضبان حديدية وزجاج سميك ومفتوحة صيفاً وشتاءً وبها دلو صغير للبول وكوب معدني للشرب وحصيرة دون وسادة وغطاء من ثلاث بطائن من الصوف الإفرنجي الخفيف ولا يوجد مصابيح للإضاءة بها أما الطعام المقدم فكان رغيف خبز بحسب تشبيهه يصلح أن يكون مواداً للبناء وآدام مجهول ودقة وبعض الفجل ويسمح للسجين بالتريض نهاراً..

يشير الصحفي إلى حجم الانتهاكات ضد المساجين في هذه الفترة فقد رأى أحد المساجين من خريجي إصلاحية الأحداث يضرب على رأسه بالنعال كما رصد أن عساكر البوليس أو بلوك الخفر المحكوم عليهم في المجالس العسكرية كانوا يربطون في ساقية يديرونها كالثيران تحت لفح الشمس الحارقة إضافة لمعاقبة الوكيل الإنجليزي لأحد المساجين المسلمين وقد سمعه يقرأ القرآن فقال له: "أنت والقرآن في الانفراد" وكذلك نقل واقعة ضرب بعض الممرضين لسجين مريض حتى الموت، ثم سارعوا لتشريح الجثة خشية اكتشاف أمرهم لكن شهادة أحد المرضى أوقعت بهم وأحيلوا للنيابة وحكم عليهم بالسجن منبهاً على ضرورة ألا يترك تشريح جثة سجين متوفى لغير طبيب السجن ذاتياً دون الممرضين.. كما تحدث عن

تفشي أمراض الروماتيزم وأمراض الصدر وضعف البصر نتيجة لما أسماه بالمعاملة "الغشومة" التي لا وجود فيها إلا في مصر حتى في سجن الباستيل... كما يكشف عن انتشار داء وبيل نتيجة الممارسات الشاذة بين المساجين من المراهقين صغار السن والمجرمين البالغين من فاسدي الأخلاق، واعتقد أن الكاتب ربما اختلط عليه الأمر فيما يتعلق باسم الداء والمقصود هو داء بيل حيث الضعف العضلي والشلل كنتيجة للزهري.

لكن من الجوانب التي رأيتها إيجابية وإن خالفت الكاتب فهي تعليم السجناء بعض المهن مثل حياكة الملابس (ورشة الترزية) وصناعة السجاد والنجارة وإعطائهم نقوداً مقابل عملهم تدفع لهم في نهاية المدة وقد حصل أحمد حلمي نفسه على مبلغ **498** مليم مكافأة بعد **12** شهراً من العقوبة في الفترة من **29** أبريل **1909** وحتى **19** أبريل **1910** قضاها في العمل بين ورشة النسيج والحياكة.

وحتى نكون منصفين فلا ينبغي أن نتوقف عند تاريخ قديم مثل **1909** ونصدر أحكاماً مطلقة عن حقبة تاريخية بأكملها ودون أن نستمع إلى مجهودات الطرف الآخر في التطوير والتحديث لذلك حريٌّ بنا أن نطلق عنان أذهاننا مع تقرير مصلحة السجون السنوي لسنة **1935-1936** والذي أعده مديرها محمد حيدر (أصبح وزيراً للحربية، ثم القائد العام للقوات المسلحة في عهد فاروق وهو صاحب العبارة الشهيرة "زوبعة في

فنجان" التي أضاعت عرش فاروق وملكه للأبد) جاء التقرير بلغة فيها كثير من التحرر من الرسميات في الكتابة والصياغة فجاءت لا تفصل بين النبرة الرسمية ووجهة النظر الشخصية، غير أنه تضمن جملة من الإنجازات التي يمكن رصدها عملياً على الأرض عبر مشاركة مصلحة السجون في المعرض الزراعي الصناعي في دورته الخامسة عشرة عام **1936**، حيث تضمنت المصنوعات المعروضة منسوجات حريرية وقطنية، وأثاثات نجارة وتماثيل حجرية وزهريات وحقائب جلد، وصابون وسجاد وأطقم كراسي وأشغال إبرة وملابس للسيدات بإجمالي **2657** جنيه، وبلغت المبيعات **2296** جنيه برغم "الإقبال العظيم من الحضور" بحسب التقرير ويبرر التقرير الفارق بين المعروض والمبيع بشكل مبطن وهو ترك المجال للصناع والمصانع التجارية وعدم التضييق عليهم بالمنافسة.. ويباهي حيدر باشا باستخدام السجناء في تحويل بناء للجمعية الزراعية الملكية بالمعرض إلى مسجد وطلائه وفرشه وإضاءته وتزويده بالوعاظ الدينيين من المصلحة والتي كانت تعتمد في استقطابهم على التطوع في أغلب الأحيان مقابل أجرة ركايب نظير كل مرة حضور (**100-200 مليم)...**

كما يباهي بتطور أشغال النحت في المصلحة إلى حدٍ عرض تمثال نصفي للملك فؤاد بالمعرض..

وحول جهود المصلحة في الارتقاء بالأحداث وإصقال مواهبهم فيتحدث التقرير عن تعليمهم الموسيقى الوترية والفلوت والنحاس والقرب والأناشيد والصناعات التي تفيدهم في حياتهم العملية بعد الخروج مثل الطبع والتجليد (توقفت مؤقتاً وقتها بسبب أزمة الورق العالمية) وصناعة النسيج بدلاً من الصناعات الميكانيكية كالبرادة والحدادة والخراطة والتي تحتاج لرأس مال كبير قد لا يتوافر لديهم...

الطريف في التقرير هو الحديث عن استخدام السجناء في تبادل المنفعة بين المصلحة والبلديات حيث تقدم المصلحة لكل بلدية عدداً من المسجونين تستخدمهم في المنافع العامة مقابل ما يستهلكه السجن في دائرتها من مياه وكهرباء واستمر الحال في هذه المقايضة إلى أن أصرت البلديات على السداد النقدي لخدماتها من المياه والكهرباء وهو ما جعل حيدر يخرج عن الرسمية في الخطاب وينعت هذا التصرف بالرغبة في الاستيلاء على المال لخزائنها!!.

القسم الثالث

صندوق الدنيا.. صور من هنا وهناك

في هذا المبحث نطوف ونقلب بين صفحات كتب وصحافة زمان.. ننظر فيما كان يشغل الناس ويستحوذ على اهتمامهم.. نستفيد من بعض تجاربهم وما هو قابل للتنفيذ منها اليوم.. ونحلل بعض أخطائهم.. نتعلم معلومات جديدة ونصحح مفاهيم مغلوطة.. رحلة لا نولي فيها على شيء ولا يجمعها عنوان سوى الإبحار في سحر الماضي بلا ربان ولا شطآن..

1-إعلانات زمان

ونبدأ بإعلانات المجال الطبي بحكم الانتماء ومجلة المصور في **8** إبريل **1949** وتحت عنوان "صدق أو لا تصدق.. هكذا كانت الصحف المصرية منذ **50** سنة" واستعرضت المجلة إعلانات صحيفة الأهرام منذ نشأتها الأولى بالإسكندرية ومنها هذا الإعلان الماتع "إنني بحوله تعالى قد نلت الشهادات الطبية الديبلوماتية من مدرسة الطب بالقصر العيني وحضرت إلى هنا بوظيفة طبيب في البوسطة الخديوية، وقد خصصت وقتاً يومياً من الساعة **3** إفرنجية بعد الظهر لغاية الساعة **5** لمعالجة الفقراء من الأمراض الباطنية أو الخارجية مجاناً في منزلي الكائن بربع المرحوم طنوس واكيم عند فرن الجرابة القديم وإنني مستعد أيضاً لإجابة من يطلبني إلى منزله -سليم داود قناواتي"

ومن الأهرام أيضاً وفي **25** سبتمبر **1890** إعلان طريف من طنطا عن طبيب للغلابة حيث يعلن الدكتور (ديمتري سوروويني) الطبي الجراح بأنه "أتى طنطا ليتعاطى صناعة الطب بها محل الدكتور قسطنديس وسيقوم بعمل عيادة المرضى في أجزاخانة الاتحاد بشارع البورصة (لاحظ هنا أن الصيدلة لم تكن مفصولة عن الطب) مع معالجة الفقراء مجاناً ويتعشم في إقبال العموم عليه فيروا ما يسرهم (من يأخذنا بآلة الزمن إلى هذا الزمان؟) من مدهشات الطب الحديث التي كانت يروج لها وقتها مثلاً عملية خلع الأسنان على النغمات الموسيقية بعيادة الأستاذ الدكتور إبراهيم عزت بيك الحائز على الدكتوراه في الطب العام وطب الأسنان من جامعات باريس وأمريكا وحائز على دبلوم أمراض البلاد الحارة وعضو الجمعية الطبية والصحية بباريس.

ومن الطب إلى الصيدلة حيث أزمنة الأدوية العشبية والخلطات السحرية المعلومة المكونات والمجهولة التراكيب أيضاً ففي صحيفة النيل في **29** يناير **1925** وإعلان في صورة خطاب من صابر حمدي صاحب ومدير جريدة صندوق الدنيا إلى "جناب المحترم الدكتور روس (صاحب وكالة حبوب الدكتور روس) لتفخر بك الأمم ولتهنأ الإنسانية بعملك العظيم الذي أوجدت به حبوب (فيجورون) المفيدة التي باستعمالها تعيد النشاط وتجدد قوى الضعيف وتقضي على كل داء يريد أن يجعل الجسم مسرحاً لطغيانه".

الوسيلة ذاتها مع خطاب من سليم عبد السيد معوض مدرس بمدرسة التوفيق القبطية بالفيوم إلى جناب المحترم وكيل شركة روس من أن (حبوب الحياة) منتج الشركة نجح في إنهاء معاناته من انقباض في النفس وعسر هضم واصفرار الوجه وأمراض حار فيها الأطباء.

ومن ألطف ما حاق بصنوف هذه الإعلانات وتحديداً (حبوب الحياة) ببيروت عام **1913** ما جاء بكتاب (البيارتة حكايات أمثالهم ووقائع أيامهم لعبد اللطيف فاخوري) من أنها تعيد الشباب فكم من شاعر تحسر على الشباب الذاهب وتقرحت أجفانه عليه وأنها "استعملت في جيوش أربع جمهوريات من جمهوريات أميريكا الجنوبية لأنها تشد همة الرجال وتزيد مقدرتهم على القتال وهي تعطي القوة لأنها تجعل طعامك يغذي جسمك" وينصح الدكتور روس الجمهور "بلف خيط على إصبعك لتتذكر أن تشتري زجاجة من حبوب الحياة للدكتور روس اليوم".

لا أخفيكم سراً أن الفضول تملكني لمعرفة سر هذا المنتج العجيب لعله يعيد لي شعري الذاهب مع الريح ومع خريف العمر!!

بالبحث عن صور لحبوب الحياة وجدت أنها تتكون من آلوين (باربالوين) وهو ملين لعلاج الإمساك وفلفل أوليوريسين لعلاج العضلات وآلام المفاصل والآلام العصبية وجوز القيء (يحتوي على ستريكنين والبروسين) كمضاد حيوي ومضاد للأكسدة والالتهابات والبيلادونا (ست الحسن)

مسكن للآلام ومضاد للالتهابات وعلاج لمشاكل الدورة الشهرية علاوة على دور تجميلي في توسعة حدقة العين لدى النساء لزيادة الجاذبية والبودوفيلين في علاج الثآليل وأخيراً عرق الذهب كمقشع ويساعد في طرد البلغم... الخلاصة كوكتيل عشبي لأغراض واستخدامات طبية شتى..

فيما يخص الفكر السائد بشأن إعادة الشباب والحيوية، فيمكن أن نوجزه من خلال عدد مجلة الهلال في **1** يناير **1925** وطريقتين لإعادة الشباب إلى الشيوخ والمنهوكين!

الطريقة الأولى: هي الحقن بالدم للدكتور جافورسكي من أطباء باريس عبر حقن حيوانات مسنة بدماء صغارها، وقد تمكن من رد الشباب لكلب عمره **14** سنة وإلى فرس عمره **24** سنة..

الطريقة الثانية: هي التطعيم بالغدد للدكتور فورونوف عام **1918** حيث أخذ كبشاً عمره **12** سنة وطعّمه أجزاء من خصية كبش شاب، فما مضى شهران حتى عادت إليه كل ملامح الشباب وصار ينطح، بل وقادراً على الإنجاب أيضاً حيث وضعت معه شاة فحملت منه!!

نأتي على ذكر عشبة الدكتور إيار **Ayer's sarsaparilla** وإعلان من صحيفة المؤيد العدد **1932** في **2** أغسطس **1896** بأن هذه العشبة تعمل على تقوية وتنقية الدم طارداً منه جراثيم العلل والأمراض ومجدداً لكل

مفقود في الدم. وبحسب المبالغات التي تحيط بهذه المنتجات عادة والتي كان بعضها مجهولَ التركيب في زمنه، فالعشبة علاج شامل لما لا يقل عن **25** حالة صحية تشمل الوذمات وضعف السيدات والروماتيزم والألم العصبي والزهري، وببحثي عن مكونات العشبة والتي تشتمل على **26**٪ كحول فهي تتألف من نبات الفشاغ أو السارسابيلا المحتوي على السابونين والمركبات الفينولية والذي يلعب دوراً هاماً في علاج التهاب المفاصل لقدرته على تثبيط تنشيط عامل نخر الورم ألفا، كما يخفف من أعراض المناعة الذاتية عبر تنقية الدم وتقليل الالتهابات..كما تحتوي العشبة على نبات اليبروح (الماندريك) وهو نبات أسطوري له أسماء عدة منها تفاح الجن، وتفاح المجانين، وتقول الأسطورة: إنه أراد أن يصبح رجلاً، لكنه فشل فظل نباتاً وإنّه له قوة سحرية ويقي من الحسد. ويقال: إنّ هنيبال القائد العسكري القرطاجي استخدمه في تخدير أعدائه من المحاربين الأفارقة وهو يحتوي على السكوبولامين والهيوسيامين؛ لذا فهو يستخدم في المغص والتشنجات ومتلازمة القولون العصبي والتهاب المثانة، وتحتوي العشبة أيضاً على نبات الحماض الأصفر، وهو من أفضل مصادر الحديد النباتية، لذا فهو يستخدم في حالات فقر الدم وأثناء الحمل والدورة الشهرية.

نأتي إلى حبوب مقويات الأعصاب الخصوصية وبالأخص الجهاز التناسلي "لاب جون" والتي حملت صحيفة المؤيد إعلانها في العدد **1936**في **6** أغسطس **1896** والطريف هو لونها المميز الأزرق (فياجرا الماضي).

أشهر هذه الإعلانات تلك الخاصة بمستحضر الزمبوك **zam buk** والذي يتبع شركة باير الألمانية حالياً، وبحسب دعاية ذلك الزمان، فهو أعظم دواء شافٍ للجلد في العالم، والدواء السحري العجيب والشافي الأعظم الذي سيضيع كل آلامك وهو يلاشي جراثيم المعدة ويخفف الأورام ويمتص المادة القذرة وينمي جلداً صحياً، ويستخدم في علاج الحروق والأكزيما والقوباء والبواسير والحمونيل، وأي قطع أو جرح أو سلخ جلدي والحكة.. بمراجعة تركيبه فهو يتكون من زيت الأوكاليبتس أو الكافور، ولهذا فهو يستخدم في التخفيف من ألم البواسير وفي التدليك، كما أن له تأثير مضاد للبكتيريا والفطريات ومضاد للالتهاب، لهذا يحسن من وظائف الجهاز التنفسي ويخفف من أعراض البرد والإنفلونزا ومن المكونات الأخرى زيت الزعتر والذي يحتوي على فيتامين أ (مهم للبصر والجلد والشعر) وفيتامين ب (مهم للأعصاب والجهاز الهضمي)، وفيتامين ج (مهم في التئام الجروح والوقاية من نزلات البرد)، والحديد والكالسيوم والفسفور والثايمول لطرد الغازات من الأمعاء والمساعدة في الهضم... آخر مكون هو عشب ساسافراس والذي يخفف الألم ويعزز قدرة الجهاز المناعي وفي حماية الأسنان..

من الإعلانات الطريفة أيضاً تلك التي تخص أملاح كروشن "اطرد عنك السوداء وضيق الخلق" وجاء في مجلة كل شيء والدنيا العدد **485** بتاريخ **20** فبراير **1935** إعلان عنه كأحسن علاج لدر البول وتنقية الكلى، وعلاج الأعراض المزعجة كالروماتيزم والتعب مستعرضاً قصة مسز. ل. ب، مع الروماتيزم طيلة **18** عاماً في أجزاء متعددة من جسمها وعولجت في المستشفى بالكهرباء لكن مع تجربة هذه الأملاح أتت بفائدة كبيرة..

وصفت أملاح كروشن بأوصاف عدة في إعلانات لا تخلو من المبالغات الشديدة فهي أملاح المعجزة والسحر التي تعيد لك الشباب والحيوية وتجعلك تبدو أقل سناً فتنقصك عشرين عاماً في عشرين يوماً أو تشعرك وكأنك طرزان، وبإمكانك تسلق الأشجار، وذلك بإضافة معلقة صغيرة منه إلى القهوة أو الشاي في الصباح.. وهو الاكتشاف الذي اهتدى إليه **16** طبيباً من أطباء لندن للإمساك حيث تتراكم فضلات الغذاء في مصرانك كما تتراكم الأوساخ في زير الماء، وذلك بحسب العدد **306** من مجلة الاثنين والدنيا في **22** إبريل **1940.**

لكن الحقيقة التي تكشفها مكوناته هو أنه لا يعدو كونه ملييناً، ودواء لتعويض الجسم في حالات القيء والإسهال والتعرق المفرط، حيث يتكون من حمض الستريك (أو حمض الليمون ويستخدم لعلاج حصى الكلى إضافة

لكونه مضاداً للأكسدة، ويساعد في امتصاص المعادن والتقليل من التهابات الحلق وعلاج الغثيان ويعزّز قدرة العظام على امتصاص الكالسيوم)، كبريتات المغنيسيوم، كلوريد البوتاسيوم، يودات البوتاسيوم، كبريتات البوتاسيوم (البوتاسيوم في الصور الملحية الثلاث يحافظ على صحة القلب والأوعية الدموية وعلى ضغط الدم في معدله الطبيعي عبر خفض الصوديوم في الجسم، كما يحافظ على صحة العضلات والعظام ويقلل الإجهاد والقلق وييسر عملية الهضم)، كلوريد الصوديوم (يقي من الإصابة بتشنج العضلات نتيجة الجفاف الشديد خاصة في فصل الصيف، ويحسن وظائف الدماغ ويساعد على امتصاص الجلوكوز ويساعد في تنظيم ضغط الدم في الجسم، وينظم السوائل في خلايا الجسم وتقليل أعراض الشيخوخة ويساعد في الحفاظ على نسبة الحموضة في الدم) وبالتالي فالبوتاسيوم إلى جانب الصوديوم يسهمان في مراقبة ميزان السوائل في الجسم ونقل الأوامر العصبية وفي تقلص العضلات والحفاظ على سلامة نبضات القلب.. مشكلة هذا النوع من الإعلانات أنها قد تؤدي إلى الإسراف فتنقلب محاسن هذه التركيبات إلى أضرار بالغة..

يحضرني هنا موقف لطبيب أطفال كان يتقاضى أموالاً من شركات الأدوية والمكملات الغذائية، وكان يفرط في وصفها للأطفال ثلاثة فيتامينات هذا للطول وهذا للوزن وهذا للنمو، والأهالي البسطاء يثقون به إلى درجة كبيرة

ويأتون إليه من كل فج وصوب.. غير مكترث بأن كثرة الفيتامينات تؤدي إلى مخاطر جمة... في إحدى المرات كان يحادثني أنه طلب من أحد الأهالي تحاليل لطفله وطبعاً هو يتقاضى نسبة من المعمل مقابل تحويل المرضى إليه وحينما أتت التحاليل سليمة ولم يكن الطفل يحمل أية أعراض تقتضي هذه التحاليل؛ فخشي أن يعرضها الأهل على طبيب آخر فيقول: (من الحمار الذي طلب منك هذه التحاليل)، (بحسب ما قص عليّ) فأخذ التحاليل من الأهل وأخفاها وقال لهم: (لو لم يكن لدي معزة خاصة تجاهكم ما طلبت هذه التحاليل التي لن يطلبها منكم أحد سواي، فأطفالكم أمانة). وحينما ينزل إجازة كان يعطي للأهل روشتات طبية يكررونها وقت الحاجة حتى يضمن عدم ذهابهم لطبيب آخر وقت غيابه... صدق النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال: (إذا ضُيِّعَتِ الأمانَةُ فانْتَظِرِ السَّاعَةَ قالَ: كيفَ إضاعَتُها يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: إذا أُسْنِدَ الأمْرُ إلى غيرِ أهْلِهِ فانْتَظِرِ السَّاعَةَ).

نعود لموضوعنا وبمراجعة سريعة لأرشيف لدي من أعداد الدنيا المصورة في أواخر العشرينات من القرن الماضي وجدت منتجات لا تزال إلى اليوم وإن حدث بها بعض الاختلافات الطفيفة في مسمياتها التجارية أو مكوناتها مثل اللزقة الأمريكية الأصلية الوحيدة ألكوكس لعلاج النزلات الصدرية ووجع الظهر وتصلب العضلات.

وزيت السمك راديو مولت المحتوي على فيتاميني**A** و **D** بلا رائحة ولا طعمة كمقوٍ ومنبهٍ للشهية، ويشفي فقر الدم ويفيد النساء العصبيات والبنات في سن البلوغ والأطفال الضعفاء.

الحقيقة أنه ولوقت غير بعيد كنت أظن أنّ الحاضر أكثر تطوراً فيما يخص قدرة الناس على التمييز والانصراف عن هذه الدعاية غير العلمية وغير المتخصصة، لكن جائحة كوفيد كشفت لي صوراً مختلفة عن دور الدعاية في تخدير عقول الناس على مختلف مستوياتهم الثقافية والعلمية..

مثلاً من الممكن أن نتقبل أن يكون علاج كوفيد من خلال أحد المتهمين بالتسبب فيه وهو آكل النمل الحرشفي، فلديه استجابة مناعية لفيروس كورونا تساعده على البقاء في مأمن من المرض، علاوة على الجين المعروف بـ**(RIG-1)** الذي يعمل كمستشعر ضد الفيروسات وخاصة التاجية منها، وبذلك نكون قد حققنا المثل "داوني بالتي كانت هي الداء".

لكنّ الأمر مختلفٌ حينما نزعم أن الخل أكثر فعالية من معقم اليدين ضد فيروس كورونا وتناول بول البقرة ومسح روثها على الجسم مفيد (بحسب الناشط السياسي سوامي شاكراباني وعضو المجلس التشريعي سومان هاربريا بالهند)، وأن الكلوروفورم وعقار لولو القائم على مركب

الإيثر والمركب العشبي شوانغهانغليان ولصاقات الخردل ومسح دهون الإوز على صدر المصاب جميعها تعالج الفيروس، وأن تأدية طقوس دينية مثل الأفخارستيا (القربان المقدس)، والذي دافعت عنه إيليني غياماريلو أستاذة الأمراض السارية والمعدية في جامعة أثينا لا ينقل العدوى وأن استخدام ناماستي ككلمة للتحية بدلاً من السلام عليكم (تصريح لعضو البرلمان راميش بيدوري من حزب بهاراتيا جاناتا الهندي) تحول دون انتشار الوباء، فهنا مكمن الخطر الحقيقي الذي يحصد أرواح الناس والبسطاء بالأخص، ألا وهو نشر الخرافات قديماً وحديثاً وللمزيد حول هذه الأمور راجع كتابي فانتازيا الجائحة..

نعود للماضي مرة أخرى ومن الأدوية إلى إعلانات الصيدليات وواحد من الإعلانات الطريفة في العدد **27** من صحيفة حمارة منيتي في **30** أكتوبر **1900** عن أجزاخانة الصحة "واتفرجي يا جارة على كلام الحمارة" وجاء الإعلان على النحو التالي " فما عليكم إلا الحضور أو التشريف بدستور ضوغري على أجزاخانة الصحة وتواً لا يبقى عندكم لا برد ولا كحة.. الأدوية عال العال والحبوب شغل بسكال والأثمان زهيدة وأنواع الشفا عديدة" أعتقد أن الإعلان أقنعني بالذهاب وأنا أعاني من البرد وأنا أكتب هذه السطور.

ومن الإعلانات الطبية إلى الإعلانات التجارية وخاصة السجائر والمؤسف فيها أنّ مروجيها من كبار الأدباء والسياسيين، ونبدأ بالدكاترة زكي مبارك (حاصل على ثلاث درجات دكتوراه متتالية وقيل: إنه كان في الطريق للرابعة لكن القدر لم يمهله)، وإعلان بروز اليوسف في **5** سبتمبر **1932** حمل صورته وهذا التقريظ لشخصه باعتباره "الفيلسوف البحاثة المتخرج من جامعات باريس والأديب المبتكر وأستاذ الآداب العربية بالجامعة الأمريكية "، وتحتهما رسالة بخط يده عن دخان ألف ليلة كيريازي لف يد العامل المصري يقول فيها: "التدخين ضلال، ولكنه يحتمل إذا قدم إليك عن أيدٍ مصرية من شركة مثل شركة كريازي وقد استحليت دخانها ممثلاً في سجاير ألف ليلة التي ذكرتني بما في ألف ليلة من ضلال، وعفا الله عمن علمني التدخين." المؤسف أيضاً أن نجد إعلان السياسي القبطي البارز مكرم باشا عبيد لشركة فهمي للسجائر وسجائر آمون قائلاً: "إني أعاهد نفسي ألا أدخن غير هذه السجائر المصرية."، الطريف أن طه حسين والعقاد كانا مدخنين أيضاً!!

ولأن الشيء بالشيء يذكر وقد اجتمع الدكاترة زكي مبارك والدكتور طه حسين معاً في محراب التدخين، فقد شهدت فترة عملهما معاً بالجامعة المصرية سجالات ومعارك كبيرة انتهت بفصل الدكاترة زكي مبارك من الجامعة واتهامه لطه حسين بأنه وراء هذا القرار قائلاً: "لو جاع أولادي

لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه" ومن باب حق الرد المكفول للجميع فأنقل هنا حرفياً ما قاله الدكتور طه حسين رداً على هذا الزعم ونقله عنه الدكتور محمد الدسوقي في كتابه (طه حسين يتحدث عن أعلام عصره): "يقال إنكم السبب في خروج زكي مبارك من الجامعة (سؤال الكاتب لطه حسين باعتباره سكرتيره) فقال (يقصد طه حسين): هذا غير صحيح ولكن خروج زكي مبارك يرجع إلى سلوكه الشخصي، فقد كان هذا السلوك يتنافى مع كرامة أستاذ الجامعة، فمثلاً ذكر لي فؤاد سراج الدين أنه كان ينجح في الامتحان حين كان يدرس بكلية الآداب قبل أن يتلقى دروس كلية الحقوق، فقد كان النظام في ذلك الحين يفرض أن يدرس طلبة الحقوق في كلية الآداب بعض المناهج في اللغة والأدب قبل دراسة علوم الحقوق (المقصود مقررات تمهيدية) ذكر لي فؤاد أنه كان لا يذاكر علوم الآداب وكان يعطي لزكي مبارك زجاجة كولونيا فينجح في الامتحان"... طبعاً اتهام خطير يتعلق بالذمة والشرف من أستاذ كبير لأستاذ كبير آخر، لا نعلق عليه بأكثر من أنه جزء من الصورة القاتمة للأدب المصري في الأزمنة القديمة...

الحقيقة أنه من المباحث التي أعيتني في تتبعها معرفة المقابل المادي أو المعنوي الذي يحصل عليه هؤلاء أدبياً أو مادياً من أجل الترويج للسجائر

لكن حتى الآن لم أعثر على أي وثيقة أو شهادة تتعلق بذلك وربما أعثر على ذلك مستقبلاً..

سؤال على الهامش: ما الذي يجعل شركات السجائر تتجه إلى صفوة المجتمع من المفكرين والساسة للإعلان عن منتجاتهم؟

في تقرير شديد الطرافة نشرته مجلة الاثنين والدنيا في عددها **689** بتاريخ **25** أغسطس **1947** تحت عنوان "عظماؤنا والتدخين" استعرضت المجلة قائمة طويلة من ولع الساسة ورجال الحكم في مصر بالتدخين؛ فالأمير يوسف كمال يدخن السيجار (ثلاثة يومياً وسعر السيجار جنيهاً مصرياً واحداً)، ومن هواة السيجار أيضاً أحمد نجيب الهلالي باشا والذي يدخنه باستمرار ويقدمه لضيوفه..

من المخلصين للسجائر الوطنية كان حسين سري باشا والذي كان مولعاً بالسجاير المصرية ويضعها في علبة مذهبة ويفضل الولاعة عن الكبريت في إشعالها والحال كذلك بالنسبة لإسماعيل باشا صدقي والذي كان لا يشرب من السيجارة سوى أربعة أنفاس وتداعب المجلة صدقي باشا في أن ذلك قد يجذب أنظار حضرات لمامي السبارس إليه أما فؤاد سراج الدين فكان من عاداته أن يشعل السيجارة ويتركها في فمه دون أن يدخنها حتى تنتهي فيشعل أخرى..

ومن باشوات مصر من كان يفضل السجائر المصرية، ولكن مع أنواع أخرى أجنبية، مثل شريف صبري باشا والذي كان يستخدمها مع الأمريكية ومحمد حسين هيكل مع السجائر التركية، وأحياناً يحلي بسيجارة أمريكاني من وقت لآخر..

كما ترصد المجلة حالات الإسراف الشديد والإدمان على التدخين، فعبد الرحمن عزام باشا كان يدخن أربع علب من السجائر المصرية (**80** سيجارة) والدكتور علي إبراهيم باشا والذي نعتته المجلة بملك المدخنين فكان يدخن ما لا يقل عن **100** سيجارة باليوم**!**

ومن عالم السياسة إلى عالم الفن ونستعرض تقريراً من روز اليوسف في **22** ديسمبر **1926** تحت عنوان "السيجارة!! دلع وكيف وتقليد!" فتعرض المجلة صورتين لمحمد أفندي كريم وحسن أفندي البارودي وهما يدخنان السيجارة في وضع فني معتبرة ذلك بمثابة تمرد للممثلين المصريين على الأوضاع العتيقة التي كان فيها الممثل يتصور "مجعوص" على الكرسي ممسكاً بيده كتاباً عليه اسمه بخط واضح.. أما النساء فتحولن من التدخين سراً إلى العلانية على مرأى من المارة والأغراب، وفي المحال التجارية الكبرى وتستعرض المجلة صوراً مع السيجارة لبعض الفنانات مع تحليلها فهنريت

كوهين أو آنجيل تحت تأثير النيكوتين أما ماري منصور فدلع و"جر شكل" ودوللي أنطوان تقليد وتكلف**!!**

ولأننا نتحدث عن الانتصار للصناعة الوطنية، فحريٌ بنا أن نعود لإعلان شديد الطرافة عن الأحذية نشرته اللطائف المصورة في **8** يناير **1923** يصور خواجه يجلس بجوار بضاعته المستوردة حزيناً كاسفَ البال لعدم قدرته على منافسة جودة وسعر السلع المصرية بأوكازيون الفابريقة المصرية الكبرى بشارع بولاق نمرة **29** قائلاً في حسرة: "المصري عرف إزاي يخليني أرجع بالبضاعة تاني لأنه عامل شغل أحسن من أوروبا وثمن الجزمة أرخص من الجمرك اللي دفعته**"**

من فنون الدعاية الطريفة والدعابة مع المستهلكين خاصة الشباب ما نشرته اللطائف المصورة العدد **621** في **3**يناير **1927** عن إعلان أولاد يعقوب كوهنكا عن لمبات فيليبس ارجنتا وتأثيرها المزدوج في زيادة حوادث الزواج فضلاً عن توفير الحماية أثناء ساعات الألفة الليلية بين المخطوبين!! حيث جاء بالإعلان رسالة من مخطوبة: **"**إنني لا أستعمل لمبات فيليبس أرجنتا في بيتي لمجرد الاعتراف بفضلها، بل من قبيل الاحتياط أيضاً.. إذ لا

يكفي أن يكون لنا منزل، بل يجب المحافظة عليه، ففي ساعات الألفة الليلية الطويلة أي مساعد لنا سوى لمبات فيليبس أرجنتاء"

نأتي إلى إعلان من مجلة الاثنين والدنيا في **8** يناير **1940** ولمبات تونجسرام كريبتون و"اللمبة الرخيصة في بطنها دودة" فالإنسان الذي في بطنه الدودة يأكل كثيراً دون أن يثمر فيه الأكل، كذلك المصباح الكهربائي الرخيص يلتهم التيار الكهربائي دون أن يعطي كمية أزيد من النور.. ويتسلل هذا الإعلان إلى جيوب المستهلكين من باب توفير فاتورة الكهرباء وحمايتهم من خسائر لا مبرر لها...

ومن أكثر الإعلانات كرماً في فصل الصيف ما جاء بمجلة (أنا وأنت) حول أولى حفلاتها "يوم السبت **29** مايو **1948** الساعة **6** مساء على مسرح كازينو بديعة الصيفي بالجيزة على ضفاف النيل بين الخضرة والهواء الطلق حيث تقدم فرقة السيدة بديعة مصابني (طبعاً الست بديعة هربت من سداد الضرائب إلى لبنان عام **1950**م)، أعظم برنامج ممتاز خاص لقراء مجلة أنا وأنت والدخول مجاناً بالكوبون المرفق على غلاف هذا العدد (تصور أن العدد **40** صفحة بعشرة ألوان والثمن **10** صاغ.. يا بلاش) وكل كوبون غير مختوم بختم المجلة يعتبر لاغياً ويوزع مجاناً على قراء المجلة في الحفلة علاوة على الدخول مجاناً علبة نباتين تزن **250** جرام مجاناً من إنتاج شركة

الملح والصودا خصيصاً لقراء أنا وأنت ويجري توزيع جوائز ثمينة وهدايا جميلة في هذه الحفلة شنط حريمي -أدوات مطبخ-روائح- أدوات تواليت- أطقم معدن -شرابات نايلون-شنط سفر- لعب وإلخ..."

المتابع للإعلانات قديماً يلاحظ أن أغلب الصناعات التي تتمحور حولها الإعلانات كانت صناعات استهلاكية مثل السجائر والصابون مثل "سيجارة آمون.. السيجارة الوحيدة التي يرتاح صدرك لتدخينها تجد السير بأمتها إلى طريق المجد الصناعي وهي دليل الوجاهة وعنوان القومية.. شركة سجائر محمود فهمي وشركاه "أو إعلان شركة سجاير الصعيد عن سيجارة أم المصريين صفية زغلول "تأمل دخانها النقي الصافي كأنه مستمد من اسمها يسجل المجد الصناعي لبلادها"

ومن منطلق أنها تعبر عن رفعة الصناعة المصرية وازدهارها فكانت هذه الشركات تبادر لتبني حملات للصالح العام ومن ذلك مساهمة سجاير البستاني في الحملة ضد التبذير، وذلك لأن التبذير جريمة واستجابة لطلب الحكومة المصرية من جميع منتجي السجاير تقليل حجم العلب وتخفيف وزنها لتوفير الكرتون اللازم للبلاد، فخرجت العبوات الجديدة للشركة متمشية مع روح الاقتصاد ومع ذلك أنيقة وعملية وخفيفة.

أما الصناعات الإنتاجية القوية كانت غائبة وربما هذا كان راجعاً إلى عدم رغبة رجال الإعمال في الاستثمار في مشروعات طويلة الأمد فمثلاً نجد تصريحاً لمصطفى بيك الصادق مدير مصلحة التجارة والصناعة "لقد انتهينا من دراسة مشروعين كبيرين وهما مصنع الجوت ومصنع الزجاج وثبت للمصلحة أن كليهما يعود بالربح ولدينا ما يحتاج إليه المولون من البيانات الفنية الدقيقة عنها حتى أن الأمر لا يحتاج إلا إلى يد تتقدم لتنشِئ وتجني ثمرات إنشائها الذي لا شك فيه ولكن يؤلمني أنه بعد هذا المجهود الضخم لم يتقدم مصري واحد لاستثمار أمواله فيها مع أن المسألة مسألة إقدام على ربح وليس فيه أي نوع من أنواع التضحية"

اللافت هو المحاولات المبكرة لوضع أسس وأساليب الإعلان نصب أعين التجار والمستهلكين، فنجد أول كتاب باللغة العربية حول أصول الإعلان وأساليبه تحت عنوان "طرق الإعلان والنشر" لمليكه عريان أستاذ بكلية التجارة جامعة فؤاد الأول والحائزة على دبلوم التجارة العليا وعضو جمعية البيع الأهلية بلندن حيث يستعرض الكتاب موضوعات مثل تاريخ موجز للإعلان ونظرية الإعلان من حيث أثره في توليد الرغبة وضرورة تكراره وأهمية الوقت كعامل للنجاح، وفوائد الإعلان للمنتج والمستهلك وفي تحسين المنتجات وهي تنبه في مقدمة كتابها على الفارق الذي يحدثه الإعلان في الترويج للمنتجات بلغة بديعة فتقول: "الإعلان للتجارة مفتاح

العلا وللتاجر مشكاة الهدى فالتاجر الذي يعلن عن بيته حليفه النجاح في العمل والتاجر الذي لا يعلن عنه نصيبه الخسارة والفشل.. ذاك حي معلوم وهذا ميت مجهول"..

ونستعرض من الكتاب فكرة تصميم ابتدائي لإعلان سجائر مثلاً بخط يد الكاتبة، حيث جاء في الجانب الأيسر: "سجاير الوكيل.. التي حازت إرضاء الجميع... اسم السيكارة... الثمن" فيما حمل الجانب الأيمن من التصميم مقترحاً بوضع صورة شابٍ أنيقٍ جالساً على مقعدٍ مريحٍ واضعاً ساقاً على أخرى وممسكاً سيكارة يتصاعد منها الدخان إلى أعلا الورقة (الصحيح أعلى وهو خطأ منقول حرفياً لنتعرف على مثال لأخطاء الكتابة في هذا الزمن)"

2-المجلس الصغير

في تجربة طريفة ومثيرة بمدرسة شبرا الابتدائية الثانوية عام **1949** قرر الطلبة محاكاة تجربة مجلس الوزراء الذي يرأسه إبراهيم عبد الهادي باشا آنذاك، ولكن هذه المرة من داخل المدرسة.. وأجريت عملية الانتخاب بالانتخاب المباشر وعبر الصناديق وكان من حق الناخبين الطعن على النتائج وتمت العملية الانتخابية تحت إشراف ناظر المدرسة (انظر الوعي زمان وتحسر معي حينما أتذكر ناظر مدرستي وهو يسب الدين في ميكروفون المدرسة للطلبة).

تمت عملية الانتخاب بسلام وتشكلت الوزارة المدرسية من الرئيس والذي تسمى بالعمدة تواضعاً ووزير الداخلية، وكان أبوه من ضباط البوليس فجاء انتخابه بأغلبية ساحقة، ومهمته فحص بطاقات التلاميذ وفض المنازعات ووزير الشؤون لتنظيم الرحلات وأمور المالية، وأيضاً تم انتخاب وزيرين أحدهما للثقافة والآخر للرياضة... لك أن تتصور يا عزيزي القارئ روح الابتكار والوعي لدى هؤلاء الطلبة الذين سبقوا عصرهم ودرسوا احتياجاتهم بدقة وأنشؤوا وزارتين للثقافة (لشؤون المكتبة وقاعة المطالعة) والرياضة لم تعرفهما الحقبة الملكية قاطبة واستحدثتا بعد هذا الزمان بزمان فقد أُنشِئت وزارة الثقافة عام **1958** ووزارة الرياضة **1980**. المضحك أن قرار المجلس الأول هو فرض ضريبة سنوية قدرها **50** قرشاً (واضح أن موضوع الضرائب من زمان!!!) لتنفيذ المشروعات الإصلاحية للدولة طبعاً الدولة هي مدرسة شبرا الابتدائية الثانوية والشعب هو التلاميذ.

3- نساء في أوجه البر

بالتأكيد سيذهب بك ذهنك يا عزيزي لمن حفظنا أسماءَهم عن ظهر قلب كهدى شعراوي وصفية زغلول وغيرهن..

لا بل سنكتشف معاً شخصية تاريخية عظيمة طواها النسيان، ففي مجلة العروسة في عددها **124** في **15** يونيو **1927** تحدثت عن السيدة السورية الجليلة (هيلانة سياج) والتي تبرعت من مالها الخاص بعشرة آلاف جنيه لإنشاء مدرسة خيرية في جهة الشاطبي بالإسكندرية للأطفال من جميع المذاهب والأديان، كما سبق وأن تبرعت بخمسة عشر ألف جنيه للكنائس والمستشفيات والجمعيات الخيرية وفي الدروس المستفادة من هذا الخلق النسائي وكأن المجلة تلمح لقلة الأعمال الخيرية من الرجال تقول المجلة: "في هذا درسٌ بليغٌ نرجو أن يتفهمه الأغنياء من الرجال الذين يكنزون الذهب والفضة ويتحدثون عن صنع الخير ويتكلمون كثيراً ويفعلون قليلاً".

ومن هذا الزمان البعيد لزماننا والسيدة العظيمة (إيفلين مصطفى شاكر) والتي اختبرتها الأقدار في وليد معاق ذهنياً فحملت على عاتقها حمايته وتأهيله وكذلك أقرانه فأصبحت (أم الإعاقة الذهنية في مصر) وصاحبة فكرة إنشاء جمعية الحق في الحياة، ألحقت الأم ابنها (تامر) بمراكز التأهيل فى إنجلترا وعلمته الاعتماد على نفسه وبحسب مجلة (عالم الإعاقة) بموقعها على شبكة الإنترنت، فقد كانت فكرة التحاق ابنها بالجامعة مسألة شبه مستحيلة إلى أن واتته الفرصة في العقد الرابع ليلتحق بالجامعة كطالب متفرغ على مدار ثلاث سنوات يسبقها دورة تمكنه من التكيف مع

الجامعة والتعامل بشكل طبيعي داخل الحرم الجامعي كأي طالبٍ عاديٍّ وتنقل المجلة عن الأم فرحتها وهي تقول: "فرحتي ما تتوصفش وأنا شايفاه شايل الكتب وداخل الجامعة" وتلخص الأم تجربتها بالقول: "في البداية، اعتبرت إنجابي لطفل معاق محنة، وكنت أرى المستقبل مخيفاً لكن عمري ما تمنيت أن أفقده، ومع مرور السنوات أدركت كم هو منحة من الله."

تكشف رحلة الأم معاناة كبيرة في وجود مراكز متخصصة بمصر للعناية بالمعاقين وإعادة دمجهم داخل المجتمع علاوة على النظرة المجتمعية تجاههم والحقيقة أن الفترة الأخيرة شهدت توجهاً حكومياً فعالاً في هذا الاتجاه من ثمراته أول مذيعة مصابة بـ "متلازمة داون" الأستاذة رحمة خالد وبطلة السباحة أيضاً.

4-تحت القبة شيخ وملكة

للتبرك بالأولياء تاريخ طويل في مصر تعرضت لبعضه في كتاب (حكايات من بحور التاريخ) ولا أخفيكم سراً أنه حتى كاتب هذه السطور معلق قلبه بزيارة مساجد أولياء الله الصالحين خاصة الإمام الحسين رضي الله عنه..

في جريدة الكشكول في **4** يوليو **1930** وبتوقيع شاهد عيان اعتبر أن كثيراً من أوامر الحكومة كقوانين تركيا حبر على ورق (أعتقد علمنا الآن مصدر

العبارة الشهيرة) وإلا لكان الأمر بمنع النساء من الاجتماع في جامع أولاد عنان لطلب الشفاء لأولادهن من مختلف الأمراض نافذاً ذلك أن مصلحة الصحة طلبت من وزارة الداخلية ذلك حيث تحتشد النساء ومعهن الأطفال حتى ضاق بهم شارع الملكة نازلي وشارع باب الحديد وتعذر المرور على المارة من الساعة الثالثة بعد الظهر إلى الساعة السابعة.. ويرى الشاهد أن تقاعس الشرطة والأوقاف عن إنفاذ القانون مبعثه المصلحة فيقول في ذلك: "لا ريب في أن رجال الشرطة ورجال المسجد يعلمون لأن الحكومة لا تأمر بشيء وتنسى أن تأمر بتنفيذه وهؤلاء هم المنفذون فإهمال الأمر دليل على أن رجال المسجد ورجال الشرطة الذين حول المسجد لهم مصلحة في بقاء ذلك المنكر لأن النساء يدفعن "البقشيش" أو العادة وخدم أولاد عنان يجمعون في أيام السبوت ما لا تقدر الحكومة على جمع نصفه من الضرائب طوال الأسبوع".

طبعاً لا شيء يتغير بمصر وإن تغير فيحتاج إلى أمد طويل وبخطوات بطيئة ومتثاقلة فبعد عشرين سنة من التاريخ الأول نجد في مجلة المصور في أول ديسمبر **1950** رصد لنفس الظاهرة، ولكن هذه المرة من ضريح سيدي محمد العتريس بجوار مسجد السيدة زينب واختصاصه بإيجاد أزواج لطالبات الزواج وكل طالبة تهمس له بحرارة "يا عتريس.. هات لي عريس" أما

سيدي المغاوري وضريحه في التكية المسماة باسمه بجبل المقطم فتخصصه تحقيق آمال النساء العاقرات المتطلعات للحمل...

هل أتاك حديث عملات أمي رحمها الله؟!

كان لوالدتي سلة من العملات توارثتها عبر أسرتها وكان من بينها ريال تعتني به بشدة، فإذا أعارته لإحدى النسوة كانت أمي الأحرص على عودته في ميقاته المحدد خشية ضياعه، وقد كانت حريصة عليه كل الحرص..

مع الوقت عرفت قصة هذا الريال ولما كانت النسوة تستعيره؟!

إنه تيلر أو دولا ر ماريا تريزا أو كما عرف بأسماء شتى منها ريال الوالدة (ريال مشتقة من رويال وتعني ملكي) والريال النمساوي حيث حمل اسم الملكة ماريا تيريزا التي حكمت النمسا وهنغاريا وبوهيميا من عام **1740** إلى **1780** وهو عملة فضية تحمل صورة الإمبراطورة ممتلئة الجسم والوجه بينما على الجزء الخلفي كان هناك شعار هابسبورغ وهو النسر ذو الرأسين.

ونظراً لأن الملكة كانت مجدولة ضفائر الشعر بالصورة على العملة لهذا فقد أخذت تسمية شعبية هي «أبو شوشة» أو الشوشي وقد شاع استخدام هذه العملة بشكل كبير في مصر وشبه الجزيرة العربية، حيث صنع محمد علي

باشا الريال المصري على نسقها كما انتقلت لنجد مع حروب إبراهيم باشا على الحجاز..

ارتبط هذا الريال بالموروث الشعبي، حيث وضع في قلائد طمعاً في كثرة الإنجاب ودفعاً للحسد من كثرتهم أيضاً، ذلك أن صاحبته الملكة النمساوية عرفت بكثرة الذرية حيث أنجبت اثنتيّ عشرة مرة: ثمانية بنات وأربعة من الذكور...

صور من الماضي لكنها حاضرة وبقوة في واقعنا وعلى رجال الدين الاضطلاع بمهامهم فيها وبيان ما يصح فيها وما لا يصح.

5-جنازة من قبطي واحد

بالتأكيد سمعت يا عزيزي القارئ عن اغتيال الشيخ حسن البنا في الساعة الثامنة والثلث من مساء يوم **11** فبراير عام **1949** ولكن ربما لا تعلم أن السياسي الوفدي البارز مكرم عبيد باشا (تحدثنا عنه في نوستالجيا الواقع والأوهام) هو الوحيد الذي سار في جنازته، كما أنه الوحيد الذي أشار إلى التضييق الأمني الذي صاحب الجنازة من قبل إبراهيم باشا عبد الهادي رئيس الوزراء وذلك في صحيفته الكتلة (لسان حال الكتلة الوفدية وتحمل شعار الحق لا يهاود ولا يراود) وحملت الصحيفة في عددها **1529** بتاريخ

15 نوفمبر **1949** عنوان "القبض على كل حزين يوم وفاة البنا" كما تحدث متهكماً أن "بعض رجال البوليس ممن وهبهم المولى رقة قلب عبد الهادي يستنكفون أن يخلعوا أحذيتهم أثناء دخول المساجد فكانوا يقتحمونها بأحذيتهم" في حادث اعتبره الثاني بعد دخول الفرنسيين الجامع الأزهر وأن حامد جودة رئيس مجلس النواب خلع السواد على النقراشي في هذا اليوم خشية اتهامه بالحزن على مقتل البنا وملاقاة المتاعب من البوليس!!

بالنظر للصورة من كل أبعادها، فقد كان لهذه الإجراءات ما يبررها ذلك أن الجماعة التي أسسها البنا كان قد انفرط عقدها في حياته وأصبحت تمارس العنف دون إذنٍ منه وهذا في حياته فما بالها بعد وفاته؟

ويمكن أن نلمس ذلك من خلال الحوار شديد الأهمية الذي سجله الدكتور عبد العزيز كامل في مذكراته (في نهر الحياة) وكان شاهد عليه بين البنا وعبد الرحمن السندي رئيس التنظيم الخاص بعد اغتيال المستشار أحمد بيك الخازندار بأيدي الجماعة، وكان البنا في غاية التوتر حتى أنه سها في عدد ركعات صلاة العشاء حيث حمل كلا الطرفين المسؤولية عن الاغتيال للآخر، حيث تحدث البنا أنه لم يصدر أمراً بهذا الاغتيال وكل ما قاله لا يعدو الأمنية " لو ربنا يخلصنا منه" لكن السندي اعتبر أمنية الخلاص أمراً له بالتنفيذ.. ثم تلا ذلك اغتيال سليم زكي حكمدار العاصمة في **4** ديسمبر **1948** وبعد قرار حل الجماعة من جانب محمود فهمي

النقراشي باشا رئيس الوزراء أصبح هو الآخر في مرمى انتقام الجماعة والاقدام على اغتياله في **28**ديسمبر **1948**.. أدرك البنا أن كل هذه الجرائم لن تمر مرور الكرام، فحاول التنصل من المسؤولية أو على الأقل تخفيف حدة الإجراءات المنتظرة بحقه وبحق الجماعة فأصدر بياناً "ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين" لكن الدولة أدركت خطورة استمرار الوضع على هذا النحو وقرر إبراهيم عبد الهادي رئيس الوزراء اغتيال البنا بواسطة البوليس السياسي لصعوبة اعتقاله وهو ما قد تم بالفعل لتحاول الجماعة بعد ذلك اغتيال إبراهيم عبد الهادي وتفشل..

6-قهوة الخرس

في عدد **1** يونيو **1930** من مجلة الدنيا المصورة حمل تقريراً طريفاً عن قهوة الخرس أغرب قهاوي القاهرة بشارع كلوت بيك بحارة بين الحارات وصاحبها المعلم سيد محمد عيسوى وبحسب المجلة فهي القهوة الوحيدة في القاهرة الخاصة بالبكم، بل هي "معقلهم الذي يلجؤون إليه ودار ندوتهم" التي يؤلفون فيها "برلمانهم الصامت".

وقد بلغ حرص المعلم مبلغاً كبيراً في العناية بزبائنه الصامتين؛ فجعل مساعده في القهوة أحد أولئك البكم "لأنه يعرف في كثير من البساطة رغبات الزبائن الصامتين".

من الجدير بالذكر أن إنشاء أول مدرسة للصم والبكم في مصر جاء بين عامي **1904-1906** بمبادرة تطوعية من عبد الله الأدلبي (أمه أيرلندية ووالده سوري مسيحي) الذي فقد سمعه في مصر وبمشاركة باريس أفندي يوسف الذي وفر منزلاً بالزقازيق لهذه المهمة، وقد نالت التجربة إعجاب اللورد كرومر وإدريس بيك راغب (احفظ هذا الاسم جيداً، فلنا معه موعد خاص في جزء قادم)..

7- لا تزعج الموتى

في كتاب (حكايات من بحور التاريخ) تحدثت عن مقبرة الأميرة شويكار الزوجة الأولى للملك فؤاد وغرابتها لكن الأغرب منها هو ضريح المرحوم قاسم بيك رسمي محافظ العاصمة وصاحب الأوقاف الخيرية الكثيرة..

ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم عدم استحباب دفن الموتى ليلاً، فقد أخرج مسلم في "صحيحه" عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ يَوْمًا، فَذَكَرَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ قُبِضَ فَكُفِّنَ فِي كَفَنٍ غَيْرِ طَائِلٍ، وَقُبِرَ لَيْلًا، فَزَجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُقْبَرَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يُضْطَرَّ إِنْسَانٌ إِلَى ذَلِكَ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا كَفَّنَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، فَليحسن كَفَنَهُ».وقد علل الإمام النووي الحكمة في ذلك بقوله: (وأما النهي عن القبر

ليلاً حتى يصلي عليه، فقيل سببه أن الدفن نهاراً يحضره كثيرون من الناس ويصلون عليه ولا يحضره في الليل إلا أفراد. وقيل لأنهم كانوا يفعلون ذلك بالليل لرداءة الكفن فلا يبين في الليل ويؤيده أول الحديث وآخره).

وقد شاع بين الناس قديماً الخوف من الدفن ليلاً وما ينتج عنه من تقصير في حق الميت، ولعل هذا هو السبب الذي حدا قاسم باشا رسمي وأسرته إلى وضع ثريا أي نجفة كبيرة فاخرة في ضريحه فبحسب مجلة الدنيا وكل شيء عام **1938** وتحت عنوان "موتى ينامون في ضوء الكهرباء" جاء وصف هذه النجفة" تتدلى من قبته وتنار بالكهرباء لتظهر ما ازدانت به جدرانه وسقفه وأرضه من بدائع النقوش العربية وفخامة الأثاث وتحت القبة فناء فسيح ذو باب أوتوماتيكي يدخل منه ضيفه الأبدي ويوسد فيه على ضوء مصابيح الكهرباء."

ومن أغرب المقابر أيضاً قبر (إيريني زوربداكي أو زرفوداكي) ١٨٨٨م ضمن المقابر اليونانية في الإسكندرية ويأخذ شكل فتاة نائمة هي إيريني وملاك طيب يقف على خدمتها ويطلب من زوارها التزام الصمت وعدم إزعاجها ويقال: إنّ الفتاة ماتت في سن صغيرة (**19** عاماً) وإنّ والدها كان من الأثرياء وهو من صنع لها هذه المقبرة أسفاً وحزناً وعدم تصديق؛ فقد كانت وحيدته!! من الأحرى أن يأخذنا المشهد المؤثر الأخير إلى نموذج من الرثاء القديم ففي رسالة مؤثرة من أم لابنتها تقول: "ذكراك في العيد.. ابنتي

العزيزة.. سلام الله عليك في روضات الجنات في مقعد صدق عند مليك مقتدر.. تواضع الناس على أن يتزاوروا في الأعياد ويتبادلوا التحيات الطيبات.. فيسعى بعضهم إلى حيث يرى البعض الآخر حتى أهل القبور ينالون نصيبهم من التزاور في مثل هذا اليوم.. أما أنا وأنت يا فلذة كبدي فلسنا عند هذا الرأي، فإني أراك روحاً لطيفة يتجاوب أنسها الحبيب ويمسني شذاها الذكي ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً.. فليكن نصيبك مني في هذا العيد هذه الكلمة تفصح عن كوامن نفسي ولا تكاد تبين وليكن لك من قلبي توجه صادق إلى الله الرؤوف الرحيم أن يزيد في نعيمك ويحمل فيك على مر الزمان عزائي حتى ألقاك في جنات النعيم.. والدتك".

8- ممثلة مصر الخديوية

تعرضت لخفايا حياة الخديوي عباس حلمي الثاني في كتاب حواديت المحروسة، وما كشفت عنه الأميرة جاويدان هانم مطلقته لكن المصور في عددها **140** بتاريخ **17** يونيو **1927** تحمل لنا خبراً عن جاويدان شديد الطرافة وهو أنها تخطو أولى خطواتها في عالم التمثيل السينمائي حيث ارتبطت الأميرة والقاطنة ببرلين بإحدى الشركات الكبرى علاوة على أنها تعزف على البيانو ومن الموسيقيات البارعات.. انطلاقة الأميرة نحو التمثيل

لم تأتِ من فراغ، بل لها إرهاصاتها التي نلمحها بمذكراتها إذ ذكرت أنها كانت تتنكر في زي رجل لتصحب زوجها في الزيارات الرسمية..

وعلى الخطى نفسها سارت الملكة فريدة (صافيناز ذو الفقار) طليقة الملك فاروق الأولى والتي احترفت الرسم؛ خاصة وأنّ خالها هو الفنان الكبير محمود سعيد، وأقامت عدة معارض دولية.

9-ألاعيب الحواة والسحرة

من الكتب الطريفة حول ألاعيب الحواة كتاب (توت حاوي) وعليه بيتان طريفان: " اسم الكتاب مهزأ. لكنه ما أكمله.... كم زبلة في روضة. ودرة في مزبلة" والكتاب يرجع إلى عام **1927** وكتب على غلافه طبع على نفقة ملتزمه الشيخ محمود حجاج الكتبي -المطبعة المليجية بمصر ويطلب من شارع نور الدين بالزقازيق..

لماذا حرصت على أن أحدثكم عن المطبعة في هذا الجزء؟

المفترض أن المطبعة المليجية نسبة للشيخ أحمد بن علي المليجي الكتبي والذي أتيت على سيرته ودعوته بشيء من التفصيل في كتابي صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر... الغريب أن المطبعة اعتمدت في منهجها على طبع كتب التراث، ولكن تحول المطبعة من الجد إلى الهزل بطبع كتاب عن الحواة أمر لا أجد تفسير له سوى السعي للكسب المادي..

نعود لموضوعنا... حيث تعني عبارة "توت حاوي توت" أي أن الحاوي يتكلم بالعلم والمعرفة بلسان الإله توت وتوت أو تحوت هو إله الحكمة عند الفراعنة..

في نفس عام صدور هذا الكتاب حضر إلى مصر أعجوبة العصر الدكتور طهرا بيك الساحر بحسب اللطائف المصورة في عددها **664** بتاريخ **31** أكتوبر **1927** وتتلخص سيرة الرجل بحسب المجلة في أنه من مواليد الأستانة ومتخرج من كلياتها الطبية ودرس ما أسماه بعلم "الفقير زم" على يد الشيخ المصري الفلكي..

وعلم الفقير زم بحسب تعريف طهرا بيك له يتلخص في أن الإنسان مركب من ثلاثة عناصر: الجسم والنفس والروح وللنفس قوتان إحداهما متصلة بالجسم تدير حركاته والأخرى متصلة بقوة خفية عظيمة هي باسم الله والغرض من هذا العلم البحث عن هذه القوة النفسية وإنمائها ومن هذا كله أصبح متحكماً في دورته الدموية، فلا يسيل منه الدم وفي تنفسه فلا يموت بالدفن لساعات أو أيام..!!

في **2** نوفمبر **1927** أقام طهرا بيك حفلة عظيمة على المسرح بمصر وكان بين الحاضرين أطباء ورجال الصحافة من مصر والعالم ورفع الستار عن

الدكتور طهرا وقد ارتدى لباسه العربي الأبيض وعلى رأسه العقال وراح يشرح نظرياته العلمية فيما تصاعدت رائحة البخور في أرجاء المسرح..

تضمنت فقرات الحفل في الفصل الأول غيابه عن الوعي عبر وضع يديه على صدغيه والضغط بأصابعه على الوريدين الموصلين الدم إلى رأسه، ثم عودة الوعي له مرة أخرى بعدما وضع شخص على بطنه حجراً، ثم هوى عليه بمطرقة فانكسر دون أن يصاب طهرا بسوء وفي فقرة أخرى تناول طهرا خنجراً كبيراً وأدخله بمقدار **5** سم في الجزء الأسفل من عنقه، ثم وضع دبابيس في مناطق من جسده فسال الدم منها على ثوبه دون أن يتألم، ثم استلقى على لوح خشبي به مسامير حادة طولها أكثر من **10** سم دون أن يتألم أيضاً.

أما الفصل الثاني فتضمن قراءة الأفكار عن الماضي والحاضر والتنويم المغناطيسي لديكين وأرنب كبير بمجرد لمسهم، ثم جاء المشهد الذي اشتهر عنه وهو الخروج حياً بعد دفنه بساعات أو بأيام... حيث دفن في صندوق مفرغ من الهواء لمدة عشر دقائق وسد أنفه بقطن وأهالوا عليه التراب وسدوا الصندوق بغطائه وأحكم سده من الخارج بالرمال وبعد مضي العشر دقائق كشف التراب عن الصندوق وخرج منه حياً ووقف على المسرح وراح يوزع على جمهوره أوراقاً صغيرة بها طلاسم مفيدة..

المحزن أن مثل هذه الألعاب السحرية ومنطقها المفترى على العلم دون أدلة منطقية حقيقية أو حجج علمية دامغة انطلت على مشايخ هذا الزمان ومنهم شيخ بحجم ومكانة حكيم الإسلام (طنطاوي جوهري) فضمها لتفسيره "الجواهر في تفسير القرآن الكريم..."

ففي تفسيره لقوله تعالى في سورة الإسراء: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (**85**)) وفي معنى أمر الله نقل الشيخ عن ابن سينا قوله: إنّ القوة الروحية في الإنسان قد تظهر فيخبر بأمور غائبة أو يقوى على أعمال جسمية ضارباً من واقعه بأمثلة على ذلك من بينها طهرا بيك....!!!

لذا ينبغي لعالم الدين أن ينتبه وأن يتريث وأن يكون أكثر الناس بحثاً وتنقيباً عن الحقائق لا مجرد ناقل وكفى! وعليه أن يتذكر أن مسؤولية مجتمعية كبيرة يحملها في عنقه أمام الله وهي حماية الناس من العبث بعقولهم وأفئدتهم..

من الكتب الطريفة التي وقعت تحت يدي وتندرج نحو ما نسميه اليوم بلغة الجسد، ولكن في صورة بدائية هو (كتاب: قراءة الوجه بحث علمي لمميزات الوجه موضح بنحو **160** صورة شمسية للملوك والعظماء ومشهوري الثقافة والفن والأدب المعاصرين) تأليف محمد محمد الحريري (الفلكي

البيومي) سكرتير بالنيابة العمومية سابقاً وبالمعاش الآن ونعتمد هنا طبعته الأولى **1937**..

في وجهة نظري إهداء الكتاب كان الأكثر طرافة من محتواه إذ جاء إلى حضرة صاحب السعادة أحمد حسنين باشا رائد جلالة الملك الكريم (لماذا؟!) تعليله لهذا الإهداء الغريب في قوله: "ولما كنت حسن السمت رضيّ الأخلاق مع تواضع عال ووجه وسيم بسيم وكريم نجل كريم توسمت في وجهك العظيم أن تكون أولى من يقدم إليه كتابي "قراءة الوجه" فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز المبين: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ".. نظرة سريعة على المحتوى ستعلم مثلاً أن شفة السيدة منيرة المهدية تدل على الكرم والسخاء وأن الراقصة المعروفة صفية حلمي تمتاز بجمال الخدود أما كمال الوجه فمن نصيب الآنسة هدى شعراوي في سن السابعة عشر وأن عيون الإمام محمد عبده نافذة الكلمة قوية الحجة!!!

نأتي لكتاب (الكف وأسرار النفس) لأحمد السنوسي اختصاصي الحالات النفسية **1941** وجولة شيقة مع كفوف مشاهير العصر ومنهم مثلاً الفنانة أمينة رزق ففي طول الأصابع ودقتها استعداد طبيعي للفنون ونجاح بها والبنصر أطول من السبابة في كلتا اليدين علامة على طلب الفن لذات الفن أي السعي للمثل العليا دون تكالب على المادة ودون تخاذل أمام الصعاب، أما ضعف خط الرأس في كلتا اليدين؛ فدليل على بعض الأزمات النفسية

فيما أتى خط القلب متقطعاً دلالة على ضرورة الاحتراس من الإسراف في الجهود الجسمانية والعقلية وفي خط عطارد (خط الصحة) إشارات تنصح ببذل العناية التامة بالجهاز الهضمي، وفي مربع كل من اليدين علامات على الميل إلى مذهب المحافظين من حيث العادات والتقاليد وسلامة العقيدة الدينية..

10-زمن السيد تلميذ!!

تتحدث أغلب المواقع الإلكترونية عن أن برنامج التغذية المدرسية بدأ في أربعينيات القرن الماضي، بإصدار الملك فاروق قانون **25** لسنة **1942** والذي يُلزم الدولة بتوفير نفقات التغذية لمراحل التعليم الأولى، وذلك لتحفيز الطلاب على الذهاب للمدرسة ودعم أسرهم الفقيرة.

البحث في الأوراق القديمة دائماً ما يكشف بعض الحقائق ويصحح بعض التواريخ وهي ظاهرة أراها صحية جداً.. فحينما أجد عدداً نادراً من صحيفة مدرسة طنطا الابتدائية الأميرية في مايو **1933** يحتوي على مقال عن التغذية المدرسية بالمدرسة، إذاً فالتاريخ المتداول لبداية التغذية المدرسية في الأربعينيات على المواقع الإلكترونية بحاجة لمزيد من التدقيق...

الفريد في مقال (محمد ناظم عمر) ضابط المدرسة والمعنون "كيف يصل طعام الغذاء إلى التلاميذ" والمنشور بمجلة المدرسة أنه يتضمن وصفاً دقيقاً

لجودة الغذاء المقدم إلى التلاميذ وفق معايير وزارة المعارف في هذا الزمان المبكر (**1933**).

فاللحم مثلاً يشترط أن يكون من الضأن البلدي من نتاج القطر المصري ذكراً صغيراً غير هزيل، أو من لحم الجاموس الذكر الصغير ولضمان الجودة أُعِدَ في المذبح خاتم خاص بوزارة المعارف تدمغ به اللحوم الصالحة والموافقة للشروط والأرز من النوع الرشيدي المضروب بالملح وهو أفخر أنواع الأرز وأغلاها ثمناً، والسمن والبقول والخضر والألبان والفاكهة من أجود الأنواع وتتولى عملية الانتقاء والمراقبة لجنة لا يقل أعضاؤها عن ثلاثة برئاسة حضرة الناظر فضلاً عن طبيب الوزارة وبالمدرسة ثلاثة طهاة ويشرف عليهم ناظر المدرسة شخصياً، فيتذوق الطعام بنفسه يومياً قبل تقديمه للتلاميذ، وإذا وجد أي عيب أو نقص في طريقة الطهي أوقع بالطاهي المهمل عقاباً صارماً ورادعاً.. أما الطهى ففي أوان نظيفة تغسل يومياً بالصابون والماء الساخن وتطلى كل أسبوع ويقوم ضابط المدرسة بالإشراف على توزيع الطعام توزيعاً عادلاً..

ويتحدث ضابط المدرسة أنّ دافعه لكتابة المقال قسمين من التلاميذ أولهما يعرض عن طعام المدرسة من باب الخيلاء والاحتقار مقارنة بالألوان الفاخرة من الطعام التي تقدم إليهم في منازلهم أما القسم الثاني فيعرض

عنه لاعتقاده أن طعام المدرسة لا يُعنى به العناية الكافية ليؤكد للقسمين أن طعام المدرسة من أفخر الأنواع...

طبعاً شتان بين الماضي والحاضر في هذه المشاهد فقد كانت الوجبات المدرسية في جيلي مكونة من خبز وعبوة مربى صغيرة وشريحة من جبن المثلثات ووقت توزيعها كان هو وقت اندلاع المعارك بين الطلبة للفوز بالمربى قبل نفادها، ولا أنسى رقابة ناظر المدرسة الهمام في مدرستي والذي كان يسب الدين للطلبة في طابور الصباح والعصا الغليظة في يده مهدداً ومتوعداً من يلقي شيئاً في فناء المدرسة مع أن المدرسة لم يكن بها سلة مهملات واحدة!

11-كرسي المعلم

إن ظاهرة التنمر في مصر ظاهرة قديمة للغاية، فقد كانت لغة قائمة بذاتها للمداعبة والضحك أحياناً وللكيد والشماتة أحياناً أخرى تغزو تقريباً كل المجالس فهي في عالم السياسة والفن والرياضة والصحافة أيضاً... ولم تأخذ شكلها الحالي كمظهر من المظاهر التي تحط من قدر الإنسان وتنال من حقوقه وتضعف قواه النفسية خاصة بين الأطفال إلا مؤخراً مع الدعوات العالمية التي أطلقتها الهيئات الحقوقية الدولية ومنها حملة اليونيسف "أنا ضد التنمر".

ولأننا في مبحثنا نوغل في القدم فحديثنا سيكون من صحافة أهل البلد وتحديداً مجلة ابن البلد العدد **12** في **26** يناير **1952** وتقرير منها عن المعلم "شوال" المصارع والحلواني والذي حقق رقماً قياسياً بحمل عشرة رجال معلقين في كتلة من الخشب، لكن السمنة المفرطة أصابته والتي يرجعها للعين التي أصابته "يوم حمل الرجال العشرة كأنهم لعب أطفال" المعلم يعمل بالليل ويتنقل على متن عربة الكارو فيجلس على كرسين اثنين..

الطريف أن المعرض الزراعي الصناعي السادس عشر عام **1949** قدم للمعلم حلاً لمشكلته، حيث وجد هناك عند صديقه الأستاذ يوسف نصر العفيفي صاحب كرسي العفي كرسياً كبيراً معداً للإعلان، فجلس عليه ولأول مرة يجلس المعلم على كرسي واحد... تحول رواد المعرض للفرجة على الكرسي الكبير "واتخن تخين" بحسب لغة المجلة!!! مما أدى للزحام الشديد فاتصل فؤاد باشا أباظة بصاحب كرسي العفي حتى ينزل المعلم عن الكرسي ويخف الزحام..

12-بيضات الملك

من الهدايا الطريفة التي أهديت للملك فاروق **5** بيضات من الوجيه (محمد سليم التركي) ومن تصميم الفنان التركي "جميل يايقال" وبحسب مجلة

المصور العدد **1097** في **19** أكتوبر **1945** فالبيضة الأولى كتب عليها: "يعيش جامع الدول العربية جلالة الملك فاروق الأول".

والبيضة الثانية: "آنجيت الإسلام يا فاروق الزمان من ذل الأعادي بنور فكرك القاطع اسمك في القلوب مرسوم وفي التاريخ بالذهب اللامع".

البيضة الثالثة: "نصر من الله لفاروق مصر الأول الذي نوره وعرفانه عم الشرق والغرب".

البيضة الرابعة: "يعيش ملك مصر والسودان حشمتلو فاروق الأول".

والبيضة الخامسة والأخيرة: "مناظر أثرية في إسطنبول والقاهرة"..

13- بائعة الصحف

صوت شجي لبائعة طاعنة بالسن تطوف حينا بالزقازيق كل يوم جمعة "جرائد... جرائد" لا تسأل الناس إلحافاً ولا تقبل إحساناً، بل تعد نفسها أغنى الناس بما أوتيت من تعفف ورزق قليل من حصيلة بيع الصحف.. طافت على مخيلتي هذه الذكرى وأنا أقلب في تركتي الثقيلة من الصحف القديمة واقرأ هذه الطرفة من مجلة المصور في عددها **23** يوم **27** مارس **1925** حول أول بائعة جرائد بطنطا، بعد أن بدأت البنات في مزاحمة الأولاد في بيعها وذيّل الموضوع بصورة لفردوس بنت المعلم علي الشرقاوي أول بائعة جرائد بطنطا أثناء قيامها بعملها..

14-صراع على إرث فنان مشهور

من الأمور التي كانت شبه متفق عليها أن نجيب الريحاني الفنان المشهور لم ينجب طوال حياته إلى أن ظهرت سيدة كبيرة بالسن تقترب ملامحها من ملامحه تدعى جينا زعمت أنها ابنته من راقصة فرنسية (وقيل ألمانية) تدعى (لوسي دي فرناي) وهي مسألة لم تحسم فصحيح أن الريحاني يعترف في مذكراته بعلاقته بلوسي، لكنه لم يشر إلى أي أبناء له من هذه العلاقة..

الطريف هو ما وجدته بالمصادفة بصحيفة الرقيب في عددها **75** بتاريخ **2** أكتوبر **1928** فعلى هامش حوار مع نجيب الريحاني عن الإعانة التي تعتزم الدولة تقديمها للفرق المسرحية نشرت الصحيفة صورة تجمع الريحاني بحرمه بديعة مصابني (بطلة فرقته المسرحية) وابنتهما مدام جولييت.

فهل أخطأت الصحيفة؟! تملكني الشغف في معرفة حقيقة هذا الأمر الذي بدا جديداً بالنسبة لي، وبالفعل وجدت من خلال بحثي أن لهما ابنة ولكن بالتبني أو ابنة الزوجة بالتبني..

لكن الموضوع لم ينتهِ عند هذا؛ فبعد وفاة الريحاني بدأ خلاف ينشب بين ورثته وتحديداً بين طليقته بديعة مصابني والابنة بالتبني جولييت من ناحية وشقيقه يوسف من ناحية أخرى على تركته التي تقدر بمائة ألف جنيه، حيث تنوعت ممتلكاته ما بين مسرح بعماد الدين وشقة في عمارة الإيموبيليا ومنزل في حدائق القبة بتصميم إيطالي ودار للممثلين المتقاعدين وأموال وسندات بالبنك الأهلي المصري بقيمة خمسين ألف

جنيه.. ادعت بديعة أنها تزوجت من الريحاني على المذهب الكاثوليكي وبالتالي فطلاقهما غير ممكن، وأنهما كانا منفصلين، لكن دون طلاق رسمي واستصدرت من الكنيسة شهادة بكونها أرملته أما جولييت فبحسب زعمها فقد استصدر لها الريحاني كافة الوثائق الرسمية التي تثبت بنوته لها سواء أثناء التحاقها بمدرسة والدة الإله بجاردن سيتي (حالياً المير دي ديو) أو في رحلتهم جميعاً لأمريكا والبرازيل.. الطريف أن ساحة المحكمة الشرعية برئاسة حضرة صاحب الفضيلة الشيخ أحمد إبراهيم مغيث نائب المحكمة، وعضوية حضرتي الفاضلين الشيخ عبد الله العطار، والشيخ محمد فهمي السيد من قضاتها، وبحضور محمود أفندي سويلم كاتب الجلسة هي التي شهدت وقائع هذه القضية... استقرت المحكمة أنه لا نزاع بين الطرفين في قيام الزوجية بين بديعة ونجيب منذ **11** سبتمبر **1924** وحتى **7**أبريل **1944** تاريخ فسخ العقد، وأن المشكلة تنحصر في حقيقة نسب الابنة جولييت والأنساب لا تثبت بالظنون كاشفة أن تبني بديعة لجولييت كان سابقاً على زواجها من الريحاني، وأنها في الحقيقة هي ابنة سمعان الخراط ومولودة بالشام، وقد كان عمرها ثلاث سنوات عندما أخذتها السيدة بديعة مصابني من دير الراهبات بالشام، وكان والدها ميتاً كما جاءت شهادة زواجها من أنطون ميخائيل عيسى باسمها الحقيقي جولييت سمعان وكذلك شهادة ميلاد ابنتها من هذا الزواج، وكان لمذكرات

نجيب دوراً مهماً في حسم هذا الصراع القضائي لصالح شقيقه يوسف، حيث جاء ذكر جولييت أو جوجو بالمذكرات دائماً باعتبارها ابنة السيدة بديعة ولو كانت ابنته لكان الأولى أن ينسبها لنفسه وهو ما لم يحدث مطلقاً..

15-مسابقات زمان

لعلنا نحن جيل الثمانينيات جيلٌ محظوظٌ إذ أدركنا شطراً من المسابقات التي لا تمحى من الذاكرة.. "بمبم بيقدم جوائز" و"جوائز الشمعدان" ومسابقات الكوكاكولا والبيبسي للفوز بدراجة وأكياس الكاراتيه المحتوية على نقود والمسابقات الثقافية بمجلات ماجد وعلاء الدين..

قديماً كانت المسابقات كما عشناها في المشاهد السابقة مع بعض الاختلافات البسيطة.

أكثر المسابقات القديمة تشويقاً تلك التي كانت تقيمها المجلات بشأن أجمل عيون أو أجمل طفل أو أجمل سيدة..

ومن أشهرها مسابقة مجلة المصور عام **1925** لأجمل طفل في مصر والتي فاز بها ثلاثة أطفال هم: هيام نور كريمة محمود بيك، نور بحلوان وزينب أحمد نجيب كريمة أحمد بيك نجيب بكوبري القبة، وهارولد متري نجل شكري أفندي متري بمصر. والجوائز كانت آلة سينما توغرافية مع ستة

أشرطة لروايات مختلفة من محل شيكوريل ودستة صور من تصوير المسيو هنزلمان وعلبتيّ بسكويت وعلبة توفي وصندوق شيكولاته مكنتوش من الشركة المصرية البريطانية نيولاند ومفرج. الجميل في هذه المسابقة هو إتاحة فرص الفوز للقراء ممن توقعوا أسماء الفائزين وترتيبهم وتنوعت الجوائز بين مالية واشتراك لسنة في إحدى المجلات المصور أو كل شيء أو الفكاهة...

من مسابقات الجمال بين الأطفال كانت مسابقة مجلة العروسة لصغار البنين والبنات وجوائزها عشرون جنيهاً مصرياً، وبدأتها المجلة في عددها **185** في **15** اغسطس **1928** وحتى **15** نوفمبر من العام ذاته وتعطينا المجلة نبذة يسيرة عن اللجنة التي تشكلت للمفاضلة بين الأطفال والمؤلفة من مصور وطبيب ومحامٍ!

لم تقتصر إعلانات مسابقات الجمال بين الأطفال على الصحف والمجلات والواضح أنها كانت صيحة في هذه الآونة فتحت عنوان "أجمل فتاة في مصر" نشرت مجلة المصور في عددها **22** بتاريخ **20** مارس **1925** عن مسابقة للأطفال والأولاد الصغار، أقيم في معرض المصنوعات الدائم في لونابارك في هليوبوليس فقصده كثير من الأمهات مع أولادهن ونالت الجائزة الأولى بين البنات من (**9-10** سنوات) الآنسة رينيه حمو واحتلت صورتها الصفحة الأولى من تصوير هنزلمان...

نأتي لمسابقة تصويرية حملت اسم "أين الحمار" نظمتها مجلة اللطائف المصورة في **28** مايو **1917** حيث صور المصور الحمار وقطعه إرباً إرباً والمطلوب من المتسابقين إعادة تركيب الصورة والجائزة **1500** قرش صاغ توزع بالتساوي على الفائزين وجاءت نتيجة المسابقة في **25** يونيو **1917** وفاز بها سليمان أفندي سليمان بالإسكندرية..

هل جربت أن تنظم مسابقة في أفضل هجاء لشخصك؟

هذا ما فعلته مجلة سركيس وكان يصدرها الأديب اللبناني سليم سركيس عام **1922** حينما نظمت مسابقة لأفضل قصيدة هجاء موجهة لصاحبها وقيمة الجائزة أربعة جنيهات وكانت القصيدة الفائزة في هجو سركيس للشاعر الياس فياض.. تقول القصيدة:

"عجباً تحاولُ أَن تنال هجاءَ ... أَتراكَ قبلَ اليوم نلتَ ثناءَ

أَينَ المشيرُ وأَين أَيامٌ مضت ... فيها ملأتَ الخافقَين عداءَ

أَنسيتَ تلك الحرب حين أَثرتها ... وحملتَ تلك الحملةَ الشعواءَ

وإِذ الورى يتجنبونك مثلما... يتجنَّبون العنزةَ الجرباءَ

وإِذا اسمكَ الملعون كافٍ وحدهُ ... لينيلَ لافظَهُ العذابَ جزاءَ"

ومن الهجاء إلى المديح وهل المديح في مصر إلا نفاقاً مزمناً.. إذاً لنحط رحالنا ومسابقة البطولة ولقب للبطل حيث أعلنت مجلة الاثنين بعد ثورة

1952 عن مسابقة بين قرائها للقب الذي يمنحونه لمحمد نجيب وجاء تقديم المسابقة على النحو التالي: "منذ بدأت حركة الجيش المباركة وارتفع اسم محمد نجيب إلى أعلى سارية في التاريخ المصري الحديث والشعب كل يوم يطلق عليه لقباً جديداً..

فمن قائل محطم الطغيان ومن قائل بطل التحرير ومن قائل ساحق الظلم إلى آخر ما جادت به قريحة الشعب وعبرت عنه عواطفه من ألقاب يعتز بها محمد نجيب.. ولقد رفض محمد نجيب رتبة الفريق وأصر أن يبقى كما هو اللواء محمد نجيب لا أكثر والاثنين تفتح مسابقة لقرائها... إن الشعب مصدر السلطات ويجب تبعاً لذلك أن يكون مانح الألقاب والرتب.. فما هو اللقب الذي تمنحه لمحمد نجيب؟ وكانت الجوائز للأول عشرة جنيهات والثاني خمسة جنيهات ومن الثالث للسابع جنيهاً واحداً (حقيقي المقابل المالي غير مشجع)".

كما كانت الصحف والمجلات تمنح أموالاً نظير النكت كما في إعلان اللطائف المصورة في **8** أكتوبر **1917** أن من يرسل للمجلة نكتة أو فكاهة أو لطيفة أو ملحة أو ظريفة أو نادرة أو قطعة فيها ما يسري الهموم ويزيل الغموم ويجعل القارئ حين قراءتها يضحك بملء شدقيه شريطة حصريتها ترسل إليه المجلة عشرة قروش صاغ.

16-مقالب صحافة زمان

-المقلب الأول: هروب الفيل.

عادة ما تكون الصحافة جادة بشأن ملاحظات قرائها حول موضوعات الجريدة، لكن مجلة آخر ساعة في عددها **1627** في **29** ديسمبر **1965** قررت أن تسلك مسلكاً آخر، وتداعب أحد القراء ممن اتهموها بعدم الجدية في عرض موضوعاتها مقارنة بالأهرام والأخبار فوصفته في المقابل بالسذاجة وهو الأمر المؤسف وأصدرت صفحة هزلية من الأخبار لمداعبة القارئ والسخرية منه أيضاً بعنوان "هرب" احتوت على متابعة الصحيفة لهروب الفيل "كوكو حسني" من حديقة الحيوان بعد مغافلته لحارسه.. الفيل الهارب "يقول للناس لا تخافوا أنا طيب".. الفيل يشاهد معالم القاهرة ويدخل الملاهي ويرقص التويست وفي النهاية تخبرنا الصحفة عن عودة الفيل الهارب وإدلائه بتصريحات بعد عودته!!!

-المقلب الثاني: الآنسة ٧٧

هذه القصة أيضاً من مجلة آخر ساعة والتي قررت أن ترصد حجم الفساد الأخلاقي داخل المجتمع المصري في الأربعينيات فنشرت خبراً لدى صحيفة الأهرام عن طلب عمل لآنسة مثقفة تجيد عدة لغات ولها إلمام بعدة وظائف وتبحث عن عمل بأجر يتفق عليه وعينت الصحيفة رقم **77**

للمخابرة.. وبحسب إحصاء الصحيفة فقد ورد ما يقارب من ثلاثمائة رسالة على الرقم في غضون ثلاثة أيام فقط (طبعاً رقم مبالغ فيه للغاية) من طلاب وموظفين وأطباء ومحامين ومن رجل أعمال أيضاً!! وبفحص مجموعة من هذه الرسائل وجدت الصحيفة أنماطاً من الرسائل على شاكلة رسائل الفيس بوك حالياً تعكسُ تدنياً أخلاقياً كبيراً، فهناك طلبات للمواعدة وأخرى للعلاقات المحرمة، وأخرى للزواج دون سابق معرفة.. وجاءت بعض عبارات الرسائل على شاكلة "أعدك أنك ستكونين سعيدة بل أسعد مما تتصورين" و"لا أدري لماذا خفق قلبي عند قراءة إعلانك لعل في ذلك حكمة؟" وحملت هذه التحليلات عنوان " إعلان (احتوى العنوان على خطأ في وضع الهمزة لأعلى "أعلان" مما يعطي فكرة عن أن مواضع الهمزات في صحافة زمان لم تكن بكل هذه الأهمية) وقع فيه جمهور العشاق.. هل أنت أحد الذين كتبوا إلى الآنسة **77"** ونشر في آخر ساعة في عددها **596** بتاريخ **22**مارس **1946.**

17- وصفات الحب والزواج

تزوجت النجمة ليلى مراد من الفنان الصاعد متعدد المواهب أنور وجدي في **15** يوليو **1945** وهي على الدين الإسرائيلي (إسرائيل تعني مصارع الله وهو لقب النبي يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ومنه اشتقت

تسمية الطائفة الإسرائيلية في مصر).. ووقع الطلاق بينهما بسبب الأطماع المادية لأنور وجدي، ولكن قبل الزواج به يا ترى من الرجل الذي لا تنساه؟!! بحسب ما صرحت به لمجلة الاثنين في عدد خاص عام **1941** أنه أبولو تمثال الرياضة!! وتعلل ذلك ببراءة شديدة ومثالية مفرطة فهو لا شبيه له بين الرجال يحمل قلباً لا يتطرق إليه التقلب وعلى شفتيه ابتسامة تغري بتقبيلهما وفي تكوين جسمه جمال الرجولة وفتنة الصبا وروعة الحياة وهو دائم الوفاء لها كما عرفته صامتاً، ولكنه في صمته يحكي قصص الغرام الأبدي والهوى الخالد!

فهل وجدت صفات أبولو لدى أنور وجدي؟!!

في مقال نشرته ليلى مراد في مجلة الكواكب في عددها **44** في **3**يونيو عام **1952** تحت عنوان "كيف تروضين زوجك" نصحت الفنانة الزوجات بترك مساحة لأزواجهن في الاختلاء بالنفس والاستمتاع بلحظات من الهدوء والحرية والاستجمام خاصة في الأوقات التي يكون فيها الزوج منهمكاً في عمله أو مستغرقاً في التفكير وأن الزوجة العاقلة من تسرع لإعداد مشروب أو طعام شهي وتضعه بكل هدوء وأن هذه الوصفة أتت ثمارها مع زوجها "أنور " حيث ترقبه من بعيد حينما يكون منهمكاً في القراءة.. وتختتم مقالها بأثر وصفتها في تحول الرجل فتقول: "ثقي أن الأسد الثائر سينقلب إلى حمل وديع وسيطلق لسانه متحدثاً بكل ما مر به أثناء يومه

وسيصارحك بكل ما يحويه قلبه من مشاكل" لكن وصفة الست ليلى لم تمنع طلاقها من زوجها في نفس العام للمرة الثالثة والبحث عن محلل!!.

سبحان الله وكأننا لا نحكم على الأشياء إلا من ظاهرها ولربما كانت غاية أشهر مطربات العصر هو مجرد الستر ولا شيء سواه وغاية ما يتمناه البعض منا من الشهرة وحصد الأضواء كانت هي تطلب عكسه تماماً ففي مجلة الكواكب وبعد عامين من المقال الأول كتبت ليلى مراد بعنوان "أنا" فهي ابنة الحظين الباسم والعاثر والضاحك والعابس.. يراها الناس ذات صوت شجي أخاذ يشي بمطربة محظوظة ذات "طالع سعد نادر" ولكن الحقيقة أنها في رحلة عذاب تقاسيها وأنها لم تتمنَّ أن تكون مغنية، بل غاية أحلامها أن تصبح مدرسة أو زوجة كباقي الزوجات السعيدات.. لكن ضيق سعة اليد دفعت أباها لإلحاقها بالعمل بالغناء كورقة أخيرة في يده على مائدة الحياة "كي يستمد القوت له ولإخوتي مني" وعن حياتها الجديدة ترى أنها حرمتها الزواج الموفق وأنها أذابت روح قلبها في الفن طمعاً في الصعود وخوفاً من الفشل، فإذا بها لا تستعيد ذوب القلب ولا النوم قريرة العين "ومازلت أبكي لا خوفاً من الفشل بل أسفاً على ما فات.."

وبالمناسبة فلا صحة أن أنور وجدي دعا في بداية حياته بالشهرة والموت أو أنه قال كما أشيع لزينات صدقي "يارب ارزقني مليون جنيه وسرطان وأنا راضٍ" لأنه عقلاً؛ لا يدعو أحد على نفسه بمثل هذا الدعاء وأنور وجدي

كان مصاباً بمرض الكلية متعددة الكيسات وهو مرض جيني وراثي أصاب والده وشقيقاته وهو بالتأكيد كان على معرفة بمرضه مبكراً حيث يؤدي إلى نمو خراريج داخل الكلى ما يجعلها أكبر حجماً ويسبب تلف الأنسجة مما يؤدي في النهاية إلى الفشل الكلوي وقد سافر إلى السويد للعلاج مع بداية ظهور العلاج بالغسيل الكلوي في أوروبا، ولكن لم تجدِ رحلة العلاج نفعاً وتفاقمت حالته حتى أصيب بفقدان الذاكرة المؤقت وفقدان البصر... فهي مسألة قدرية لا أكثر ولا أقل بعيداً عن الاختراعات الإنترنيتيه المنتشرة حالياً.

سؤال على الهامش: هل يستطيع المرء أن يحب أكثر من امرأة واحدة في وقت واحد؟ بالنسبة لي نعم فالمرء يحب في كل لحظة وينشد مع هذه اللحظات أن يعيش تجارب جديدة وامرأة واحدة لا تكفي، فلكل امرأة مذاق مختلف وصفات لا تشبه فيها واحدة الأخرى، وملكات وسجايا تميزها ودائماً ما أقول أن تعدد الزوجات فريضة غائبة وضرورة من ضرورات المجتمع المعاصر لما فيها من حلول للكثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية بالمجتمع..

لكن كيف كانت إجابة هذا السؤال في الماضي لدى القامات الأدبية والدينية نستطيع أن نرصد ذلك في تقرير مجلة كل شيء والدنيا في عددها **423** بتاريخ **13** ديسمبر **1933** والذي خصصته عن الحب وتحت عنوان

"هل يحب الإنسان غير شخص واحد في وقت واحد؟!" تنوعت الآراء فمثلاً كان رأي الدكتور محمد حسين هيكل أن الحب الشعري أو الخيالي لا يتسع لأكثر من واحد أو واحدة، أما الحب الحقيقي المرتكن على الغريزة الجنسية فيتسع لعديدات، أما الأستاذ انطوان بيك الجميل فجاء رأيه أشبه برأيي في سنوات المراهقة أيام الجامعة، فالحب الذي يصل للدرجة الروحية والامتزاج الروحي والتسامي ولا صلة له بالبدن فلا يمكن أن يقبل سوى شخص واحد.

والشيخ محمود أبو العيون (بالمناسبة أسلمت على يديه ليلى مراد عام **1946** وأشهرت ذلك رسمياً عام **1947** وكان يحفظها القرآن) يرى أن الهيام أو الحب الروحي هو أعلى درجات الحب وهو ملك الروح ولا غرض له إلا المثل الأعلى كحب مجنون ليلى وأمثاله..

أما الأستاذ المازني فجاء رأيه واقعياً ومعبراً عن الحقيقة، فالإنسان يستطيع أن يحب ألفاً في وقت واحد لا واحدة؛ لأن نواحي الجمال متعددة فهذه لخفة دمها وهذه لانسجام جسمها وتلك لموسيقية صوتها... ويفسر حالات مجنون ليلى وأمثاله بالضعف والوهن وأزيد عليها في وجهة نظري البطالة أيضاً فتصور معي حجم الفراغ الذي يعاني منه شاب في مقتبل العمر مثل قيس وبدلاً من أن يفيد قبيلته بعمله انطلق هائماً في مجاهل الصحراء خلف امرأة منها الكثير..

أفضل الآراء في وجهة نظري هو ما تفضل به الأستاذ حسين شفيق المصري من أن الحب الحقيقي غير موجود والذي يفترض أنّ لا غاية من ورائه وأن العاطفة التي نسميها حباً هي ثوب أنيق رشيق تستتر خلفه الشهوة... لله درك أستاذنا لقد وصفت بدقة وروعة بيان وهم الحب•••

18-شهداء الغربة

قديماً لم يكن هناك شهداء للقمة العيش على النحو الذي نعيشه اليوم فقد كانت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية بمصر وإن بدت متدهورة إلا أنها لم تكن مختلفة كثيراً عن بلدان عربية وأوروبية طحنتهم نيران الحرب العالمية الأولى والثانية.. لكن يمكن أن نلمح في المقابل مصطلح شهداء الغربة والذي خرجوا في طلب العلم ولم يعودوا لأسباب قدرية••

في كتاب الشاعر والصحفي المصري فرج سليمان فؤاد "ذكرى شهداء العلم والغربة " الصادر عام **1922** يرصد لنا واحدة من تلك الفواجع التي آلمت المصريين، لكن أروع ما في هذه المشاهد وإن كانت قاسية روح التكريم لهؤلاء الشهداء والاعتزاز باستشهادهم في طلب العلم••

تتلخص الحادثة في أنه وبعد أن حطت الحرب العالمية الأولى أوزارها بدأت البعثات العلمية من مصر تعود إلى أوروبا مرة أخرى وفي مارس **1920** كانت إحدى هذه البعثات في طريقها إلى برلين وبينما يستقل أفرادها

القطار من مدينة "تريستا" الإيطالية حدث تصادم مروع بأحد المرتفعات استشهد على أثره اثنا عشر طالباً مصرياً من بينهم محمد إبراهيم زويل ابن مدينة دمنهور بمديرية البحيرة والذي ربما يلتقي بصلة قرابة مع عالمنا الكبير الدكتور أحمد زويل صاحب نفس المنشأ..

سارِع الوفد المصري لتحمل نفقات نقل الجثامين وأرسل صاحب العزة عبد اللطيف بيك المكباتي خصيصاً إلى إيطاليا، كما أصدر سعد باشا زغلول بياناً للتعازي جاء فيه "فقدان هؤلاء الشبان الذين كانوا مسافرين لإتمام دراستهم ليكونوا أنفع لوطنهم وأمتهم يعد خسارةً كبرى للبلاد..."

تشييع جنازة الشهداء كان برعاية صاحب السمو الأمير عمر طوسون، كما أناب الملك فؤاد صاحب السعادة حسن عبد الرازق باشا محافظ الإسكندرية للمشاركة في الجنازة الشعبية المهيبة التي أقيمت لهم بالإسكندرية، كما أقيمت لهم جنازة أخرى بالقاهرة وتبارى الشعراء في وصف وداعاهم فقال أمير الشعراء أحمد شوقي: "ألا في سبيل الله ذاك الدم الغالي... وللمجد ما أبقى من المثل العالِي. وبعض المنايا همة من ورائها... حياة لأقوام ودنيا لأجيالِ ".

19-نقد مجهول لكتاب مشهور

حينما تحدثت في كتابي (على مقهى الأربعين) عن ضرورة أرشفة الكتب إلكترونياً وأن الخيار الورقي لا يحافظ عليها من الاندثار لم أكن أعرف أني على مشارف البحث عن كتاب بالفعل قد فقد أو على الأقل في حدود بحثي المتواضع لم يعد متاحاً وهو كتاب (عفريت تقويم النيل) كتاب نادر في موضوعه ويتحدث في نقد كتاب تقويم النيل لأمين سامي باشا والكتاب وضعه إبراهيم زكي المهندس، وبحسب كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي فالمؤلف:" مستشار هندسي مصري. ومن كتبه (مذكرات) في مشروعات الري وشؤون زراعية أخرى، و(نقد مشروعات الري الإنكليزية) و(عفريت تقويم النيل) في نقد كتاب تقويم النيل لأمين سامي باشا، و(مذكرة الجيب الهندسية)"..

كنت أتمنى تضمين محتوى هذا الكتاب النادر وكان بحثي عنه دون جدوى أحد أسباب تأخري في إصدار هذا الكتاب..

20-الطالع وقراءة المستقبل

من منا لا ينتظر مع مطلع كل عام تلك المنجمة الأنيقة أو ذلك المنجم البشوش على شاشات التلفاز أو بصفحات الصحف والمجلات أو بكتب سنوية تصدر عن دور نشر كبيرة في العالم العربي والغربي أيضاً..

يتنقل هؤلاء المنجمون من قناة لأخرى وتبارون في إبهار الناس بما تحقق من نبوءاتهم العام الماضي ومسالك النجوم ودورانها وتداخلاتها للعام الجديد وكل برج وتوقعات العام له...

كم أشفق على المشاهدين السذج وهم يتوهمون أنّ ما يسمعونه علماً، وأنّ هؤلاء المحتالين يمتلكون مفاتيح الغيب وينظرون ما لا تدركه أبصار غيرهم..

إنّ هذا اللون من العلوم إن أسميناه علماً فهو علم لا ينفع وضرره أعظم من نفعه إنْ وُجِدَ له نفعٌ فهو يصرف الناس عن حقيقة الإيمان ووجوب التوجه بالدعاء إلى الله في كل وقت صانع الأقدار جميعها ولا يعلم الغيب إلا هو تبارك وتعالى..

الماضي لا يختلف عن الحاضر في هذه المسألة ومبلغ تصديق الناس بين الأزمنة واحد..

من أشهر المنجمين قديماً وأكثرهم ذيوعاً الشيخ محمود الفلكي ونختار من نبوءاته ما ساقته مجلة الدنيا المصورة في **31** يوليو **1930** والتي تركزت عن مستقبل مصر وجاءت على النحو التالي:

-إن الإنجليز أهون عليهم التخلي عن الهند من أن يتخلوا عن السودان فهي الأراضي الخصبة التي يعتمدون عليها في إنتاج مصانعهم.

-عرش مصر ثابت وطيد الأركان عظيم المستقبل.

-شقاق وخلاف بين خديوي مصر السابق وبين رئيس الجمهورية التركية وإنجلترا تقف بجوار الخديوي السابق.

-الوزارة الحالية باقية أمد غير بعيد وبعد حين سيحدث تغيير وتبديل..

-الأزمة المالية التي ضاقت واستحكمت حلقاتها فسوف تستمر هذا العام على الرغم من جهود إسماعيل صدقي باشا.

-نحوسات مستمرة سنة **1930** وتحسن الحالة لن يبدأ قبل أكتوبر المقبل.

-لن يسافر دولة صدقي باشا للخارج ولن يفاوض أقطاب الحكومة الإنجليزية...

ومن مجلة المصور وعدد الأعياد في **14** يناير **1934** وتنبؤات السيد علي صالح الأسيوطي الفلكي العالمية واحتلت مصر منها مساحة صغيرة بأن هذا العام هو عام يسر ورخاء بمصر وستتحسن أسعار البورصة المصرية.

بالطبع هذه النبوءات كانت تهم السادة الوزراء بالمقام الأول في ظل تقلبات السياسة الاستعمارية ومبلغ رضا وسخط الملك، بل وكان داخل بعض الوزارات من أدوا مهمة التنجيم أفضل أداء مثل الأستاذ فريد شحاته سكرتير الدكتور طه حسين وزير المعارف في حكومة الوفد والذي تنبأ

بإقالة حكومة الوفد وأن الوزارة اللاحقة عليها وهي وزارة علي ماهر باشا لن تعمر طويلاً، كما تنبأ بأن أحمد نجيب الهلالي سيكون رئيس الوزراء بعدها وكما يقول المثل: "ما عفريت إلا بني آدم"، فقد فسّر فريد نبوءاته بأنّ مصدرَها شخص أجنبي يجهل جنسيته كان يتصل به تليفونياً ويقابله على رصيف شارع سليمان باشا، أمام محل لوك ويخبره بهذه المستجدات من فترة لأخرى لكن رجح البعض أن مصدره كان أستاذاً إنجليزياً بكلية الآداب يعمل لحساب المخابرات البريطانية.. الطريف أن فريد شحاته اتهم طه حسين في حياته بعد أربعين عاماً من العمل معه مدعياً أنه المؤلف الحقيقي لبعض كتبه وأنه آن الأوان لتحطيم صنم طه حسين الذي يقدسه الناس لنصف قرن من الزمان أو يزيد وأنه ينوي إصدار مذكراته عنه قريباً!! وعلى صفحات مجلة الإذاعة والتلفزيون عام **1972** جاء رد طه حسين على سكرتيره رادعاً فسكرتيره الحاصل على الابتدائية "غير قادر بالفعل على أن ينشِئ أي عمل أدبي وهو كما عهدت به لا يستطيع أن يقدم جملة عربية واحدة صحيحة من حيث الإنشاء والإعراب" وتحداه أن يكتب موضوعاً على صفحات المجلة "دون أن يسبب للأجهزة القائمة على النشر الكثير من التعب والإرهاق" فتراجع السكرتير السابق لذا أتمنى التوقف في المواقع الإسلامية عن ترديد ما ينقلونه عن هذه المذكرات المزعومة فليس هناك مذكرات ولا يحزنون!!.

21-دولته نائم

قديماً كنت بصحبة أستاذ جامعي في سيارته وكان كثير الطواف بها في أنحاء مدينته من أول النهار لآخره بين كليته وأعماله الخاصة ولا سبيل لمقابلته والتحدث معه إلا بقطع هذه المسافات الطويلة معه وهي الفرصة الوحيدة للسؤال والحديث.... فكان يحدثني أنّ لا وقت لديه للنوم وسط مشاغله وأنه ينام على شكل غفوات بالطريق فيقف بسيارته لدقائق أو أثناء الجلوس في مكتبه منفرداً، أو في وسائل المواصلات ناصحاً إياي باستغلال أي فرصة للغفو أو النوم، وقد كنت مثله ما بين دراسات عليا متعددة وعمل بالصباح وعمل بالدعاية مساءً وعمل علمي لبعض الشركات وصيدلية استأجرتها وأحد أصدقائي وحضور حزبي أحياناً!!

دارت في مخيلتي هذه الذكرى وأنا أقرأ عن عادات أحمد باشا زيور رئيس وزراء مصر الأسبق طبعاً مع الفارق الكبير!!

كان زيور باشا مع بدانته الكبيرة محباً للنوم ينام في كل مكان وأي زمان حتى ولو بعد دقائق من تلاوة خطبته في حفلة افتتاح المؤتمر الجغرافي الدولي (تحدثنا عنه في صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر) فقد أخذ بعدها يغط غطيطاً متواصلاً بينما سائر الخطباء يلقون كلماتهم في حضرة الملك فؤاد الذي لم يتمالك نفسه من الابتسام لمنظره.

وزيور باشا كثير العرق لذا فجيوبه محشوة دائماً بالمناديل يمسك بمنديلين في وقت واحد أحدهما بيده اليمنى والآخر بيده اليسرى...

ومن مظاهر كفاءة الباشا حرصه على عمله والواضح جلياً في تكاسله عن الذهاب إلى ديوان وزارته وطلبه من علي بيك إسماعيل مدير مكتبه أن يوافيه بالأوراق الهامة ليوقعها في مقر إقامته بفندق الكنتينتال وهو يحتسي "واحد ليمون بالسيفون أو واحد كازوزة بارد"!! لذا لا تستغرب يا عزيزي ضياع واحة جغبوب في زمنه وهو الرجل الصريح في الاعتراف أن دفة الأمور في مصر تدار بيد الإنجليز وإرادتهم وقد تناولنا هذا الموضوع في كتاب على هامش التاريخ والأدب...

تناولنا أيضاً في صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر أن الفرنسية كانت لغة القصور الملكية، وهي أيضاً لغة دولة رئيس الوزراء كرشدي باشا أيضاً لأنه لا يجيد "التعبير عن أفكاره بجلاء ووضوح إلا بالفرنسية" وذلك بحسب مجلة كل شيء والعالم في عددها **120** بتاريخ **27** فبراير **1928**.. الحقيقة أنني كنت أظن أن التحدث باللغة الفرنسية اقتصر على مراكز الحكم في البلاد وحسب إلى أن قرأت أن الدكاترة زكي مبارك كانت لغته الفرنسية في بيته...!!!

نعود إلى المجلة السابقة والتي تتحدث عن ذكريات الباشا أيام الصبا وأنّ مدرسيه في كلية الآباء اليسوعيين (الجزويت) كانوا يوكلون إليه قرع جرس

المدرسة لبدانته وقوة جسمانه وبعد اعتزاله رئاسة الوزراء لم يشاهد في حفلات أو استقبالات رسمية ما عدا حفلة العرض العسكري التي أقيمت في ميدان الرصدخانة بالعباسية إكراماً لملك الأفغان عند زيارته لمصر...

الحقيقة أن هذا النوع من المسؤولين لم أجد لهم وصفاً أفضل مما قاله الأستاذ أحمد حلمي في مقدمة كتابه (السجون المصرية في عهد الاحتلال الإنجليزي الطبعة الأولى **1911**): "إنه ليحزن المصري أن يتربع الوزير في دست الوزارة عمرا أطول من عمر عشر وزارات في غير هذه البلاد، ثم يخرج من وظيفته قانعاً بأن يلقب بالوزير الخطير وهو مع هذه الخطورة الموهومة لا يكتب حرفاً يستفيد منه هو نفسه أو يفيد به غيره من أهل وطنه حتى أصبحنا نظن أن وزراءنا أميون، لم يكن لهم عمل في الحكومة إلا توقيع الأوراق كما يفعل الكشاف في قديم الزمان.. حتى أن من يموت منهم لا تجد عنده مذكرة تعرف منها شيئاً عن ماضي حياته وربما ألبس على وارثيه تاريخ ميلاده"!!

22-بين قطة رئاسة الوزراء وقطط القصر

في مجلة المصور في **5** مارس **1948** وتحت عنوان "قطة رياسة الوزراء تلد ورئيس الحكومة يحضر الولادة" تحكي المجلة عن قطة أليفة لطيفة سكنت مقر رئاسة الوزراء تأكل وتشرب وتلعب وتنام وفي إحدى المرات رآها

محمود فهمي النقراشي رئيس الوزراء آنذاك وهي في حالة يرثى لها وتعاني آلام الوضع فغضب النقراشي وقال في حدة لمحيطيه: "كيف تتركونها تعاني آلام الولادة هكذا في البرد الشديد؟! ثم أردف بالحديث الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا، ولَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِن خَشَاشِ الأَرْضِ"•

ثم أمر بإعداد صندوق خشبي كبير لتوضع فيه القطة وتلد فيه ولم يبرح مكانه حتى جيء بالصندوق، وكذلك لبن حليب وأوكل أمرها إلى موظف كفء أمين وولدت القطة بسلام أربعة بالتمام والكمال••

لكن الملك فاروق كان على النقيض من رئيس وزرائه كانت لديه هواية غريبة وهي مطاردته للكلاب والقطط حتى تلقى حتفها تصور أن مصدر هذه القصة هو كريم ثابت، ولكن بعد ثورة **1952**.. وسبحان مغير الأحوال من حال لحال.

23- أقدار محسومة... ولكن

تلال من الأوراق لا تتوقف عن التراص وأحبار لا تجف حتى تتبعها أحبار والسؤال الذي أهم أصحاب هذه التلال هل جنت مي زيادة حقاً؟! أم أن إلحاقها بالعصفورية كان محض مؤامرة من بعض أهلها للحجر عليها والاستيلاء على أموالها••

مئات الكتب والمقالات صدرت بين مؤيد ومعارض مع أن لو أحدهم أرجع البصر إلى تقديم الأستاذ عباس العقاد لكتاب (الساعات الأخيرة لطائفة من أعلام الشرق والغرب) لطاهر الطناحي لأراح واستراح.. فالعقاد الرجل الذي خشي أن يكسرها حتى في اللغة فخاطبها ب(أنتي) وليس (أنتِ)!! هو الأقرب إليها عقلاً في وقت ازدهارها وزمان خفوتها لذلك فشهادته التي كتبها في التقديم شديدة الأهمية.. يقول العقاد إنه قابلها حينما عادت من إيطاليا وقابلت الدوتشي موسوليني وأنها ضاقت ذرعاً بالحديث عن مجد الدولة الرومانية وتجديدها واعترضت على ذلك وهي لا تزال هناك غير مبالية بالعواقب قائلة: "أليست هذه الدولة من طاردت السيد المسيح وأسلمته إلى أعدائه؟" بعد فترة من الزمن بدأ يتسلل إليها الهواجس أن الدوتشي يتعقبها ويريدها حية أو ميتة ليجري عليها تجربة عقلية وجسدية يستفاد منها في أعمال التعذيب والإكراه على الاعتراف!

أقدار ليست مستغربة وصادفتها في حياتي العملية فقد جمعتني المصادفة بصديق مصاب بوسواس الاضطهاد وكان لدينا مدير للصيدلية بالمستشفى التي أعمل بها -سامحه الله -عنيف معه دائم الشك به.. فالعجز في الإيراد اليومي وهي مسألة واردة الحدوث كانت مثار لاتهام الزميل بالمسؤولية عنها مما ضاعف من مشاكله الصحية وكان قد برأ من بعض مرضه قبل التحاقه بالعمل معنا... لكن عنف المدير وغلظته وشدته ضاعفت من

مأساة الزميل فأصبحت الهلاوس تلاحقه وراح يهذي بأن هناك من يتربصون به ويتبعونه.. حاول البعض عرضه بشكل ودي على طبيب نفسي فلما تأكد من تشخيصه بعقدة الاضطهاد رفع تقرير للمستشفى فتم إنهاء خدمات الزميل على الفور..

الحالة ذاتها حدثت في التاريخ مع الشيخ محمد توفيق البكري والذي كان يتمتع بالقرب من الخديوي عباس حلمي الثاني ومن اللورد كرومر أيضاً والحاصل على الوزارة العلمية من الباب العالي ولم يظفر بها غيره وتحدى الخديوي أن يحصل مصري غيره على هذا التفرد وهو الذي عقد زواج السيدة صفيه بنت الشيخ السادات بمنزله على صديقه الشيخ علي يوسف (تناولنا القصة في كتاب على هامش التاريخ والأدب) وكشأن العلاقات بين البشر تتبدل من حال إلى حال، فقد دبت الجفوة بين الشيخ والخديوي فبحسب كتاب الطناحي فقد تخلف موكب السادة البكرية الذي يرأسه الشيخ البكري وهو شيخ مشايخ الطرق الصوفية عن المشاركة في الحفلة السنوية للمولد النبوي الشريف والتي يحضرها الخديوي عباس حلمي الثاني درءاً للبدع... فغضب الخديوي واشتد عليه في القول فرد عليه الشيخ بما هو أقسى على مرأى ومسمع من الحاضرين، وانصرف دون استئذان ومن وقتها وساورته الوساوس والأوهام أن الخديوي ورجاله يسعون لقتله فأرسل للنائب العام ولبطرس غالي رئيس الوزراء وللمحافظ طلباً للحماية ووصل

به الأمر أن أرسل صديقه الشيخ علي يوسف للوساطة لدى الخديوي والذي رق لحاله وأرسل رئيس ديوانه أحمد شفيق باشا لطمأنته لكن دون جدوى فقد تملك الداء منه، ثم أودع مستشفى العصفورية بلبنان لمدة ستة عشر عاماً وعاد لمصر بعدها دون أن يبرأ تماماً..

أمور صحية قدرية لا يستثنى منها أحد كبيراً كان أم صغيراً...

24-عميد الخط العربي

قد يبدو العنوان غريباً أو يحتمل سهواً أو خطأً لكنها الحقيقة أن مصر كان لخطها يوماً مدرسة وفن تراجع مثلما تراجع كل شيء فيها.. صاحب هذا اللقب الذي أطلقه عليه تلاميذه كتب أغلب مقدمات أفلام الفنان محمد عبد الوهاب والعديد من الصحف بالعهد الملكي مثل جريدة الأهرام والضياء وفلسطين ومجلة المصور ومجلة الراديو المصري وعمل أستاذاً للخط العربي بكلية دار العلوم، والجامعة الأمريكية بالقاهرة، ومدرسة تحسين الخطوط الملكية (تحدثنا عنها في صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر)... إنه الشاعر سيد إبراهيم.. بحسب موقع الهيئة العامة للاستعلامات بمصر، فقد لعبت ظروف نشأته في حي القلعة الدور الأبرز في نبوغه في الخط وفنونه "فكان يقف بالساعات أمام خط الثلث المكتوب على سبيل أم عباس «الذي أنشأته والدة عباس الأول» للخطاط العثماني عبد الله

الزهدي كاتب الحرمين الشريفين، وأمام خطوط مسجد محمد علي الكبير بالقلعة للخطاط الفارسي سنجلاج• كما فتنته خطوط اللافتتات التي تحمل أسماء الشوارع بقلم الثلث للخطاط المصري محمد جعفر بيك، كما تأثر تأثراً شديداً بالخطاط محمد مؤنس زاده المتوفي في عام **1318**هـ صاحب النهضة المصرية للخط العربي، وكان شديد الشغف بمحاكاة أعماله التي كانت متداولة"• ومن مؤلفاته بحسب الموقع السابق: "كراسة خط النسخ لحكومة السودان عام **1913**، كتاب فن الخط العربي طبع سنة **1941** بمصر وباكستان وإيران، وكراسة الخط الرقعة المقررة بالمدارس المصرية وقررت بعد ذلك بمعظم دول الخليج"• ومن أساتذته الخطاط التركي حسين حسني الذي رأس ديوان السلطان عبد الحميد الثاني وبخلعه رحل إلى مصر، ثم عاد لحلب واستقر بها.

ومن العميد لأمير الخط العربي محمد كمال حسني البابا (والد الفنانة سعاد حسني والمطربة نجاة الصغيرة) وهو دمشقي المولد وكان من الرعيل الأول الذين تم اختيارهم للتدريس في مدرسة تحسين الخطوط الملكية بمصر.

ومن الخطاطين من مارس بجانب صنعته هذه عدة مهن ومنهم نجيب بيك هواويني المحامي السوري الأصل وخطاط الملوك وخبير الأوراق المطعون فيها بالتزوير وإعطاء تقارير عنها وهو صاحب السلاسل الذهبية لإتقان

الخطوط العربية والفارسية والتي قررتها وزارة المعارف بالأستانة لجميع المدارس بتركيا وواضع كتاب (التزوير الخطي) أول كتاب علمي عملي في هذا الفن لمعرفة الأختام والإمضاءات والخطوط المزورة والصحيحة عربية كانت أو إفرنجية، علاوة على كتاب (جامع الأدلة على مواد المجلة) وهو كتاب لشرح الأحكام العدلية.

لا ننسَ أيضاً النابغة محمد أفندي مرتضى نابغة الخط العربي وصاحب كتيب (بدائع القلم) والذي ضمنه بزخارف خطية باسم سعد باشا زغلول زعيم الوفد وعبارته الشهيرة "الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة" والذي حدثتنا عنه اللطائف المصورة في عددها في **3** يوليو **1922**.

ومن الكتب المهمة في هذا الصدد كتاب "انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم الغربي" لعبد الفتاح عبادة طبعة **1915**. وهو كتاب علمي تاريخي اجتماعي يبحث في تاريخ الخط العربي قبل الإسلام وبعده وأسباب انتشاره وتأثير الحضارة الإسلامية في ذلك.

25-دعاء أمير الشعراء

بلا شك أن الدعاء مفتاح تفريج الكروب وتحول الأقدار وتبدل الأحوال وهو عنوان طاعة المؤمن واتصاله الدائم برب العالمين وأفضل الدعاء ما كانت فحواه كلمة حق لدى سلطان جائر فنجد الشيخ حسن بن إلياس الرومي

التركي العجمي، أحد مشايخ ودراويش الطريقة المولوية يصطدم بالسلطان الغوري وقد أوقع أتباع الغوري به من أنه يوالي بني جلدته من العثمانيين ويود لو زال حكمه وانكسر جنده فأمر الغوري بإخراجه من المسجد وقطع عنه النفقة وضربه بالسياط أمام الناس وديس بحوافر الخيل إمعانًا في إذلاله فدعا الرومي عليه قائلاً: "اللّٰهُمَّ مزق ملكه وجسده كما مزق جسدي بالسياط، ولا تحرمه أن يداس بحوافر خيله" وهو ما حل بالغوري في مرج دابق... الطريف أن خاير بيك وقد استتب الأمر للعثمانيين كان يخشى دعاء الرومي فحاول استرضاءَه فأمر أتباعه بعدم التعرض له فضلاً عن بناء زاوية للشيخ خلف قلعة صلاح الدين الأيوبي وحملت لوحة التأسيس بأمر السلطان سليمان خان ابن سليم الأول في **929** هجرية / **1522** ميلادي، تأسيس زاوية الشيخ حسن الرومي..

وأكرم الدعاء ما كان يدعو للمحبة والوئام ونبذ الفرقة والاجتماع حول هدف نبيل كدعاء أحمد شوقي أمير الشعراء لسعد باشا زغلول في المساجد والكنائس في جميع أرجاء مصر يوم **4** يونيو **1920**م من أجل أن يكلل الله جهوده ورفاقه في مفاوضات لندن بالتوفيق يقول الدعاء الذي ضمن في كتاب أسواق الذهب: "اللّٰهُمَّ قاهر القياصر، ومذل الجبابر، وناصر من لا له ناصر؛ ركن الضعيف ومادة قواه، وملهم القوي خشيته وتقواه، ومن لا يحكم بين عباده سواه؛ هذه كنانتك فزع إليك بنوها، وهرع إليك

ساكنوها؛ هلالاً وصليباً، بعيداً وقريباً، شباناً وشيباً، نجيبة ونجيباً؛ مستبقين كنائسك المكرمة، التي رفعتها لقدسك أعتاباً، ميممين مساجدك المعظمة، التي شرعتها لكرمك أبواباً؛ نسألك فيها بعيسى روح الحق، ومحمد نبي الصدق، وبموسى الهارب من الرق؛ كما نسألك بالشهر الأبر والصائمية، وليله الأغر والقائمية، وبهذه الصلاة العامة من أقباط الوادي ومسلميه: أن تعزنا بالعتق إلا من ولائك، ولا تذلنا بالرق لغير آلائك، ولا تحملنا على غير حكمك واستعلائك. اللّٰهُمَّ إن الملأ منا ومنهم قد تداعوا إلى الخطة الفاضلة والكلمة الفاصلة، في قضيتنا العادلة، فآتنا اللّٰهُمَّ حقوقنا كاملة؛ واجعل وفدنا في دارهم هو وفدك، وجندنا الأعزل إلا من الحق جندك؛ وقلده اللّٰهُمَّ التوفيق والتسديد واعصمه في ركنك الشديد. أقم نوابنا المقام المحمود، وظللهم بظلك الممدود، وكن أنت الوكيل عنا توكيلا غير محدود، سبحانك لا يحد لك كرم ولا جود، ويرد إليك الأمر كله وأمرك غير ممدود؛ واجعل القوم محالفينا ولا تجعلهم مخالفينا، واحمل أهل الرأي فيهم على رأيك فينا. اللّٰهُمَّ تاجنا منك نطلبه، وعرشنا إليك نخطبه، واستقلالنا التام بك نستوجبه؛ فقلدنا زماننا، وولنا أحكامنا، واجعل الحق إمامنا، وتمم لنا الفرح، بالتي ما بعدها مقترح ولا وراءها مطرح؛ ولا تجعلنا اللّٰهُمَّ باغين ولا عادين، واكتبنا في الأرض من المصلحين، غير المفسدين فيها ولا الضالين... آمين."

إنها يا عزيزي ثورة **1919** أعظم أيام التاريخ المصري والتجسيد الحي لعبقرية المكان كما ناقشناها في مرآة التاريخ.

26-من علمني حرفاً

ما خرب التعليم في أقطارنا العربية سوى هذه العبارة: "من علمني حرفاً صرت له عبداً" وأصلها في الغالب حديث عن رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: (مَن علَّم عبدًا آيةً من كتابِ اللهِ فهو مولاه لا ينبَغي أن يخذُلَه ولا يستأثِرَ عليه) وهو حديث شديد الضعف ولا يصح عند البعض.

والعلة في المقولة أنها خلقت بين المعلم والطالب فجوة كبيرة جعلت المعلم ينظر للطالب باستعلاء وخيلاء بما يحمله من علمٍ واستخفافٍ بأسئلة النشء وحقهم في الحوار فيما ولدت لدى الطالب خوف ورعب من عدم اتباع المعلم ومخالفة أوامره وإن كانت خاطئة وفيها امتهان للكرامة ومن هذه الفجوة نشأت أساليب العقاب البدني غير المقبولة والتي استمرت لعهود والبعض يفاخر بها الآن وأن التعليم انهار يوم أُخذت من المعلم عصاه وغُلّتْ يداه عن ضرب طلابه..

والصحيح من علمني حرفاً صرت له شاكراً وممتناً، كعلامة على ديمومة المعروف ونسبة الفضل لأهله والشكر والعرفان للمعلمين ولكن ليس استعباداً وفوقية..

في مقال بعدد مجلة المصور رقم **1368** بتاريخ **29** ديسمبر **1950** كتب علي باشا الشمسي (ابن أمين باشا الشمسي تحدثنا عنه في جزء آخر من الكتاب) عن ذكرياته الدراسية وكان يدرس بمدرسة الزقازيق الابتدائية فضربه ناظرها عبد الحميد الشربيني بيك بالقلم "قلماً لا يُنسى" على الرغم من صلة نسب بينهما وبعد ربع قرن من هذه الحادثة وقد أضحى علي باشا الشمسي وزيراً للمعارف زار بشكل مفاجئ مدرسة ثانوية ناظرها عبد الحميد بيك أيضاً، فوجدَ هرجاً ومرجاً عرف منه أن الناظر أتحف أحد تلاميذه بصفعة على وجهه.. فماذا كانت تصرف الوزير المسؤول؟!! بدلاً من أن يعاقب الناظر بالفصل أو الإحالة للتحقيق على الأقل راح يسري عن الطالب المصفوع قائلاً له: "حضرة الناظر ضرب وزيرك..."

هذا التراخي من جانب الوزير الذي شغل منصب وزير المعارف في وزارتين تجاه الناظر تحت شعار "من علمني حرفاً تركت نفسي له يضربني تحت شعار التربية والتعليم" جعل المسار التعليمي على هذا المنهج من العنف الشديد لسنوات طويلة بينما الهدف الأسمى من التعليم هو بناء شخصية الطالب لا تخويفه وترهيبه..

بالمناسبة فبداية وزارة المعارف في مصر كانت مع تعيين أمير اللواء مصطفى مختار بيك مدير المجلس العالي ومدير المدارس وأحد ثمرات بعثات محمد علي باشا الأولى للخارج وأول ناظر للمعارف في **9** مارس **1837**، حيث

أصبحت كياناً مستقلاً عن ديوان الجهادية. إنه نتاج الاستثمار في التعليم الراقي يا سادة بعيداً عن العنف ومن باشا هو محمد علي مفترض أنه كان أمياً لكنه كان الأحرص على تعلم القراءة عام **1814** وعمره **45** عاماً، كما أيقن أنه لا سبيل لبناء دولة دون تعليم حقيقي بها وتخريج كوادر من أبنائها.

****

القسم الرابع

أسئلة القراء

بداية أتوجه بالشكر والعرفان لكل من اقتطع من وقته الثمين من الزملاء والقراء والنقاد ممن بادرت بإرسال كتابي (صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر) و(نوستالجيا الواقع والأوهام) إليهم لإبداء الرأي فيهما فلبوا طلبي عن طيب خاطر وقد أرسلوا لي بعض الملاحظات والآراء والاستفسارات وقد رددت على بعضها والبعض الآخر رأيت أنه يستحق أن أشاركه مع عموم القراء في هذا المبحث لما فيه من شحذ الذهن وبعض التصويبات والإضافات بما يحقق عموم الفائدة.

السؤال الأول: كان تعقيباً على ما أوردته في كتاب (نوستالجيا الواقع والأوهام) من مشاهد للفقر المدقع وإهمال شأن الفقراء في عهود عباس حلمي الثاني وفؤاد وفاروق ويرى أن الفن كمرآة عاكسة للعصور المختلفة هو خير رد على هذه الصور القاسية ففيلم كالعزيمة مثلاً وهو إنتاج **1939** رصد حال الشارع المصري والطبقات المتوسطة ولم تكن بهذا الشكل المتدني؟

-لاشك أن فيلم العزيمة نموذج رائع لكنه لا يقدم الصورة الحقيقية الكاملة للمجتمع المصري، فالرقابة قديماً كانت شديدة الحسم في عدم السماح بإظهار ما في حياة الفقراء من مظاهر شديدة التعاسة والفاقة تسيء لسمعة مصر ومظهرها الحضاري...!!!

وسأستعين بالدليل في ردي ببطل فيلم العزيمة ذاته الفنان النبيل المحترم حسين صدقي والذي كتب في مجلة الاستديو في **21** ديسمبر **1941** منتقداً تحريم الرقابة في السينما منظر القلة والطبلية والرجل الحافي واصفاً ذلك بالخداع ويعلق على ذلك قائلاً: "إنّ الرقابة بذلك لا تخدع إلا نفسها وهي بذلك تغطي القاذورات الاجتماعية وتتركها حتى تتعفن بدلاً من أن تبرزها للقادرين على إزالتها. إنها لن تستطيع أن تقنعنا بأن البلد قد خلا من الحفاة والعراة لأنها شطبت كل ذلك من الفيلم"

هذا لا يمنع من الاعتراف أن جميع هؤلاء الحكام كانوا وطنيين حتى النخاع ودافعوا عن حقوق بلادهم، ولكن إهمال الفقراء أو إرجاء قضاياهم كان نقطة ضعف الدولة مما دفع بنهاية الملكية في مصر.

وسأظل أردد رغم كل هذا وإنصافاً للحقبة الملكية أن راعي النهضة التعليمية التي لن تتكرر هو الملك فؤاد بلا منازع فيكفي أن تعلم أنه حتى وبعد أن رحل عن الدنيا في **28** إبريل **1936** فقد كانت بعثته إلى مارسيليا في **26** مايو **1936** تحمل مجموعة من المشايخ الإجلاء لنيل الدكتوراه في الفلسفة والآداب هم: الشيخ محمد عبد الله دراز وعبد الرحمن تاج وعفيفي محمد عبد الفتاح ومحمد محمدين الفحام وعبد العزيز مصطفى محمد واثنان منهم صارا شيوخاً للأزهر الشريف هما الشيخ عبد الرحمن تاج والشيخ محمد الفحام.

وتجدر الإشارة إلى القول: إن الفارق بين سينما العهد الملكي وما بعد الثورة أن الأولى أهملت الفقراء وقدمت نهايات سعيدة لا تتفق مع الواقع ومالت لتلميع الملك وجهوده وإظهار الولاء لأسرته، أما الثانية فأصبحت مسيسة بشكل كبير تشوه الماضي ورجاله وكأنهم خونة وعملاء على غير الحقيقة وتدخل في صراعات مع الأشقاء العرب للسخرية منهم لا تتلائم مع حجم مصر وعراقتها فمثلاً وأنا أقلب في مجلة آخر ساعة في عددها **1356** بتاريخ **19** نوفمبر **1958** وجدت إعلاناً عن فيلم أو تلويحاً بفيلم لمآرب سياسية يحمل اسم مغامرات صاحب الجلالة إسماعيل ياسين للسخرية من الملك حسين ملك الأردن ويتصدر الصفحة "خمسة آلاف طيارة ميج واليوشين رحت واكل منهم **4999** طيارة وهربت واحدة" والعديد من المشاهد لإسماعيل ياسين ببذلة الطيران متقمصاً شخص الملك!

السؤال الثاني: تعقيب على مسألة الربط بين عزل الخديوي عباس حلمي الثاني وحادثة دنشواي كنوع من العقاب اللاحق وأنها مسألة مقحمة بالموضوع ولا دليل عليها كما يلفت نظري للخطأ في اسم القرية وهي (أبي كلس) وليس (أبي كاس).

-بداية أشكر الزميل العزيز على التصويب فيما يخص اسم القرية والصحيح بالفعل (أبي كلس) وليس (أبي كاس) وهو خطأ بسبب اعتمادي في الكتابة

على الهاتف المحمول وما يتبع ذلك من مشكلات بسبب برنامج المصحح اللغوي.

فيما يخص علاقة الخديوي عباس حلمي الثاني بحادثة دنشواي فأجمله فيما يلي:

في بداية حادثة دنشواي اتجهت أنظار الإنجليز إلى مسؤولية الخديوي عباس حلمي الثاني عن الحادثة بشكل مباشر أو غير مباشر أو على الأقل معرفته بها قبل وقوعها وتعمد التراخي في مواجهتها وذلك لأسباب ثلاثة:

السبب الأول: عدم وجود خصومة شخصية بين الفلاحين والإنجليز تدفعهم لهذه الروح الانتقامية وممارسة الضباط الإنجليز لصيد الحمام مسألة اعتيادية في هذه الأماكن، وأنه لابد من وجود طرف شجع على افتعال الأزمة هذه المرة.

السبب الثاني: أن عبد المجيد باشا سلطان وهو من أعيان الجهة كان من عاداته الاحتفاء بالجنود الإنجليز عند قدومهم لهذه الجهة ولكنه تقاعس هذه المرة مما أثار ريبة المحققين الإنجليز خاصة أن التقاعس تزامن مع منح الخديوي الباشوية له قبل عشرين يوماً فقط من الحادثة.

السبب الثالث: أن مراد أفندي محرم ملاحظ نقطة شرطة الشهداء والذي تحدثنا عنه أنه لم يحرك ساكناً لنجدة الجنود الإنجليز ثبت من التحقيقات أن صلة قرابة تجمعه بحسين باشا محرم كبير ياوران الخديوي..

لهذا يذهب البعض إلى أن مرافعة إبراهيم الهلباوي (تحدثنا عنها في كتاب على هامش التاريخ والأدب) المستميتة والتي حاول من خلالها إثبات التهم على أهالي دنشواي كان هدفها الأساسي صرف أنظار الإنجليز عن الخديوي وحمايته من توجيه أي اتهام له إذ لم يكن هناك سبيل آخر..

السؤال الثالث: هل كانت مذكرات فاروق لو أتيح له كتابتها في وقت لاحق ستكون هادئة وأكثر تركيزاً على شؤون الحكم في زمنه وخفايا الصراعات الحزبية والعلاقة مع الإنجليز كما فعل الخديوي عباس حلمي الثاني في مذكراته التي حملت عنوان "عهدي" وهل صحيح أن ما أثير حول نية فاروق في نشر مذكراته كانت السبب في التعجيل بقتله؟

-سأبدأ بالإجابة من آخر شق بالسؤال وهل لدى فاروق ما كان يقلق الحكومة المصرية في شيء.. كل ما لدى فاروق إن كان لديه شيء لن يتعدى خفايا رجال الأحزاب وألاعيبهم وقد مات أغلبهم ومن بقي منهم توارى وصمت للأبد..

لا أعتقد أن فاروق كان يمتلك أسراراً كثيرة في الشأن الداخلي غير بعض الانطباعات الشخصية عن بعض رجالات الحكم في عهده وهو ما جعله دائماً يثق أكثر في رجالات أبيه واختيارات والده الراحل الملك فؤاد.. لكنه وعلى العكس من أبيه كان يترك لهم العنان في إدارة ملفات مهمة وشائكة. باعتقادي أنه وفي أي وقت كان فاروق سيكتب مذكراته كان سيستمر في الدفاع عن سمعته وعن وطنيته وعن دوره الوطني في الجلاء عن بلاده وفي التصدي للصهيونية...

وربما أظهر شيء من التعاطف الممزوج بالتشفي تجاه ما حدث لنجيب وغدرهم به كما غدر بمولاه.. محمد نجيب الذي اعتبرته مجلة نيوز اند ورلد ريبورت التي تعد المجلة الأولى لهيئة الأمم المتحدة من بين أسماء أقوى أربعة رجال في العالم!! بعد جورجي مالكوف رئيس مؤتمر الحزب الشيوعي السوفيتي وشوانلاي رئيس وزراء الصين وآية الله كاشاني أقوى رجل في إيران كما وضعت مجلة التايم صورة نجيب على غلافها وذلك بحسب صحيفة المصري في **27** أغسطس **1952**.

بالتأكيد فاروق كان سيصب وبال غضبه على الأمريكان لأنهم خدعوه فأظهروا مساعدته في حمايته من الانقلابات ضده، ثم أعانوا عليه ثوار **1952** وأقنعوه بالخروج الآمن كما ساعدوا رجال الثورة في تشويه سمعته بدرجة كبيرة إلى حد مسارعة المخرج الأمريكي (جريجوري راتوف)

لعمل فيلم بميزانية ضخمة بنسختين عربية (مفقودة) وأمريكية عام **1955** عن رحيل فاروق قام هو ببطولته ومن الجانب المصري عباس فارس ومختار عثمان وهدى شمس الدين والراقصة الجزائرية ليلى.. كانت هذه الخطوة مستفزة جداً لفاروق الذي لوح بمقاضاة الفيلم؛ مما اضطر المخرج لتغيير اسمه إلى عبد الله الكبير أو حريم عبد الله، وبالطبع رحبت السلطات في مصر بتصوير الفيلم في قصريّ المنتزه ورأس التين وعلى يخت المحروسة وشارك في الفيلم سيدني شابلن ابن شارلي شابلن (كان لشابلن موقف مساند لمصر في العدوان الثلاثي عام **1956**)..

السؤال الرابع: يرى أنه من القسوة التلميح بكتابي نوستالجيا الواقع والأوهام بأن سليمان نجيب من المتلونين بعد ثورة **1952** لأنه شارك في فيلم يتهكم على بيع الألقاب؟

-سليمان نجيب كان مقرباً جداً من القصر الملكي ويكفي أن تعلم يا عزيزي أنه أحد شهود عقد الزواج العرفي بين الملكة نازلي (أم فاروق) وأحمد حسنين باشا رئيس الديوان بحسب رواية التابعي وقد ظهر في جنازة حسنين وهو يبكيه بشدة وتأثر.. كما أنه شغل مناصب عدة فقد كان باشكاتب القنصلية المصرية بالآستانة وله صورة شهيرة مع الفرقة المصرية لكرة القدم هناك عام **1926**، كما عمل مديراً للأوبرا المصرية في العهد الملكي، كما حصل على البكوية من الملك فاروق... لذا فالأولى كان اعتزال

الرجل للأمر وعدم التورط في حملات التشويه، وقد عرف عنه دماثة الخلق..

السؤال الخامس: ملاحظة على اتهام توفيق الحكيم في موضوع (أوهام الزخم الأدبي الفريد) بأنه اختلق مسألة عدائه للمرأة من باب (خالف تعرف) كوسيلة للشهرة دون مرجع مع الالتزام بالمراجع في الباقي؟

-المسألة لا تحتاج لمرجع فتوفيق الحكيم اعترف بذلك في لقاء له مع الفنان سمير صبري سجل على غير دراية منه أكد فيه أنه اخترع هذه المسألة لاستفزاز المرأة وإثارة فضولها حوله حتى يجعل النساء يقتربن منه ويمكن الاستماع لأحاديث الأستاذ سمير صبري على اليوتيوب حول هذه القصة والتي ضمنها أيضاً في كتابه: حكايات العمر كله.

السؤال السادس: لماذا التشكيك في إسماعيل أدهم ومؤهلاته وهل هذه هي الطريقة والوسيلة المناسبة للرد على إلحاده؟

-لقد ناقشت قصة إلحاد إسماعيل أدهم في كتابي (صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر) دون إشارة أو تطرق لحقيقة مؤهلاته، بل تناولتها كما كتبها تماماً وسردها في كتابه...

أما في (نوستالجيا الواقع والأوهام) فقد خصصت مساحة لهذا الوجه الآخر من قصة إسماعيل أدهم..

وعلى العكس مما تتصوره يا عزيزي فأنا أعتبر خطورة إسماعيل أدهم ليست في كونه أول ملحد يجهر بذلك دون خوف فالدين الإسلامي دين متين متماسك لا يضعفه ضلال شخص وحيوده عن الطريق القويم، فهو الخاسر وليس الدين، ولقد تصدى له من هو أفضل مني من مشايخ وعلماء في عصره وبهدوء وحكمة ومناقشات موضوعية...

المشكلة الحقيقية في وجهة نظري في حجم الشطط والإغراق في الخيال الذي تسرب عن كتاباته مما جعل بعض الكتاب والصحفيين يعتبرونه أول عالم ذري عربي وأول من فكر بالقنبلة الذرية العربية، بل وأنه شارك في التجارب النووية الألمانية والروسية، ولذلك اغتالته أيدي الصهيونية العالمية لحرمان مصر والعرب من هذا الأمل المبكر!! تصور يا عزيزي كل هذه التصورات والمزاعم بنيت لمجرد أن إسماعيل أدهم كتب مقالاً يتيماً في مجلة الرسالة في عددها **366** بتاريخ **1940/7/8**، بعنوان الذرة وبناؤها الكهربائي شرح فيه قشور المعلومات عن الذرة وفي مجلة أدبية لا يقرؤها سوى أدباء.

ببساطة إسماعيل أدهم هو نسخة معاصرة لحافظ نجيب كلاهما أطلق العنان لخياله ووجدا من أمعن في تصديقهما..

السؤال السابع: تعقيباً على تشويه قصة صلاح الدين واستخدامها دعائياً في كتاب صفحات من التاريخ الأخلاقي فهل هذا يفند الرواية الزاعمة أن

البداية في استثمار قصة صلاح الدين وتوظيفها في السينما المصرية كبطل للقومية العربية بدأ في عهد جمال عبد الناصر؟

البداية الأكثر وضوحاً كانت في عهد الملك فاروق ففاروق أدرك أن حلم الخلافة الذي سيطر على أبيه الراحل لا يمكن تحقيقه الآن، وأن القومية والجامعة العربية هما الفكرة البديلة لزعامة العرب، لذلك كان استحداث فاروق لمنصب المستشار الصحفي للملك للترويج للفكرة واختياره كريم ثابت في هذا المنصب من **1942** وحتى **1952** وبالعودة لأرشيف مجلة المصور وفي العدد **1077** في **1** يونيو **1945** نجد مثالاً لهذا الترويج، فتحت عنوان "الملك فاروق والعروبة اهتمام جلالته بقضية سوريا ولبنان" وفي نهاية المقال يبشر قراءَه بيوم يأتي يماط فيه اللثام عن "جهاد الفاروق في سبيل العرب والعروبة" وفي مجلة الاثنين والدنيا العدد **529** بتاريخ **31** يوليو **1944** نشرت المجلة أجزاء من كتاب طريف في سلسلة اقرأ عن حياة الملك فاروق هو الأول من نوعه في اللغة العربية وضعه كريم ثابت. أي أننا وبوضوح أمام ملامح نموذج دعائي خطه فاروق وسار عليه جمال عبد الناصر بعد ذلك حينما استعان بمحمد حسنين هيكل من نفس المنطلق وفي سبيل نفس الغاية والهدف..

واستخدام مسرحية صلاح الدين في أورشليم بطولة جورج أبيض وحسين رياض وسراج منير وفؤاد شفيق وعبد العزيز خليل وإخراج الأستاذ فتوح نشاطي (تناولناها في الكتاب) لخدمة هذا الهدف ظهر جلياً في عرضها بقصر عابدين كجزء من برنامج ترحيب الملك فاروق بالملك عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية عند زيارته لمصر عام **1946** والذي تضمن أيضاً عرض لفرقة عاكف التي قدمت ألعاباً بهلوانية وفرقة ابن علي قدمت ألعاباً سيماوية فضلاً عن قصيدتين للأستاذين محمد الأسمر وخليل مطران.

وبالمناسبة ففيلم الناصر صلاح الدين عام **1963** والذي أفلس منتجته آسيا داغر لم يكن العمل السينمائي الأول، فسبقه فيلم صلاح الدين الأيوبي عام **1941**، بطولة بدر لاما وأنور وجدي وبدرية رأفت وإخراج إبراهيم لاما.

السؤال الثامن: كيف أتقبل أن الشاعر حافظ إبراهيم كان فقيراً معدماً وفي نفس الوقت مبذراً حتى الثمالة، كما ذكرت في نوستالجيا الواقع والأوهام؟

لقد قضى حافظ إبراهيم شطراً كبيراً من حياته في فقر مدقع وبلا مورد مالي وكان يقضي جم وقته في المقهى مع التعساء من أقرانه إلى أن ابتسمت له الحياة في أواخر حياته، وعُيِّنَ مديراً للقسم الأدبي بدار الكتب فأضرب

عن القراءة وراح يقضي ما تبقى من العمر في التندر على الموظفين وترك عمله والجلوس على قهوة مجاورة لدار الكتب لشرب الشيشة (الحمد الله أن وجدت تأصيلاً تاريخياً لسلوك مدير مركز طبي حكومي كان يترك العمل ويذهب للجلوس على مقهى مجاور فإذا احتاجه التمريض في أمر اتصلوا عليه على القهوة للحضور!) طبعاً لا تنسَ أنه لم يكن متزوجاً ولم ينجب أطفالاً، لذلك كان ينفق راتبه كاملاً... حالة انتقال حافظ إبراهيم من البؤس الشديد إلى الوظيفة الحكومية ذات الدخل الثابت دعت بيرم التونسي إلى مداعبته بالقول: "وحق من سد فقرك بالكتبخانة وتاب عليك م القعاد في القهوة ويانا" وبحسب مجلة آخر ساعة في عددها **902** في **6** فبراير **1952** ففي اليوم الثاني ذهب بيرم لدار الكتب فلمحه حافظ وأعطاه ثلاثين قرشاً وقال له: اربط لسانك.

رغم كل هذا فيحسب لحافظ إبراهيم أنه لم يتنكر يوماً لأصله أو تعالى واحتقر فقره، بل بقي متواضعاً دوماً ومحتفظاً بمودة الجميع ففي مجلة الفنون في **26** ديسمبر **1926** كتب "اعتراف بفضل أمير الشعراء... حضرة صاحب الفنون.. أشاع بعض من لا خلاق لهم أني أوعزت إلى صاحب جريدة النواب وإلى قريبه عبد الله حبيب بكتابة ما يسطرونه من الهجو والنقد في أمير الشعراء أحمد بيك شوقي، فأقسم بالله العظيم وبشرفي أني أمقت صاحب جريدة النواب وقريبه عبد الله حبيب وأعتقدُ أنّ ما

يسطرونه على صفحات تلك الجريدة الساقطة سخافة وقولاً مرزولاً ولا يخطر بفكري أن أكافئ أمير الشعراء في حسبه وأدبه وبيانه وشعره وأنا لا أتطلع إليه إلا كما ينظر العبد إلى سيده المحسن والسلام... حافظ إبراهيم الشاعر بدار الكتب".. وسبحان من له الدوام فكما جمعهما الاحترام في الدنيا جمعهما الموت في عام واحد **1932**، ولكن كانت مقبرة حافظ إبراهيم شديدة التواضع إذا ما قورنت بمقبرة أمير الشعراء أحمد شوقي..

****

السيرة الذاتية للمؤلف

د. محمد فتحي عبد العال

من مواليد الزقازيق محافظة الشرقية بمصر عام 1982

المؤهلات العلمية:

1-بكالوريوس صيدلة جامعة الزقازيق 2004.

2-دبلوم الدراسات العليا في الميكروبيولوجيا التطبيقية جامعة الزقازيق2006.

3-ماجستير في الكيمياء الحيوية جامعة الزقازيق 2014.

4-دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية من المعهد العالي للدراسات الإسلامية2017.

5-شهادة إعداد الدعاة من المركز الثقافي الإسلامي التابع لوزارة الأوقاف 2017.

6-دبلوم مهني في إدارة الجودة الطبية الشاملة من أكاديمية السادات للعلوم الإدارية 2017.

محتويات الكتاب



دراسة تاريخية

تاريخ حائر بين بان وآن

د. محمد فتحي عبد العال

الطبعة الأولى

1444 هـ 2022 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

00201030502390

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com